

قبيلة شمر العربية مكانتها وتاريخها السياسي

قبيلة شمر العربية
مكائنتها وتاريخها السياسي
1800 - 1958

تأليف

Jhon Frederick Williamson

ترجمه و قدّم له

مير بصري

اطروحة قدمها المؤلف الى «شعبة التاريخ في جامعة
انديانا للحصول على الدكتوراه في الفلسفة»

دار الحكمة

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

1999

DAR AL-HIKMA

Publishing and Distribution



دار الحكمة

للطباعة والنشر والتوزيع

88 Chalton Street London NW1 1HJ. Tel: 0171 - 383 4037 Fax: 0171 - 383 0116

مقدمة المترجم

هذا كتاب نادر وضعه باحث أميركي مدقق، هو جون فريديريك وليمسن أستاذ الآداب في جامعة أنديانا بالولايات المتحدة وتناول فيه تأريخ قبيلة شمر ومكانتها وموقعها السياسي منذ نزوحها إلى منطقة الجزيرة في شمال العراق سنة 1800 حتى ثورة 14 تموز 1958.

وشمر من قبائل العراق الكبرى، وهي قبيلة قحطانية مساكنها الأصلية في جبل طيء، وبيت الرئاسة فيها لآل الجرباء، وهم آل محمد من فروع طيء. وقد قال مؤرخ العراق عباس العزاوي أن قبيلة شمر نزلت إلى العراق سنة 1791، ثم سار شيخها مطلق إلى سورية وتوجه إلى الحج مع أحمد باشا الجزار وعاد إلى بادية العراق، وقد أصاب نفوذاً عظيماً.

أغار الإمام سعود بن عبد العزيز آل سعود سنة 1798 على بادية العراق، وكان الشيخ مطلق بن محمد الجرباء الآنف الذكر نازلاً فيها فقاتله. لكن فرس مطلق عثرت في جريها فسقط الشيخ وقتل. وكانت الحكومة العثمانية آنذاك تلج في محاربة ابن سعود ومحاولة القضاء على حكمه بعد أن استولى على الأحساء.

إن تأريخ قبيلة شمر في العراق في القرن التاسع عشر مليء بالوقائع والأحداث، وقد تتبعها المؤلف بدقة وأسهب في ذكر تفاصيلها. وحسبنا أن نرجع إلى مصادر الكتاب الكثيرة لنطلع على الجهود التي بذلها في هذا السبيل، ومنها سجلات الحكومة البريطانية وتقاريرها، وتأريخ العراق بين احتلالين وعشائر العراق لعباس العزاوي، وعيون الأخبار لابن قتيبة، والبدواة والبدو والقبائل الرحالة في العراق لمكي الجميل، وعشائر الشام لوصفي أحمد زكريا، فضلاً عن المراجع المتعددة باللغة الإنكليزية ورحلات الرحالين إلى العراق.

كان شيخ مشايخ القبيلة بعد الاحتلال البريطاني في نهاية الحرب العظمى سنة 1918 الشيخ عجیل الياور الذي خلف أباه عبد العزيز في الرئاسة سنة 1921، وقد انتخب نائباً عن الموصل سنة 1924، في المجلس التأسيسي الذي قرّر قانون الدولة الأساسي.

ولد الشيخ عجيل سنة 1885 ونشأ في مضارب عشيرته، وحارب مع أبيه في صفوف الجيش التركي حتى احتلال الموصل. كان في بادئ الأمر مناوئاً للحكم البريطاني، لكنه لم يلبث أن خضع لحكم الملك فيصل الأول بعد تأسيس المملكة، وكان من أعضاء الوفد العراقي إلى مؤتمر الكويت المعقود سنة 1923 لتسوية المشاكل المعلقة بين العراق ونجد. وانتدب في السنة التالية للإسهام في حسم المنازعات بين العشائر على الحدود العراقية السورية.

عمل الشيخ عجيل في إسكان عشيرته وتحضيرها وتعليمها الزراعة، وقد اشترى أراضي واسعة وحفر الآبار وأنشأ المشاريع الزراعية في شمالي العراق. وأدركه الموت بالسكتة القلبية وهو يسوق سيارته في الطريق قرب الشرقاط في 13 تشرين الثاني 1940.

ومن شيوخ شمر الذين اشتهروا في تلك الحقبة الحميدي بن فرحان باشا بن صفوق (1885 - 1941). درس في مدرسة العشائر التي أنشأها السلطان عبد الحميد في استانبول. وانتخب نائباً عن الموصل سنة 1934 وجدد انتخابه بعد ذلك. ذكره عباس العزاوي وقال إنه اشتهر بالصلاح وكان سلفي العقيدة ملازماً لقراءة القرآن وكتب الحديث، يتحاشى ذكر عنعنات القبائل وتقاليدها اعتقاداً منه بمخالفتها للشرع الشريف، ويكره التفاخر بالأجداد.

واشتهر أيضاً الشيخ أحمد العجيل الياور (1922 - 1972) الذي تولى المشيخة على أثر وفاة أخيه صفوق سنة 1962. وانتخب نائباً عن الموصل سنة 1948 وأعيد انتخابه. وقد اشترك في حركة عبد الوهاب الشواف في الموصل في آذار 1959 وفرّ بعد خذلانها إلى دمشق وحكم عليه بالإعدام غياباً. وعاد إلى العراق بعد عدة سنوات وتوفي في بغداد.

اقتصر المؤلف على تأريخ شمر في العراق ولم يتطرق بطبيعة الحال إلى إمارة شمر في جزيرة العرب، وهي إمارة آل رشيد التي أسسها عبد الله بن علي بن رشيد المتوفى سنة 1847 ودامت إلى آب 1921 حين قضى عليها سلطان نجد عبد العزيز آل سعود مؤسس المملكة العربية السعودية باستيلائه على معقلها الأخير في حائل.

مير بكري

ٲوطنة

شرح المشكلة

خلال المائة والخمسين سنة الأخيرة شهد الشرق الأوسط عهدا من التغيير المحسوس بدا بصورة دقيقة المجتمعات التقليدية التي وجدت في المنطقة. ومع ان بعض أنحاء المنطقة خبرت مبادئ هذا التحويل قبل سواها فان الحقيقة تبقى ان كل مظاهر الحياة قد مستها فعلا عوامل الأشراف الوثيق من جانب حكومة مركزية، ومواصلات أكثر سرعة، وبضائع استهلاكية جديدة، وعلاج طبي متحسن، وبروز الوطنية. ان هذا التغيير اثر في مجتمع الشرق الأوسط في كافة مستوياته : فقد تأثرت الحكومة المركزية والمدن والقرى والعشائر الرحالة برمتها.

اخذ المؤرخون وسائر علماء الاجتماع في السنوات الأخيرة بدراسة تحول الإمبراطورية العثمانية خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. ومع ان أكثر الكتاب لا يوافقون بالضرورة على المصطلحات التي تصف بما فيه الكفاية التغييرات الطارئة في داخل الإمبراطورية، كلهم يتفقون بالتأكيد على انه بحلول سنة 1841 بدا تحول في المجتمع العثماني. ومن الصعب العثور على عبارة واحدة تصف هذا الاتجاه بصورة وافية.

فالإصلاحات مثل الانتقال الى الحضارة الغربية او الأوربية او غير المتطور او المتأخر او المحروم ثقافيا مما يظهر في المؤلفات الثقافية قد خلقت خلافا جسيما بسبب دلائلها المتمركزة حول العرق ظاهرا. في هذا المؤلف يشار الى التغيير السريع الذي حدث في قسم كبير من العالم خلال القرن الاخير بأنه " تمدن ". ويعنى بالتمدن عملية تحول مجتمع تقليدي خاص نحو ثقافة القرن العشرين الأخيرة مع تأكيدها على القومية والمواصلات السريعة والمعالجة الطبية والاقتصاد العالمي المتوحد والنسبة العالية من التعليم.

ان التمدن (أو التحديث) في داخل الإمبراطورية العثمانية خلال القرن التاسع عشر اتخذ سبيلا متقطعا مبدلا بعض جوانب المجتمع بصورة جوهرية ومغفلا جوانب اخرى فعلا. والى هذا التاريخ نجد مؤرخي الشرق الأوسط الذين يدرسون هذه الظاهرة قد ركزوا أنظارهم على تحليل التبدلات التي جرت في عاصمة آل عثمان الآستانة (استنبول). وهذه الدراسات المختلفة تعطي نظرة فاحصة على التغييرات في نواحي الوظائف والمنشآت والإدارة والثقافة الجارية في الإمبراطورية، لكنها غضت النظر عموما عن معالجة الأحوال في الولايات¹ ومؤلفات قليلة نسبيا تصف تأثير الإصلاحات في الحكومة

¹ راجع الكتب التالية عن تاريخ الإمبراطورية العثمانية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين : برنارد لويس (نشوء تركية الحديثة، لندن 1968)، نيازي بركس (تطور العلمانية في تركية الحديثة، مونت ريال 1964)، ستانفورد شو (بين القديم والحديث :

المركزية في الولايات عموماً، أو في ناحية معينة أكثر، كيف أثرت تلك الإصلاحات على الجماعات الفردية في المناطق المحلية¹ فعلى دراسة واحدة أو اثنتين عن الإصلاحات في الولايات، بقي تاريخ التحول في الولايات غير مكتوب.

ان ولاية بغداد، وهي منطقة ذات موارد رخاء كامنة في الإمبراطورية، وهنت في انحطاطها طوال القرن التاسع عشر. ولم تظهر آثار الرقابة المركزية الى منتصف القرن في ولاية بغداد. وحالما قررت الحكومة العثمانية ان تشدد حكمها على الولاية حل التغيير تدريجياً في هذه الناحية البعيدة. والدراسة التحليلية المفصلة لتاريخ العراق في القرن التاسع عشر لاتزال تطلب الكتابة.* ولسوء الحظ لم يحصل سوى مبادئ بسيطة جداً في دراسة هذه الناحية المحدودة في

الإمبراطورية العثمانية في عهد سليم الثالث، كمبريدج (1971) رودريك هـ. ديفرس (الإصلاح في الإمبراطورية العثمانية 1856-1876، برنستن 1963)، شريف ماردين (منشأ الفكر العثماني الغني، برنستن 1962)، روبرت ديفرو (العهد العثماني الدستوري الأول، بلتيمور 1963)، ارنست رامور الصغير (الاتراك الشبان، برنستن 1957).

¹ راجع الدراسة الممتازة لموشي معوز : الإصلاح العثماني في سوريا وفلسطين 1840 - 1861 (اكسفورد 1968)، أيضاً هربرت بودمان الصغير : الفرق السياسية في حلب 1760 - 1826 (شايل هيل 1963) .

الإصلاح داخل الولايات¹

وبالنظر الى فقدان المؤلفات الأساسية لتفهم مسيرة التحول الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والإنشائي في العراق فان اية دراسة يمكن ان توضح وتشرح تاريخ المنطقة. والمؤلف الحاضر يعالج التاريخ السياسي لعشيرة شمر الجرباء في الجزيرة (شمال غربي العراق) منذ نحو سنة 1800 الى 1958² واتباع سلسلة تاريخ شمر خلال القرن ونصف القرن الأخير يحقق أهدافا رئيسية متعددة. يبدأ المؤلف بتحليل اثار هجرة شمر الجرباء على النظام الجغرافي السياسي الثابت نسبيا في الجزيرة. وان توازن القوة الجديدة التي تحققت بين آل شمر والحكومة المركزية والسكان المحليين تهيء فرصة طيبة لدراسة الأحوال في جزء اوسع من الإمبراطورية العثمانية.

¹ منذ ظهور كتاب ستيفن لو نغريغ " اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث " (اكسفورد 1925) لأول مرة قبل نحو 50 سنة بقي يمثل اهم دراسة باللغة الانكليزية لتاريخ العراق الحديث.

² خلال السنوات عالجت مؤلفات قليلة فقط بعض نواحي تاريخ شمر الجرباء ومع الاسف لم يعالج أي من هذه المؤلفات بما فيه الكفاية تاريخ شمر الجرباء في الجزيرة. وفيما يلي بعض البحوث المهمة ولوانها محدودة لشمر الجرباء : ماكس فريهر فون اوبنهايم (البدو : في العراق وسوريا الجزء الاول، لبيزيغ 1939)، عباس العزاوي (عشائر العراق، الجزء الاول، بغداد 1957)، روبرت مونتاني (قصص شعرية بدوية جمعت لدى شمر الجزيرة) في مجلة الدراسات الشرقية (1935) ص 33 - 119.

حين قامت حكومة الأستانة بتوثيق سيطرتها على الجزيرة، قدمت عشيرة شمر النائرة تحديا قويا ومستمرًا للسلطة العثمانية. وقد تطلب الأمر صراعا دام مائة سنة تقريبا من جانب الحكومة العثمانية ومن جانب الحكومة البريطانية والعراقية أيضا بعد الحرب العظمى الأولى لإخضاع شمر نهائيا. وهكذا ان هذه الدراسة تصف أيضا الطرق التي استعانت بها الحكومات المركزية المختلفة في النهاية للسيطرة على العشائر الرحالة مثل شمر.

ان طريق التحول المجتمعي في الشرق الأوسط يظهر على أشده في التغيرات التي لامست الحياة العشائرية خلال القرن الأخير. وأنه لواضح حقا حين يتفحص المرء دور العشائر البدوية في عراق وسوريا اليوم ان تغيرات جسيمة حدثت منذ سنة 1800. وهذه الدراسة لاتحدد المراحل الواسعة للتغيير العشائري فحسب، بل تحلل أيضا اثر هذا التحول على شمر الجرباء بوجه خاص. وقد درست بتفصيل شامل الطبيعة المتغيرة للزعامة البدوية والنشاط الاقتصادي والثقافة.

لما كان هذا المؤلف يعالج العلاقات بين عشيرة شمر والعشائر المجاورة لها ومع الحكومة المركزية والمجتمع المتطور بسرعة، فمن المهم جدا ان يفهم المرء نقطتين اساسيتين: (1) جغرافية الجزيرة الطبيعية والاقتصادية والسكانية (الديموغرافية) وهي موطن شمر، (2) طبيعة الحياة البدوية التقليدية.

جغرافية الجزيرة

ملاحظات تاريخية

في نهاية القرن الثامن عشر هاجرت عشيرة شمر الجرباء من منطقة نجد في جزيرة العرب الشمالية واقامت في منطقة بالعراق تعرف بـ (الجزيرة). وكلمة الجزيرة في اللغة العربية تعني الارض التي يحيط بها الماء من كل جوانبها، وهي وصف ملائم للمنطقة. فمذ القرن السابع الميلادي دلت هذه التسمية على هذه المنطقة من العراق وسوريا الحديثة الواقعة بين نهري دجلة والفرات¹.

والجزيرة كم منطقة جغرافية كان لها أهمية استراتيجية عظيمة لانها كانت طريق المرور الجغرافي حيث تلتقي عدة انهر وطرق تجارية وإمبراطوريات². وقد تركزت الحضارة الآشورية القديمة في نينوى وازدهرت فيها. وفي عهد الدول العربية في القرون الوسطى نالت هذه المنطقة رخاء عظيما بسبب إنتاجها الزراعي وصناعاتها اليدوية المشهورة وتجارة القوافل النامية. وجهزت المنطقة خلال الحروب الصليبية مؤنا وجنودا للأيوبيين الذين استعادوا فتح البلاد المقدسة.

¹ غاي لسترانج : اراضي الخلافة الشرقية (نيويورك 1905) ص 86 - 114.

² م كنارد : الجزيرة (المعلمة الاسلامية، الجزء الثاني، الطبعة الثانية) (ليدن 1957) ص 523 - 524.

ومع الأسف ان الغزو المغولي في منتصف القرن الثالث عشر
قد دمر معظم إنتاجها الزراعي. ومثل ذلك أعاشت المنطقة قبل الغزو
المغولي عددا كبيرا من السكان.
ولكن بين القرنين الثالث عشر والثامن عشر هبط عدد السكان
وأصبحت أنحاء كثيرة من الجزيرة صحراء حقيقية¹ وان هجرة العشائر
الرحالة لعبت دورا كبيرا في هذه العملية.

¹ البرت حوراني : نظرة الى التاريخ : مقالات عن الشرق الادنى وغيرعا (بيروت
1961) ص 40 - 42.

الجغرافية الطبيعية

تؤلف المنطقة برمتها جزء من سلسلة الارض العالية العربية الواسعة التي تمتد على مسافة الف ميل الى الجنوب وهي هضبة واسعة منحدره قليلا تغطي اساسا من صخور بلورية قديمة. وتعلو هذا الاساس البلوري طبقة من حجر الكلس الطباشيري من العصر الحجري مرصع في عصور مختلفة بطبقات ملح وجبس : تبدا المنطقة من ارتفاع نحو 1500 قدم تحت الجرف الكردي شمالا ثم تتحدر تدريجيا الى الجنوب الى ارتفاع نحو 250 قدما فوق مستوى البحر في العراق الجنوبي¹.

ان الحدود الجغرافية المتفق عليها عموما للجزيرة تحيط بمنطقة اوسع كثيرا من ديرة شمر الجرباء (وهي المنطقة الجغرافية التي تعيش فيها العشيرة)² لذلك منعا للالتباس، يذكر اسم " الجزيرة " في هذه الدراسة ويحدد بديرة شمر الجرباء الضيقة. ويقع خط الحدود الملائم شمالا بجبل سنجار وجبل عبد العزيز، ويتمثل الحد الجنوبي برأس الدلتا نهري دجلة والفرات الواقع على بعد اميال قليلة تحت

¹ وليم برايس : اسيا الجنوبية الغربية : جغرافية نظامية (لندن 1966) ص 229 - 230.

² كالسابق.

بغداد. اما الحد الغربي فهو نهر الفرات وفرعه الخابور، والشرقي هو دجلة مثل خربة في الغرب¹.

حين ننظر الى مظهر الجزيرة الطبيعي لابد ان نلاحظ السهل الواسع الممتد عدة اميال بدون تغيير واضح. وهذه المنطقة شكلها يشبه المثلث وسعتها كما يلي : 300 ميل في الشمال، 400 ميل في الشرق، و 500 ميل تقريبا على طول الساق الشمالية الغربية - الجنوبية الغربية. ويتميز القسم الشمالي من السهل بتلين عاليين على المحور الشرقي - والغربي².

تغطي هذه المنطقة المنبسطة نسبيا تربة بنية مائلة الى الحمرة والصفرة. والى شمال هذين التلين والى جنوبهما رأسا تصل التربة البنية المائلة الى الحمرة الى عمق يتراوح بين 24 الى 100 انش (بوصة). ويظهر الى ابعد من ذلك جنوبا شريط اوطأ من التربة البنية المائلة الى الحمرة. وتغطي سائر السهل تربة رمادية تميل الى الصفرة مؤلفة من مواد جبسية مختلفة. ولما كانت هذه التربة تصل الى عمق نحو 10 انشات فقط ولا تتضمن سوى القليل من المادة العضوية فان هذه المنطقة قاحلة نسبيا. يضاف الى ذلك ان نحو من

¹ كالسابق.

² وليم ب. فيشر : الشرق الاوسط : الجغرافية الطبيعية ومنطقية (الطبعة السادسة ن لندن 1971) ص 352 - 353.

8 الى 10 انشأت من الارض الرملية تظهر فوق الاساس الجبسي في هذه الناحية الجنوبية، خصوصا قرب وادي الثرثار¹.

كما ذكر انفا ان التلين العاليين يتفرعان من السهل غربي الموصل. وسلسلة التل الغربي المعروفة باسم جبل عبد العزيز تصل الى ارتفاع 2625 قدما. وهذه السلسلة تقع بين نهري البليخ والخابور. وسلسلة جبل سنجار التي تقع الى بعد 70 ميلا غربي الموصل تتضمن اعلى الجبال في الجزيرة. وقد كانت هذه الجبال لامتد طويل شبه القلاع ضد الغزاة الخارجيين، وهي تصل الى ارتفاع 4781 قدما وتكون موطن عشائر اليزيدية².

يعتمد مستوى الانتاج الزراعي والسكنى البشرية في الجزيرة على تيسر الماء. وتعاني هذه المنطقة عموما من سقوط امطار سنوية دون الكفاية. ونماذج تساقط الامطار الدورية التي تتناوب بين المواسم الطرية والجافة تسبب صعوبات جمة للزرع واصحاب المراعي. يقع الموسم الطري بين تشرين الثاني وايار، اما موسم الجفاف فيبدأ من أوائل حزيران ويمتد الى نهاية تشرين الاول. ومتوسط سقوط الامطار سنويا بين 3 و 10 أنشأت لمعظم المنطقة ويصل الى 20 انشا تقريبا في الشمال. والمتوسط حوالي الموصل وحوضي نهري الزاب

¹ ب بورنغ : التربة واحوال التربة في العراق (بغداد 1960) ص 78 و 211.

² برايس : اسيا الجنوبية الغربية (ص 229).

يبلغ من 15 الى 30 انشا سنويا. ويتبدل المناخ سنويا حسب تبدل تساقط الامطار خلال المنطقة. ففي اشهر الصيف تكون درجة الحرارة احيانا اكثر من 100 فهرنهايت في الصحراء وتصل الى مستوى 90 درجة فهرنهايت في الموصل¹ علاوة على الامطار الضعيفة يحجز نهرا دجلة والفرات ماءا اضافيا لري الزراعة الذي لولاه لم يكن في الامكان ممارسة الزراعة الا في المناطق القليلة التي تروى بالمطر السنوي الكافي. تبدا منابع مياه دجلة في جبل طوروس في الاناضول الجنوبية الشرقية بجوار ديار بكر، وتجري من بحيرة غولجك، فتتجه دجلة الى الجنوب عبر الموصل الى تكريت وبغداد. ويمر النهر الى الجنوب ابعد من ذلك من خلال عدد من المستنقعات قبل ان ينقسم الى الفرات فيؤلفا شط العرب الذي يصب في الخليج العربي. وفي جنوب الموصل ينضم فرعان رئيسيان هما الزاب الاكبر والزاب الاصغر الى دجلة².

ان الفرات ايضا يخرج منبعه من جبال طوروس شمال شرقي مصادر مياه دجلة. وهو يتألف من اتصال نهري : قره صو ومراد صو، ويجري خلال بادية الشام حتى يصل الى الخليج العربي. ونهرا

¹ كالسابق ص 229 - 230.

² جورج بزكريسي : ملئقى الطرق: الارض والحياة في اسيا الجنوبية الغربية (شيكاغو 1960) ص 141-148.

بليخ والخابور يصبان في الفرات، ووديان النهرين شهدت خلال التاريخ زراعة مزدهرة¹. تجهز المياه الوفرة لهذين النهرين الماء للزراع على شواطئهما لكنهما لا يستطيعان الوصول الى داخل الجزيرة وبديلا عن ذلك ارغم ابناء عشائر البادية على الاعتماد على عدة وديان واسعة للحصول على الماء. والوادي هو نهر جاف. وخلال موسم المطر قد يفيض الوادي بسيل زاهر عمقه عدة اقدام. وخلاف ذلك في الصيف يجف الوادي فيصبح مجرد ارض ندية. يوجد في الجزيرة واديان رئيسيان : وادي اجيج ووادي الثرثار. وهذا الاخير، وهو اوسع الاثنين، يبدأ جنوبي جبل سنجار ويسير بمحاذاة نهر دجلة عند جريانه الى الجنوب قبل ان ينتهي في مستنقع يسمى ام رحل شمالي الرمادي. وابتعد من ذلك الى الغرب وقليل الى الشمال البو كمال يبدأ وادي اجيج ايضا عند اقدام جبل سنجار، ومثل وادي الثرثار ينتهي في بحيرة مالحة تسمى الرودة. وهذان الوديان يكونان مصادر الماء لشمر خلال موسم الجفاف².

توجد في ديرة شمر منطقتان للنبات. في جنوب جبل سنجار توجد منطقة سهل جاف يفصل السهل الشمالي الرطب عن البادية. وفي هذه المنطقة تشجيرات شوكية وحشائش تهئ مراعي طيبة نوعا ما. اما

¹ كالسابق.

² سلسلة النشرات الجغرافية: العراق والخليج الفارسي (اكسفورد 1944) ص 77-79-81.

الاقسام الباقية من الجزيرة فأكثرها ارض صحراوية. وتزهـر خلال الربيع ورود البادية البرية مثل الخشخاش والخنشار والشعير البري فتـهـيئ بساطا غضا من النباتات الملونة. ولكن عندما يتقدم موسم الجفاف تذبل هذه الورود وتترك وراءها مجموعة اعتيادية من ادغال البادية والقصعين والشجيرات الصغيرة. وهذه الانواع من النبات تدعم المراعي، لكن نباتات السهل الجافة تهـيئ انحاء مفضلة لرعي الاغنام¹.

¹ كالسابق ص 75-81.

السكان

ان الماء هو العامل المهم الذي يسيطر على نمو سكان الجزيرة وتجمعاتهم. وعند الكلام على الديموغرافية من المهم تصور المنطقة كمثلث، كل بجانب منه يتضمن الماء الكافي لدعم سكان ثابتين. يضاف الى ذلك ان داخل المثلث يمثل منطقة جافة لا تتحمل سوى سكان محدودي العدد. وعند النظر في هذه الصورة يستطيع الانسان بسهولة ان يتخذ فكرة عن نماذج الجزيرة السكانية. سكنت العشائر البدوية في ناحية كبيرة من هذه المنطقة خلال القرن التاسع عشر. وكانت طريقة حياتهم الرعائية تستغل بصورة مرضية موارد البادية المحدودة. وقد اقام في الجزيرة نوعان مختلفان من الرحل : عرب رحالة شغلوا امتدادات واسعة من البادية السورية وسائر السهوب الجافة وكونوا مجموعة واحدة¹ واكراد رحل يسكنون عند اقدام تلال الجزيرة الشمالية ألفوا المجموعة الاخرى²

اقامت عشائر زراعية ثابتة على سواحل انهر دجلة والفرات

¹ فون اوبنهايم : البدو (الجزء الاول) ص 22-36.

² م. روبرت مونتاني: بعض مظاهر سكان الجزيرة العليا (في مجلة الدراسات الشرقية 2) 1932 ص 55-56.

والخابور وبلخ. ولم يكن لهذه العشائر عموماً قوة عسكرية كافية لمقاومة غارات السلب والنهب من جيرانها البدو. ولأن رجال العشائر هؤلاء المقيمين على شواطئ النهر يسلبون ويشغلون بأشغال يدوية فإن العرب البدو يعاملونهم بكل احتقار. ويظهر من استقراء التاريخ أن بعض العشائر الزراعية الساكنة كانت في الأصل بدوية، لكنها لأسباب مختلفة اتخذت بعد ذلك حياة الزراعة الثابتة.

بعض العشائر ربت قطعان اغنام لزيادة وارداتها الزراعية. وكما ذكرنا آنفاً أن هذه العشائر سكنت قرب أنهر الجزيرة. ومن الشمال إلى الجنوب على شواطئ دجلة كانت أهم العشائر الزراعية المقيمة الجبور والبوحم والبو ددران قرب الموصل. ومثلها البو عباس والبو تميم وعشائر الجحيش أقامت على الشواطئ بين سامراء أو بغداد. وإلى الغرب في وادي الفرات كانت أهم العشائر الزراعية الفراعة والجبور والجنابيون¹.

بالإضافة إلى هذين النهرين الرئيسيين هما نهرا البلخ والخابور مواطن لعشائر متعددة مستوطنة تمارس الزراعة ومنطقة جبل سنجار التي تتمتع بمطار سنوية كافية شيئاً ما فهيأت ناحية أخرى للسكان المستوطنين وقد تحمل أبناء العشائر اليزيدية في الزراعة في وديان هذه

¹ العراق والخليج العربي ص 364، 366، 369، 373.

المنطقة الجبلية¹ واليزيديون مثل العشائر النهرية المستوطنة عاشوا في تأريخهم وهم يخشون غارات السلب والنهب من جانب العشائر البدوية المجاورة.

ولكن قربهم من المنافذ الجبلية الخفية حماهم من القوة التامة للتخريب البدوي.

كانت حلب وبغداد والموصل اعظم مدن الجزيرة. وخلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قامت الحكومة العثمانية بأول محاولاتها للسيطرة التركيفية والادارية من هذه المدن التجارية. كانت طرق القوافل توصل هذه المراكز التجارية خلال قرون طويلة². ومدن اخرى اصغر في الجزيرة قامت بنفس الادوار ولكن على نطاق اضيق. وعلى شواطئ الفرات استخدمت بلدان صغيرة مثل هيت ودير الزور والرقعة كمحلات مرور في طريق قوافل بغداد - حلب. وكانت اكثرية سكان المدن في الجزيرة من العرب.

¹ د. س. مارغليوث: اليزيدية (المعلمة الاسلامية، الجزء الرابع) ص 1163-1170.

² س.ب. غرانت: البادية السورية: القوافل، السفر، التحديات انيويورك 1938، ص 153.

العشيرة البدوية

لما كان هذا المؤلف يدرس قبيلة شمر الجرباء فان التحليل العام للحياة البدوية والتنظيم العشائري يعطي معلومات اولية عامة ضرورية لفهم تاريخ القبيلة. والمناقشة التالية تعالج العشائر البدوية عموماً. وسوف تدخل خلال الدراسة معلومات خاصة تشرح النواحي المختلفة لحياة شمر العشائرية.

قبل كل شيء، ماذا كانت العشيرة البدوية ؟ ثم لماذا اتبعت شكلها الخاص من التنظيم الاجتماعي ؟ ان الاعتبار الرئيسي في الجواب على هذه الاسئلة المهمة يتركز حول حقيقة ان البدو كانوا رعاة غنم. ولجل ان يتمكنوا من العيش في بيئة قاسية وحرها الشديد، وفقدان الماء كلياً تقريباً، وطبيعة الارض الصعبة، طور البدو نظاماً كفواً لتحويل موارد البادية الضئيلة الى منتوجات حافظة للحياة وقد استطاع البدو بتطوير شكل حياتهم ان يحلوا مشكلة العثور على الماء حيثما يكون في الوديان او الابار او الاحواض الدائمة من خلال علم ذكي بأرض الصحراء¹.

¹ جون غلوب: بدو العراق الشمالي في صحيفة الجمعية الملكية لاسيا الوسطى الجزء 22 ص 1، (1935)، 15.

وكان الطعام العنصر الحيوي الثاني في وجودهم. فان البدو الخالص في البوادي العربية والسورية حلوا مشكلة الطعام بالاحتفاظ بقطعان الابل المدجنة. وقيمة البعير واهميته للبدو مشروحة شرحا جيدا في النبذة التاريخية : وان البعير كمصدر الطعام والصوف والجلد وسائر المنتوجات وكوسيلة للحمل والنقل الشخصي يجمع في جنس واحد كل هذه الامور للبدوي على مقياس لا يزاحمه أي حيوان اهلي اخر او مجموعة حيوانات في المنطقة¹، وبالنظر الى حاجة البعير المستمرة الى مراعى جديدة يتبع البدو حياة رحالة. وفي بادية الشام والجزيرة اتبعت شمر الجرباء كغيرها من معظم العشائر البدوية، شكلا مقرر (ديرة) في تنقلاتها السنوية. ففي مبدأ الربيع يقيم البدو عادة في مناطق السهوب التي تجاور البادية. وحين يصبح جو الصيف اشد حرارة خافضا للنبات الضروري. تتحرك العشائر شمالا قاصدة التلال والوديان المختلفة حيث تكون عادة المراعي الملائمة. وخلال اشهر الصيف الحارة يضرب البدو خيامهم قرب منابع الماء او الابار. وعندما تبدأ امطار الخريف تزور العشائر مراكز مدنية مختلفة حيث تقايض المنتوجات الحيوانية بالحبوب والتمور والمنسوجات القطنية والادوات المعدنية. واخيرا في اخر مراحل هجرتها الدورية تعود العشائر الى البوادي الجنوبية حين يخيم برد الشتاء على شمال الجزيرة.

¹ لويز سيويت: الغارات على الأباغر لبدو عرب الشمال: آلية التكيف البيئي (مجلة عالم الاحياء الاميركي) 67 (1965).

ويجد البدو عادة، وقد عادوا مرة أخرى إلى الجنوب، علفا كافيا
لمواشيهم¹.

¹ هنري فيلييه: علم الإنسان (انثربولوجية) في العراق (الجزء الأول) شيكاغو 1940 ص 14.

نظام العشائر

ان صلة الدم (القرابة) تؤلف الاساس لكل الموحّدات القبليّة الاجتماعيّة فالاسرة الابوية الواسعة، او العائلة، الفت الاساس لمجتمع شمر الابوي. والعائلة المؤلفة على شكل السلالة الابوية تتضمن الاب واولاده، وكلهم يسكنون في الجوار القريب ويشاركون في تملك قطيع العائلة. ثم تأتي بعد ذلك في مراتب النظام الاجتماعي " الفرقة " وهذه الوحدة تتألف من 100 الى 300 عائلة تشارك في جد مشترك يعود الى 5 الى 7 اجيال. وتكون ملكية الابار والمراعي بيد الفرقة. وهذه الوحدة تنتقل وتخيم معا. والدية ايضا تحسم لدى هذه المجموعة¹.

ويؤلف " الفخذ " المستوى الاعلى التالي في التنظيم الاجتماعي لعشيرة شمر. ويتحد عدد من الافخاذ لتأليف " العشيرة "، وهي اعظم تجمع للبدو. وتوحد صلة الدم (القرابة) الواحدة هذه المجموعة الكبيرة. لكن وظيفة العشيرة كقوة سياسية هيأت ايضا طبيعة الوحدة. والعشيرة وحدها فقط تستطيع معالجة الشؤون كحماية اللاجئين والسياسة بين العشائر. وهذه المجموعة تهئ ايضا القوة العسكرية

¹ لوثر ستين : شمر جربا (باللغة الالمانية) برلين 1967 ص 142-145. وعن امثلة اخرى للتنظيم العشائري راجع جبرائيل باير : السكان والمجتمع في الشرق العربي (مترجم عن العبرية بقلم حنة سزوكي) لندن 1960، ص 122-127.

لحماية الوحدات الصغيرة عند اعدائها¹.

كانت كل عشيرة تختار احد اعضائها شيخا. وفي أوقات الأزمات الشديدة تتحد عدة عشائر لتؤلف اتحادا اكبر يعرف باسم " قبيلة ". ويختار الشيوخ المختلفون زعيما من بينهم يسمى " شيخ المشايخ " ليراس الاتحاد في الحرب. وبالرغم من كبر حجمها فان اكثر القبائل تضع اتحادها على اساس جد اعلى عام².

كانت المنافسة بين العشائر تمثل عنصرا اخر في تفهم المجتمع البدوي. وكل عشيرة بدوية كان لها علاقات عدائية تقليدية مع عشائر اخرى. ومنذ نهوض الاسلام في القرن السابع الميلادي لعب التنافس بين العشائر دورا شديدا السوء في التاريخ العربي. مثال ذلك التنافس العشائري بين العشائر الشمالية العربية والجنوبية اثر تأثيرا شديدا في سقوط الدولة الاموية في القرن الثامن. ومع ان معنى هذا التنافس الاول قد اضمحل خلال السنوات الالف الاخيرة فان ظاهرة التنافس العشائري استمرت تؤثر على عشائر الجزيرة. خصوصا ان شمر حاربت اعدائها التقليديين عنزة طوال القرن التاسع عشر وخلال النصف الاول من القرن العشرين³.

¹ ستين : شمر جرباء، ص 142-145.

² كالسابق، فون اوبنهايم : البدو، الجزء الاول ص 30.

³ رفائيل يتاي:النهر الذهبي الى الطريق الذهبي:المجتمع، الثقافة والتحول في الشرق الاوسط (فيلاذلفية 1962 ص 207-208).

الانقسامات الاجتماعية

ظاهرة مهمة اخرى في المجتمع البدوي هي المراتب الطبقية بين العشائر المختلفة. فبعض البدو وضعوا في طبقة العشائر النبيلة، بينما اعتبر اخرون من العشائر التابعة. وقد انتجت هذا التمييز في احيان كثيرة القوة العسكرية والطاقة السياسية. وحدث هذا التمييز الخاص بسبب ان المجتمع البدوي رفع قيمة الشجاعة والجسارة. والاهمية الكبرى لهاتين الميزتين في تعيين مواقع الزعامة والاحترام سوف تمثل بأمثلة من تاريخ شمر¹.

علاوة على ذلك كان البدو ينظرون الى حياتهم المتنقلة كأنها طريقة الحياة الصالحة وحدها. وكانوا عموما يحتقرون سكان المدن ويعاملونهم بازدراء. لكن البدو كانوا يحتقرون ايضا العشائر العربية الاخرى التي تعمل في الزراعة مستوطنة او نصف مستوطنة. وشمر بصفتها عشيرة نبيلة كانت تمثل القيم والمزايا الانف ذكرها.

¹ روبرت مونتاني: حضارة البادية: رحالة الشرق وافريقيا (باريس 1947 ص 50-55).

ان المراتب الاجتماعية في داخل العشيرة الرحالة الصرفة مثل
شمر الجرباء تقع على عدة مستويات مختلفة. فالرجال الذين يتمتعون
بشهرة كمحاربين شجعان يشغلون موقعا ساميا. والرعاة الذين يخدمون
الثروة الحيوانية للعشيرة يشغلون المرتبة الثانية في سلم العشيرة
الاجتماعي. والمهاجرون اللاجئون من العشائر المجاورة يمثلون ايضا
مجموعة خاصة ضمن العشيرة. ثم هناك العبيد السود الذين يخدمون
الشيوخ بصيغة حرس وخدم يشكلون مجموعة اجتماعية اخرى. ويحتل
ان أدنى مجموعة في العشيرة تشمل الحدادين وسائر العمال¹.

¹ آن باننت: عشائر الفرات البدوية (نيويورك 1879) ص 411-413. فون
اوبنهايم: البدو (الجزء الاول) ص 32-33.

شيخ العشيرة

كانت مشيخة العشيرة في اكثر الأحيان تقع في عائلة خاصة امتازت بصفات الشجاعة والزعامة والبطولة والحكمة خلال السنين. ولم يكن هناك مثالا مقررًا للارث العشائري كالانتقال من الأب إلى الابن، وكانت تنتقل الرئاسة أحيانا إلى ابن عم أو عم أو اخ للشيخ المتوفى أبلى بلاء حسنا ضمن العشيرة. وينتخب الشيخ الجديد الرجال المسنون في العشيرة. ونتيجة لذلك كان الشيخ لا يحمل سوى القليل من القوة القاهرة على ابناء عشيرته، وكل الولاء والسلطة التي لديه تأتي من المزية الأدبية. والشيخ ينال الاحترام عن طريق شجاعته وفطنته السياسية وكرمه وحكمته وفصاحة لغته العربية.

وهذه المزاي لم تكد تتبدل منذ عهد السادة المشهورين في الجاهلية مثل الأحنف بن قيس وعامر بن الطفيل¹.

ان وظيفة شيخ العشيرة تحمل واجبات عديدة بخصوص الشؤون

¹ عن سيرة السيدين في الجاهلية راجع: شارل بيللا: الأحنف بن قيس (المعلمة الإسلامية (2) الجزء الاول ص 303-304 وكاسكيل: عامر بن الطفيل (المعلمة الإسلامية (2) الجزء الاول ص 442. ايضا عن خصائص السادة في الجاهلية راجع عمرو بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين الجزء الاول (القاهرة 1968) ص 94، الجزء الثاني ص 89، 160، الجزء الثالث ص 210، 335-336، كتاب الحيوان الجزء الثاني (مصر 1965) ص 94-96، ابو علي اسماعيل بن القاسم القالي، كتاب الامالي الجزء الثالث (بيروت 1965) ص 118، ابن قتيبة: كتاب عيون الاخبار (الجزء الاول، القاهرة 1925 ص 227 .

العشائرية. فالشيخ، بحكم منصبه يحكم في الامور التي تتناول إعلان الحرب على عشائر اخرى وتنظيم فرق الغزو واستيفاء " الخاوه " (الإتاوة) من العشائر الضعيفة. والشيخ يتولى ايضا ضيافة الضيوف الزائرين ويزاول شؤون العشيرة¹.

يضاف الى ذلك ان الشيخ يتولى أيضا الامور المتعلقة باعلان الهدنة مع جار مقاتل او عقد احلاف جديدة²، في داخل عشيرته نفسها كان الشيخ يقرر شؤون الهجرة متى والى اين. وكان يختار الأرض المناسبة للتخيم في الصيف. والقرار الخاطئ يؤدي الى موت التابعين له من العطش او فقدان حيواناتهم. وكان الشيخ يعمل في احيان كثيرة قاضيا في المنازعات بين رجال عشيرته. والعلاقات بين الحكومة المركزية، خصوصا تحصيل الضرائب وتأمين الامن في ديرة العشيرة، ينفذها الرئيس³. كما ان رفاهية العشيرة تقوم مباشرة على مقدرة الشيخ. وسوف يرى من هذه الدراسة ان مقدرات شمر كانت تتمايل صعودا وهبوطا حسب نوعية شيوخها المختلفين.

وكان الشيخ، وهو يحمل اعباء مسؤوليات متعددة يحصل نسبيا على مكافأة قليلة لمساعدته. ويحتمل ان اهم مكافأة ينالها هي الاحترام

¹ فيليب ك. حتي : تاريخ العرب من اقدم العصور الى الوقت الحاضر (الطبعة التاسعة، نيويورك 1967) ص 28. بلنت : البدو

² بلنت: البدو ص 411.

³ كالسابق.

والشرف الذي تمنحه له عشيرته. وفي المجتمع البدوي لا يوجد شرف اعظم للرجل من اعتباره احكم واشجع واقدر عضو في عشيرته. وعدا احتمال تمتعه بزوجات اكثر او محظية وامتلاكه عبيدا قلائل لخدمته فان حياة الشيوخ لم تختلف الا القليل عن حياة ابناء عشيرته. وكانت ملابسه عادة من نوع افضل وقد يملك احيانا احسن الخيول. لكن فيما يتعلق بالثروة الشخصية او الغنى النقدي، كان معظم الشيوخ فقراء نسبيا، الشيخ يعيش في اكبر خيمة لكن ذلك يعود خصوصا لان عليه استقبال الضيوف¹.

عدا منصب الشيخ لم يكن نسبيا سوى منشآت قليلة في العشيرة البدوية. كان ثمة مجلس لكبار السن يجتمع مع الشيخ ويقدم المشورة في الشؤون العشائرية، وهذا المجلس يقوم بوظيفة المداولة اكثر من كونه يتخذ القرارات والقاضي العشائري يعالج الشؤون القانونية بتفسير نظام معين من العرف العشائري الذي يتاول فعلا كل امور الحياة البدوية. وهناك موظف عشائري اخر هو الكاتب (السكرتير). ولما كان اكثر الشيوخ اميين فهذا الكاتب كان يشغل منصبا قويا لانه يتولى كل شؤون العشيرة علاوة على مسك الحسابات وتحرير المكاتيب².

¹ فون اوبنهايم : البدو، الجزء الاول ص 29-30.

² كالسابق ص 30-31. بيليف: العرب والاسلام والخلافة العربية (مترجم عن الروسية بقلم ادولف غورفتش (نيويورك 1969) ص 61-62.

العادات والقيم البدوية

بالنظر الى طبيعة المجتمع البدوي يعتمد الفرد على جماعته في الحماية والدعم والرفقة، فلا تسمح الحقائق الشديدة لحياة البادية ببديل عن تضامن الجماعة. ان الفرد بنفسه لا يستطيع ان يحارب المناخ او الحكومة او عشيرة معادية. وقد تطور القانون العشائري (العرف) الى نظام مسؤولية الجماعة لحسم الجرائم المعروفة بالثأر للدم (دية). فاذا اساء احد اعضاء الجماعة الى عضو من جماعة اخرى فقد كان واجبا على الجماعة التي تحملت الاذى ان تنال تعويضا. وكانت حماية شرف العائلة نقطة اساسية في الحياة البدوية¹.

كما ذكر سابقا اعتبر المجتمع البدوي اعظم قيمه الاجتماعية الشجاعة والبراعة في القتال والذكاء الشخصي. وبسبب الهمية الموضوعية على هذه الصفات، صنع المجتمع البدوي نظام "الغزو" فيما بين العشائر حيث يستطيع المرء ان يبرز مقدراته. وكانت العشائر تهيب بعناية للغزو على اعدائها وتحاول ان تستولي على مواشيها وخيامها. ومع ان هذه الغارات تجري حسب شروط مشددة

¹ ماكس فريهر فون اوبنهايم: من الخليج الفارسي الى الحوران البادية السورية والعراق؟ (بالألمانية) الجزء الاول برلين 1899-1900 ص 90.

فانها كانت تتم احيانا في جو رياضي. وقد نشرت قصص مثيرة تصف ذكاء وبسالة عشيرة معينة او شخص معين، لكن قليلا من الناس يقتلون او يجرحون. وفي المدى الطويل كانت العشيرة في معظم الاحيان تخسر بقدر ما تربحه بسبب الغارات (الغزوات) المتقابلة¹.

وكانت العشائر البدوية القوية ايضا تزيد من هيبتها فضلا عن ايرادها باستيفاء " الخاوة " (الخوة، الاتاوة) من العشائر الضعيفة. وكانت العشيرة القوية تعد بالامتناع عن الهجوم على احدى القرى او العشيرة الضعيفة وكذلك حمايتها، من غزوات العشائر الاخرى مقابل مدفوعات سنوية معينة. والعشائر فرضت الخاوة ايضا على القوافل التجارية التي تمر بديرتها. ومن الواضح ان الخاوة لم تكن اكثر من ابتزاز لان العشيرة قلما تقدم حماية فعالة².

¹ سويت :غزوات الجمال (مجلة عالم الانثروبولوجية الأميركي، 67) 1965 ص 1132-1150.

² جون بركهاردت : ملاحظات عن البدو والواهبيين (لندن 1837) ص 227.

السياسة الجغرافية في الجزيرة

بعد استعراض نواحي الحياة المختلفة في الجزيرة يعطي تحليل القوى وتفاعلها بعضها ببعض تفهما افضل للتوازن الاجتماعي في المنطقة. في نهاية القرن الثامن عشر شمل المجتمع في الجزيرة ثلاثة اصناف من السكان : مراكز مدنية كالموصل وحلب وبغداد فضلا عن بلدان ريفية صغرى مثلت قطاعا واحدا، وهذه المدن وجدت شبه جزر معزولة نسبيا فيما يمكن اعتبارها بادية واسعة وبحر سهوب وكانت العشائر البدوية تسيطر في معظم الاحيان على هذا البحر. وهذه المدن (او الجزر) تمثل مواقع الحكومة الادارية، وتحوي كل منها على قواتها العسكرية الخاصة وتحاول ان تؤمن الامن الدائم لمنطقتها الادارية. والمناطق التي تقوم حول الجزر الادارية المدنية كانت منقسمة بين العشائر الرحالة الزراع. وبسبب احوال مختلفة كالحدود التي يفرضها الري وفقدان الامن عموما من غزو البدو، كان الزراع يشغلون مواضع عسيرة على طول الانهر والقنوات. وبالنظر الى مقدرة البدو العسكرية العالية فانهم كانوا يسيطرون على مناطق واسعة من البادية والسهوب. وفي سنة 1800 قام توازن منظم بين قطاعات المجتمع المختلفة بشرط ان أحدها لم يخل كثيرا بمزايا الاخرين.

ولاية (باشوية) بغداد سنة 1800

بالنظر الى بعدها الجسيم عن الأستانة كانت ولاية بغداد، مثل الكثير من الولايات في الإمبراطورية، تتمتع باستقلال نسبي في بداية القرن التاسع عشر. لقد انقطعت السيطرة الإدارية العثمانية المباشرة سنة 1749 حين شغل منصب الولاية اول ملوك جركسي سليمان باشا. وحكم بغداد عدة ولاة من المماليك من ثمانين سنة بدون تدخل غير معهود من الأستانة. وانشأ باشوات المماليك بلاطا ونظاما حكوميا يشبه كثيرا بلاط السلطان العثماني ونظامه¹.

كان يحيط عادة بالباشا الحاكم بلاط باذخ يملأه موظفون متعددون. وكان الحكام في المناطق الادارية في البصرة وكركوك وماردين تعينهم بغداد. ويخدم الباشا موظف مماثل لرئيس وزراء السلطان، يعرف بأسم "الكهية"، مساعدا رئيسيا له. وهناك موظفون اداريون اخرون كالدفتردار (جامع الضرائب) ورئيس التشريفات والكاتب باب العرب (الموظف المسؤول عن شؤون العشائر) يؤلفون "الديوان" (المجلس) الذي يستشير به الباشا².

¹ لونغريغ : اربعة قرون ص 163 - 248.

² كالسابق ص 250 - 251.

يتولى عدد من الوحدات المختلفة الشؤون العسكرية في الولاية. ويقوم ممالك من الكرج بخدمة الباشا كحرس شخصي. وكتائب الممالك كانت تقدم جيشا دائما يستخدم في الحملات المحلية ضد الامراء الصغار النافرين والعشائر العربية. ويضاف الى كتائب الممالك جنودا مرتزقة من قبيلة عقيل فكانوا يحاربون في حملات عديدة ضد العشائر المتمردة¹. وعلاوة على عقيل كانت تجند قوات مساعدة من العشائر الصديقة الرحالة ونصف المستوطنة².

حتى داخل حدود ولاية بغداد شبه المستقلة اداريا لان عدة امراء يسيطرون على انحاء صغيرة مستقلة من حكم الممالك. ففي الموصل كانت الاسرة الجليلية مثلا تلي منصب الولاية لاكثر من قرن واحد. ومع ان سيطرتهم لم تكن تمتد احيانا الى ابعد من اسوار المدينة فان الجليليين كانوا عموما اقوى من ان يستطيع باشا بغداد التغلب عليهم³. ومثل ذلك حوالي البصرة في العراق الجنوبي كانت قبيلة المنتفق القوية التي يحكمها آل السعدون تمثل قوة مستقلة مماثلة. وقد تحدثت القبيلة مرارا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر سيطرة

¹ خلال القرن الثامن عشر استوطن العقيل الرحالة خارج اسوار بغداد واخذوا ينظمون قوافل تجارية. ثم انتقلت القبيلة الى داخل البلدة وخدمت باشوات الممالك المتأخرين كجيش مرتزقة.

² لونغريغ: اربعة قرون ص 251.

³ سليمان الصائغ : تاريخ الموصل (القاهرة 1923) ص 302-309.

الحكومة¹. والى شمال بغداد وشمال شرقيهما حكم زعماء عشائريون اكراد دولا صغيرة.

كانت اسرة آل بابان تمثل اهم الاسر الكردية في العراق. وهؤلاء الامراء الصغار الذين بدأت أصولهم في القرن السابع عشر، كانوا يسيطرون على المناطق الجبلية التي تحيط بعاصمتهم السليمانية. وكانت المنطقة التابعة لحكم البابان تختلف حسب قوة الحاكم. ففي اوقات مختلفة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر امتد حكم آل بابان الى الشرق على مشارف نهر الزاب الاصغر الى نهر دىالى. وكان باشوات بغداد، وهم مستائون دائما شيئا ما من البابان، متذبذبين في علاقاتهم مع جيرانهم. وفي مناسبات مهمة عديدة في تاريخ العراق في القرن الثامن عشر أنقذت الجيوش البابانية مدينة بغداد من الدمار. ومع ان المماليك عاملوا آل بابان بشدة احيانا فانهم كانت لهم أسباب طيبة لمعاملة هؤلاء المقاتلين الاكراد باحترام لائق².

واسرة بهدينان حكمت امارة كردية اخرى قامت شرقي الموصل. وشمال شرقيها. وكان آل بهدينان من عاصمتهم في العمادية يسيطرون على منطقة تمتد من نهر الزاب الاكبر في الشرق الى دهوك واحيانا الى زاخو في الغرب. وامتد نفوذهم الى الامارات الكردية

¹ لونغريغ: اربعة قرون من تاريخ العراق (راجع الفهرس في مادة المتنق).

² ستيفن هـ. لونغريغ : بابان(في معلة الاسلام 2 الجزء الاول ص 845. ف.مينورسكي(في مادة الكرد، معلة الاسلام الجزء الثاني، ص 1147).

المجاورة بهتان ومكاري في الشمال وصوران في الجنوب. وفي السنوات 1726-1767 امتاز آل بهدينان بقوة كبيرة خلال حكم بهرام باشا. لكن في الايام التالية أخل التنافس بين ابناء الاسرة بقوة هذه الامارة التي الحقّت نهائيا بسنجد الموصل سنة 1838¹.

وكان البدو العرب في بادية الشام والجزيرة يمثلون عنصرا اخرا في توازن القوى المتحول دائما في ولاية بغداد كان البدو يعوزهم عسكريا قوة النار المركزة لجيوش المماليك المجهزة بالمدافع. ولكن رجال العشائر البدوية كانوا في الكثير من الاحيان يدحرون قوات الحكومة المسلحة تسليحا احسن بخططهم المفضلة وسرعة حركتهم وشدة تضامنهم. ففي سنة 1800 كانت اقوى العشائر العربية في داخل ولاية بغداد المنتفخ في الجنوب والخراسان في العراق الاوسط وعنزة غربي الفرات والعبيد التي سيطرت على معظم الجزيرة. وهذه العشائر واخرى دونها قوة هددت دائما السلم والامن².

فيما عدا القتال مع القوات الحكومية اخلت العشائر العربية بالولاية بطرق عديدة اخرى. وكانت طرق المواصلات الداخلية كطرق قوافل البادية والطرق والانهر ضحايا سهلة لفرق الغزو البدوي. وبمضايقه القوافل التجارية ونهبها دائما كانت العشائر البدوية كثيرا

¹ ستيفن لونغريغ: بهدينان (في معلمة الاسلام 2 الجزء الثاني ص 920).

² العزاوي: عشائر العراق (الجزء الاول ص 120-125).

ما تقطع سبل التجارة الطويلة خلال اشهر. وكان نهب القرى الزراعية والحقول المحيطة بها وحرقها خطة اخرى محببة للبدو. وخلال القرن التاسع عشر شددت الاخبار على حالة الفوضى والدمار في الارياف العراقية¹.

لو كان شيء من الأمن يسود في العراق لكان على باشا بغداد ان يتوصل الى تفاهم مع البدو المتمردين. وكما سنشرحه بصورة اكثر تفصيلا في الصفحات الآتية، حاول الولاة احيانا ان يسيطروا على العشائر العربية بمنح امتيازات الى بعض العشائر وخلق الاحتكاك بين العشائر والاعتراف بزعيم منافس في داخل العشيرة. ويظهر ان جيوش المماليك كانت ترسل فقط ضد العشائر المتمردة حين تخفق كل طرائق السيطرة الاخرى. وهذا النفور من استخدام القوات الحكومية نشأ عن حقيقة ان هذه القوات كثيرا ما اخفقت في دحر العشائر البدوية القوية.

¹ مكي الجميل : البداوة والبدو (1962) ص 40-41.

الفصل الأول

وصول شمر الجرباء الى الجزيرة

شكل الاحتلال البدوي

فى اوقات كثيرة خلال التاريخ قذفت البادية العربية بموجات من عشائر البدو هاجرت الى الاراضي المجاورة. وهؤلاء البدو، بعد وصولهم، غيروا التوازن السياسي والاجتماعي والاقتصادي فى مواطنهم الجديدة. وهذه الهجرات التى حدثت فى فترات مختلفة من الزمن اثرت تاثيرا محسوسا فى تاريخ العراق. اول اجتياح بدوي جاء من جزيرة العرب خلال الالف الثالث قبل الميلاد مندفعاً على الحضارة السومرية¹ وعند وفاة النبي محمد (ص) مؤسس الاسلام سنة 632 م حدثت هجرة اخرى مهمة اتخذت شكل الفتوحات الاسلامية فى القرن السابع الميلادي². ومنذ ذلك الحين استمرت الهجرات البدوية لكنها لم تنتج النتائج العظمى للهجرات السابقة. وبدلاً من تغيير الحضارات الكبرى او نشر دين جديد، لم تفعل سوى تغيير جماعة من الرحالة شبه المستوطنين بجماعة اخرى من الرحالة الخالص.

خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر خصوصاً استمرت

¹ حتى: تاريخ العرب ص11، ديفيد اوتسي: دراسات فى التاريخ القديم للعراق الشمالي (لندن 1968) ص1/18.

² فرنسيسكو غبريلي: محمد والفتح الاسلامي، مترجم عن الايطالية بقلم فيرجينية لولنغ وروزندليل (نيويورك 1968) ص118/188، حتى تاريخ العرب ص 143/146.

العشائر البدوية على الهجرة من شمال جزيرة العرب الى العراق¹. وهذه العشائر بسبب ثقافتها البدوية بقيت عموماً في مناطق العراق الصحراوية حين تحركت الى الشمال وطريق تنقلها هداها في اول الامر الى بادية الشام. وبمرور الزمن هذه العشائر اما بقيت في تلك البادية غربي نهر الفرات او عبرت النهر ومضت الى الشرق في المنطقة المعروفة بالجزيرة. وعدد كبير من العشائر المنتقلة الى الشمال من خارج جزيرة العرب بقيت في بادية الشام. وتاريخ هذه العشائر الاخيرية يقع خارج نطاق هذه الدراسة. في هذا المؤلف يفضل اختصاص الدرس بتاريخ عشيرة شمر الجرباء التي عبرت نهر الفرات واتخذت الجزيرة موطناً لها².

قدم المؤرخون خلال القرن الاخير شروحا كثيرة عن سبب حدوث هذه الهجرات البدوية المختلفة. وارتأى بعض العلماء ان تضخم السكان في بعض العهود في جزيرة العرب بسبب الهجرة. وارتأى اخرون ان تغييرات المناخ، كازمنة طويلة من الجفاف او الحر الشديد جداً، قد دفعت بالببدو الى طلب مراعي اكثر خصبا خارج الجزيرة العربية. وبصدد الفتوحات الاسلامية كانت الحماسة الدينية بوجه خاص تفسر

¹ حوراني: نظرة في التاريخ ص 42/40.

² عن الهجرة الاخيرية راجع بلنت: العشائر البدوية ص 372/374.

تتقلات البدو¹ وهناك ايضا تفسير اخر للهجرة البدو في مثال الوهابيين في اواخر القرن الثامن عشر. فهذه الحركة المتحدة والقوية سياسة ودينا أرغمت العشائر الضعيفة على الانصياع لسيطرتها او طلب اللجوء الى اقاليم اخرى. وهكذا نجد ان عددا من العوامل المسببة قد اثرت في الهجرة².

¹ غبريلي: الفتوحات الاسلامية ص 103/106/245/248.

² عن التاريخ العام للحركة الوهابية في القرن الثامن عشر راجع هـ ستنتج.ب. فيلبي، جزيرة العرب (لندن 1930) ص 8/102.

هجرة شمر : المرحلة الاولى

1690 – 1760

بدأت احدث هجرة للبدو العرب على مقياس واسع الى بادية الشام والجزيرة في القرن السابع عشر المتأخر ويلاحظ في الحقيقة حصول مرحلتين مختلفتين للهجرة¹. بدأت المرحلة الاولى في النصف الاخير من القرن السابع عشر حين مضت عشيرتا شمر وعنزة كلتاهما الى الشمال من نجد في البحث عن مراعي خصبة. وهاتان العشيرتان تحركتا بجماعات صغيرة حتى وصلتا الى الشاطئ الجنوبي من نهر الفرات حيث بقيتا قسم من السنة. بالنظر الى عددهما الصغير لم تخلقا خلافا كبيرا نسبيا بين العشائر الكبيرة المتوطنة في المنطقة. ولكن لم تحل سنة 1696 حتى عبرت شمر نهر الفرات في الفلوجة وشنت عدة غارات على ولاية بغداد².

جوابا على هذه الغارات الاولى على اراضيها ارسل باشا بغداد جيشا لمحاربة العشيرة الغازية وارغمها على اعادة عبور النهر. وخلال نصف القرن الثاني استمرت شمر على الغزو شمالي الفرات. وكانت

¹ غراف: عنزة (معلمة الاسلام) الجزء الاول، لندن (1960) ص 482/483.

² فون اوينهايم: البدو، الجزء الاول، ص 133.

العشيرة متمردة خصوصا حين غزا نادر شاه العراق سنة 1733¹.
وحتى في عهد الحكم القوي لسليمان ابي ليلة الوالي المملوكي
الشهير (1749 - 1762) وصل غزاة شمر شمالا حتى بغداد².
وكان الرحالة الدنمركي الشهير كارسنن نيبهر، في اثناء سفره
على سواحل الفرات سنة 1765، قد رأى الكثيرين من رجال شمر
بين هيت وكربلاء في العراق الاوسط. وفي ذلك الوقت كانت العشيرة
تعرف بأسم " شمر العراقية " وتشمل فرعي الزغاريط والاسلم. وهذه
المرحلة الاولى لهجرة شمر لم يكن لها الا تأثير ضئيل على الحالة
المتوطنة في جنوب العراق³.

¹ العزاوي: تاريخ العراق (الجزء الخامس ص224/245) عن نشاطات شمر الاخرى في

العراق راجع ص169/170 (1706) 177 (1708) و 216/215 (1725).

² لونغريغ: أربعة قرون من تاريخ العراق ص172.

³ كارسنن نيبهر: رحلة جزيرة العرب (كوبنهاغ 1772) ص392.

غارة شمر : المرحلة الثانية

1790 – 1840

في نهاية القرن الثامن عشر لم تزل أكثرية اتحاد شمر القوي - المؤلف من الفروع امثال عبدة والأسلم وسنجيرا وتومان - تقيم في منطقة نجد شمال جزيرة العرب. وبدأت مرحلة ثانية لهجرة شمر حوالي سنة 1790 حين شهدت العشيرة ضغطا عسكريا متزايدا من جانب الحركة الوهابية¹ والبحث المفصل التالي لنشاط الوهابيين في العراق الجنوبي وشمال جزيرة العرب خلال سنوات الـ 1790 يشرح بوضوح الاحوال التي ارغمت شمر الجرباء على الهجرة الى العراق. ظهرت الحركة الوهابية في سنوات الـ 1750 حين اخذ محمد بن عبد الوهاب بالدعوة الى اسلام اصلاحي ومحمد بن عبد الوهاب الذي اتبع المذهب الحنبلي كما فسر ه ابن تيمية رأى كل اصلاح أدخل بعد القرن الهجري الثالث " بدعة "².

هاجم الوهابيون، في دعوتهم الى التوحيد المشدد، تعظيم الاولياء

¹ مونتاني: قصص شعرية للبدو (في مجلة الدراسات الشرقية، 5 (1935) ص41.

² بايلي ويندر: العربية السعودية في القرن التاسع عشر، (نيويورك 1965) ص8/15.

الزائد لدى الطرق الصوفية. وبالنظر الى آرائه المتطرفة ارغم ابن عبد الوهاب على الفرار من بلده، وطلب اللجوء الى بلدة الدرعية تحت حماية زعيم البلدة محمد بن سعود. وفي الدرعية مزج محمد بن عبد الوهاب نشاطه الديني بالقوة العسكرية السعودية لخلق قوة متوسعة سيطرت على اكثر انحاء جزيرة العرب¹. على اثر وفاة محمد بن عبد الوهاب سنة 1792 اندفعت القوة الوهابية الى الشمال نحو العراق وتغلّبت على عشيرة بني خالد في الاحساء. وبلغت الجماعات الوهابية الغازية ديرة المنتفق على ساحل الفرات في العراق الجنوبي مبكرا في سنة 1790. وهذه الغارات الصغيرة في بداية الامر اصبحت شيئا فشيئا تهدد عشائر نجد والعراق الجنوبي². وخلال سنوات الـ 1780 كثيرا ما انضمت شمر الى بني خالد والمنتفق وشريف مكة في مهاجمة عدوهم المشترك³. لكنهم في سنة 1791 ثار ابن سعود من شمر في معركتين فاصلتين قرب ابار عدوة (على بعد نحو سبعين ميلا جنوب شرقي حائل)⁴.

¹ مارغليوث: الوهابية (معلمة الاسلام، الجزء الرابع) ص1086/1087.

² صلاح الدين المختار: تاريخ المملكة العربية السعودية (الجزء الاول، بيروت 1957) ص52/54.

³ فون اوينهايم: البدو (الجزء الاول) ص134.

⁴ حسين بن غنام: تاريخ نجد (مصر 1961) ص 171/179.

في معركة اولية فاجئت قوات ابن سعود شمر وهي مخيمة قرب
ابار عدوة.

وبالرغم من دفاع نشيط هربت شمر المندحرة، بعد ان فقدت
قائدها حصان ابليس، تقصد البادية. ولما انتشر خبر هذا النصر
الوهابي، خطت العشائر المجاورة للثار لاندحار شمر المهين. وفي
نفس السنة قامت جماعة بدوية كبيرة في ضمنها محاربون من شمر
بمقاتلة الوهابيين مرة اخرى ودحرت مرة ثانية¹. وموت مسلط بن
مطلق الجرباء في هذه المعركة دفعت اباه الحزين مطلق بن محمد
الجرباء الى الهجرة مع فرع عشيرته الشمرية الى الأنحاء الاكثر امانا
في جنوب العراق. وهكذا بدأ تاريخ شمر الجرباء في العراق سنة
1791².

اصبحت تجاوزات الوهابيين في جنوب العراق اكثر وقوعا بعد
سنة 1792. وفي مبدا 1795 حثت الحكومة العثمانية باشا بغداد
على مقاتلة المحاربين المتحمسين من جزيرة العرب. لكن الباشا
الشيخ تجاهل هذه الطلبات السلطانية. وفي محله نظم الشيخ ثويني
الزعيم الاكبر لعشيرة المنتفق القوية جيوشا وتجهيزات للهجوم على

¹ كالسابق:

² فون اوينهايم: البدو (الجزء الاول) ص134.

الوهابيين في ربيع سنة 1797. ومضى الشيخ ثويني يصحبه مرتزقة من العقيل وقوات من الكويت والبحرين والزبير، من مقره في الهجرة الى الاحساء. وتقدم حتى صار يهدد السيطرة الوهابية على ناحية الاحساء من دولتهم. لكن الحملة سرعان ما بلغت نهايتها في ليلة اول تموز 1797 في الشبك حين اغتال عبد اسود الشيخ ثويني، فهلج الجيش الكبير واختفى بسرعة اذ لاذت كل جماعة منه بالنجاة¹.

نشبت القتال مرة اخرى بين شمر الجرباء والوهابيين في ربيع 1798 حين عادت قوات ابن سعود بنـهب وادي الفرات شمالي الشيوخ. وفي اثر حملة المنتفق الخائبة قاتل ابن سعود عدة عشائر بدوية بضمنها شمر قرب السماوة. وقد مات الشيخ مطلق بن محمد الجرباء في هذه المعركة الشديدة وخلفه اخوه الاصغر فارس شيخا اعظم لشمر².

خلال السنوات الثلاث التالية انضمت العشيرة الى عدة حملات حكومية ضد الوهابيين. وكانت اكبر هذه الحملات قد خرجت من بغداد بقيادة الكهيا علي باشا في صيف 1798، وكانت تشتمل على خمسة الاف ينكشيري وجماعات من عشائر العقيل والعبيد وشمر. وصل الجيش الى البصرة في كانون الاول، وفي هذه البلدة ضخم

¹ لونغريغ: اربعة قرون من تاريخ العراق (ص 213/215).

² العزاوي: تاريخ العراق الجزء السادس، ص 125/126

المحاربون من الظفير والمنتفق وبني خالد عدد المساعدين العرب الى اكثر من عشرة آلاف مقاتل. خرج علي باشا من الزبير وذهب في حملة طالت سنة واحدة بدون ثمرة لم تسفر الا عن هدنة ضعيفة بين الفريقين المتحاربين¹. وبعد اقل من سنة استؤنف القتال حين التقت قوات عشائرية بقيادة محمد الشاوي وفارس الجرباء بالوهابيين في معركة غير حاسمة قرب كربلاء².

¹ لونغريغ: اربعة قرون من تاريخ العراق (ص215/216).

² رسول الكركوكلي: دوحة الوزراء (ترجمة من التركية موسى كاظم نورس، بيروت 1963) ص 214.

شمر الجرباء في الجزيرة

1818 - 1800

شمر الجرباء بقيادة الشيخ فارس، وقد اخرجها الوهابيون من ديارها في نجد، لجأت الى داخل ولاية بغداد حيث وجدت مأمناً مؤقتاً في جنوب العراق. ثم عبرت العشيرة بعد ذلك نهر الفرات وهاجرت الى الشمال نحو جبل سنجار الذي يحتمل انها وصلتته في شتاء 1802 - 1803¹. لاريب ان شمر وجدت ولاية بغداد تختلف كثيراً عن موطنها الصحراوي السابق في شمال جزيرة العرب. وقد تركت موقعها كالقوة العظمى في نجد، وجدت شمر ولاية بغداد يشغلها عدد من العشائر الكبرى. ولاول مرة وجدت العشيرة نفسها تعيش في ظل حكومة مركزية تستطيع ان تمارس سيطرة ادارية وعسكرية جسيمة. وهكذا كان على شمر واجب مثلث بالحصول على ديرة عشائرية تعيد تثبيت مكانة شمر بين العشائر البدوية الاخرى والعيش تحت حكومة المماليك المركزية، وذلك شغل سيرة فارس الجرباء التي بلغت 18 سنة. ولما كانت شمر تفتقد القوة والنفوذ الذي للعشائر القوية كالمنتفق والخزعل والعبيد فقد بقيت مقدرتها من 1800 الى 1818 تستند على

¹ كالسابق: ص 225/223.

دعم باشوات المماليك. والشيخ فارس قد اقنع سليمان باشا باطلاعه المباشر على شؤون الوهابيين ودفاع عشيرته النشيط عن العراق الجنوبي فصار يتمتع بتأثير سياسي محسوس حين خف الضغط الوهابي على العراق الجنوبي سنة 1801¹. وفي هذا الوقت يظهر ان شمر قد احتفظت بعلاقات طيبة مع كل العشائر العراقية فعلا. وفي مناسبات متعددة حارب رجال العشيرة مع عشائر المنتفق والعبيد وخزعل والظفير والزبير ضمن قوات ابن سعود².

حصل نزاع شديد على الخلافة اوقف مؤقتا شؤون الولاية سنة 1802 عند وفاة سليمان باشا الكبير بعد حكم امتد 22 سنة. وكان النجاح حليف علي باشا الكهية في عهد الباشا المتوفي على اثر صراع واسع بين المنافسين، وبدا هذا الحكم خمس سنوات في منصب ولاية بغداد³. وفي اواخر نفس السنة سحب فارس الجرباء وعشيرة العبید بقيادة محمد بك الشاوي الوالي الجديد في حملة ناجحة على اليزيديين في جبل سنجار⁴. وبينما كان الجيش المنتصر معسكرا في

¹ فون اوينهام: البدو، الجزء الاول ص145.

² العزاوي: تاريخ العراق الجزء السادس ص128/125.

³ جون غوردن لوريمر: جغرافية الخليج العربي وعمان وجزيرة العرب الوسطى، الجزء الاول أ ب (لندن 1913) ص1298/1299.

⁴ احتل نفوذ العبید السياسي والعسكري في الجزيرة الى بعد نحو مئة سنة من قبل. ففي اوائل القرن التاسع عشر وطدت العشيرة موقع قوتها بالسيطرة على العشائر العربية

تلعفر عند عودته الى بغداد، اعتقل علي باشا زعيم رؤساء العبيد محمد بك الشاوي واخاه الاصغر الحاج عبد العزيز بك وأعدمهما فوراً¹.

شرح ذلك احد المؤلفين قائلا :

" ان محمد بك اعظم رعايا الولاية العرب قتل بسبب الحسد والخوف وذكرى الخيانة المرتاب فيها حين تراسل مع العدو في الحملة على نجد سنة 1799²."

خاف جاسم بك ابن محمد بك على حياته ففر مع رجال عشيرته العبيد نحو نهر الخابور. وانضمت شمر الى علي باشا في حملتين خاسرتين ضد ثوار العبيد سنة 1803³. وبعد سنتين في 1805 قامت

الاضعف منها الجبور وطي، وخدمت الاسرة الشاوية، التي قدمت الرؤساء الكبار لعشيرة العبيد، بعد ذلك باشوات بغداد بصفة جنود ومستشارين وسياسين. وهذا التدخل الوثيق في شؤون الولاية كثيرا ماترك ال الشاوي ورجال عشيرة العبيد في الجهة الخاسرة في منازعات السلطة في البلاد. وخلال النصف الاخير من القرن الثامن عشر اضطهدت العشيرة مرتين اضطهادا شديدا من قبل اعدائها السياسيين، وفي سنة 1800 كان محمد بك الشاوي يشغل منصب باب العرب المهم في عهد سليمان باشا. وهذا المنصب جعل منه "الوكيل" في بلاط الباشا عن شيوخ جميع العشائر التابعة للولاية (لوريمر، الجغرافية، الجزء الاول أ ب، ص 1298). للحصول على معلومات اخرى عن قبيلة العبيد راجع فون اوينهايم: البدو (الجزء الاول) ص 195/189.

¹ الكركوكلي: الدوحة ص 225/223.

² لونغريغ: اربعة قرون من تاريخ العراق ص 223.

³ الكركوكلي: الدوحة ص 225/224.

قوة حكومية كبيرة بضمنها مساعدون من شمر بامرة فارس الجرباء لدحر عشيرة العبيد نهائيا في ملتقى نهري الخابور والفرات¹. وهكذا عشيرة العبيد، التي كانت في حين ما قوية، قد ضعفت عسكريا وفقدت نفوذها السياسي السابق فعبرت نهر دجلة فتوطنت بين الزاب الاصغر ونهر ديالى².

وفي اعقاب سقوط العبيد اصبحت شمر الجرباء العشيرة الرئيسية في الجزيرة فقط، بل حصلت ايضا على درجة جديدة من النفوذ السياسي في بغداد³. وقد ساعد الشيخ فارس مرارا علي باشا في الحملات المحلية حتى اغتيل هذا الاخير في آب 1807⁴. وفي ربيع سنة 1808 خلف سليمان باشا المعروف بالصغير عمه المتوفي على ولاية بغداد. ومع انه كان نبيها وذكيا وشجاعا شيئا ما فانه، وعمره لا يتجاوز الاثنتين والعشرين، لم تكن لديه الخبرة العملية، وسمح بعد ذلك لفارس الجرباء ان يؤثر على شؤون الحكومة⁵.

في سنة 1809 اقنع رئيس شمر الاعلى الباشا الشاب بالقيام

¹ كالسابق: ص 230.

² فون اوينغايم: البدو الجزء الاول ص 191/181.

³ كالسابق: ص 191.

⁴ لوريمر: الجغرافية، الجزء الاول أ ب، ص 1300.

⁵ لونغريغ: اربعة قرون من تاريخ العراق ص 225/224.

بحملة عسكرية كبيرة الكلفة تؤمن لشمر السيطرة على الجزيرة العليا من جبل سنجار الى نهر بليخ. ولما كانت شمر تحاول مد سيطرتها الى الغرب ابعد من نهر الخابور فقد لقيت تحديا شديدا من عشائر الظفير والدريع (عنزة)¹. اقنع فارس سليمان باشا بشن هجوم حكومي على العشائر التي ادعى بانها نهاية². وقد غادر الباشا الشاب بغداد في اذار 1809 على راس جيش كبير. وانضمت اليه قوات من اربيل ومندلي وتكريت فضلا عن مساعدين عرب من عشيرتي ابو حمدان وطى، فسار سليمان باشا من تكريت نحو جبل سنجار عن طريق الحضر. وبعد التغلب على القرى اليزيدية المتمردة حول جبل سنجار، مضى الجيش ثانية الى الغرب نحو بدو الظفير المشاغبيين بجوار نهر الخابور³.

لما علم الظفير بان القوات الحكومية قادمة الى جهتهم هربوا وطلبوا الامان وراء نهر بليخ بعيدا الى الغرب. وفي هذا الوقت ارسل

¹ ان الضغوط الوهابية ارغمت اقساماً متعددة من عشيرة عنزة القوية على الهجرة من نجد نحو سورية في نهاية القرن الثامن عشر. وعند وصولها الى بادية الشام حلت عنزة محل الوالي بسرعة واصبحت اهم القبائل البدوية. ومنذ ذلك الحين اقام اقسام الفدعان والسباع والعمارات في بادية الشام حيث استمروا على منافستهم التقليدية للشمر. عن العنزة راجع غراف: عنزة (في المعلمة الاسلامية، 2) الجزء الاول ص 482/483.

² الكركوكلي: الدوحة ص 245.

³ العزاوي: تاريخ العراق، الجزء السادس ص 189/190.

سليمان باشا شمر والاكراذ المليون مع فرقة من القوات التركية لملاحقة البدو بينما تقدم الجيش الرئيسي نحو راس العين. لكن قوات شمر دحرت بعد ذلك نهائيا قرب نهر بليخ، دحرتها قوة مشتركة من بدو الظفير والرولة والدريع¹. وبالرغم من هذا الاندحار حافظ فارس الجرباء على تأثيره السياسي في بغداد الى سنة 1813².

في تلك السنة وجد عبد الله باشا، الذي حل محل سليمان باشا الصغير واليا لبغداد سنة 1810، ان منصبه يتحده سعيد باشا (ابن سليمان باشا الكبير والي بغداد من 1780 الى 1802) البالغ عمره 19 سنة. بدأ هذا التحدي حين غادر سعيد باشا بغداد وانضم الى عشيرة المنتفق التي يرأسها الشيخ حمود الثامر. وغادر عبد الله باشا بغداد يصحبه جيش كبير لاختضاع غريمه الذي تسنده المنتفق. لكن بعد فرار جماعي من جيشه الى جانب المنتفق وجد الباشا نفسه وحيد فعلا. وبعد امد قصير اغتيل عبد الله باشا وجماعته بعد ان قبلوا عرضا بالامان الشخصي من الشيخ حمود الثامر³.

في 16 اذار 1813 دخل سعيد باشا يصحبه حمود الثامر الى بغداد ليحتل منصب الولاية. وفي خلال حكمه الذي دام اربع سنوات قام

¹ كالسابق: ص 190

² فون اوينغايم: البدو، الجزء الاول ص 146.

³ لونغريغ: اربعة قرون من تاريخ العراق ص 234.

داود افندي الذي شغل في اول الامر منصب الكهيا والدفتردار المزدوج بارشاد الحاكم الشاب بمقدرة¹ وبروز عشيرة المنتفق بزعامة الشيخ حمود الثامر كالعشيرة الرئيسية في شؤون الولاية احدث تبديلا محسوسا في سياسة المماليك العشائرية. فهذا التغيير اصبح واضحا حين وجدت شمر الجرباء والخزاعل، وكلتاها كانتا على علاقات ودية مع علي باشا وسليمان باشا وعبد الله باشا من 1802 الى 1812، انهما بعيدان عن العطف².

زاد التوتر بين الحكومة وشمر سنة 1813 حين رفض سعيد باشا ان يمنح فارس الاحترام والمزايا التي كان يتمتع بها عادة. وامام صدور الحكومة شنت شمر غارات على عدة مدن عراقية في ربيع 1814³. ولم تات السنة التالية حتى تمزقت العلاقات بين الحكومة والعشائر تمزقا شديدا الى درجة ان العشائر الكبرى في العراق الغربي - الخزاعل وزبير وشمر الجرباء عقدت اتحادا ضد سعيد باشا⁴.

في سلسلة من الغارات حاصر رجال شمر والخزاعل الحلة

¹ كالسابق.

² الكركوكلي: الدوحة ص 263.

³ العزاوي: تاريخ العراق (الجزء السادس) ص 227.

⁴ كالسابق ص 268/269.

ونهبوا بلدانا اخرى على طول الفرات. واشتد القتال فاستعان سعيد باشا بحمود الثامر واتباعه المنتفق للقضاء على التمرد المنتشر. وقد استدعى حمود الثامر عشائر الظفير والدريع والعبيد لمساعدته ضد اعدائها المكروهين شمر وخرج، يسنده جيش المماليك ورجال المنتفق المحاربين من اتباعه، لاعادة الامن الى العراق الاوسط¹.

خسرت شمر الجرباء خسارة كبيرة بقتل الشيخ بنية بن قرينس ابن اخي فارس الجرباء في المعركة. واكتشفت عشيرة الدريعي ان شمر مخيمة في ديرة الخزاعل على الشاطيء الغربي من الفرات. ولما علمت ان بنية يكون معزولا عن الاقسام الاخرى من عشيرة شمر قامت الدريع فورا بانتهاز فرصة عزلته وطلبت من الشيوخ حمود الثامر سندا عسكريا اضافيا.

فانضمت جماعة كبيرة من مرتزقة العبيد وعقيل الى الدريع في الهجوم على اتباع الشيخ بنية المعزولين. وبالرغم من الدفاع المتحمس قاتلت شمر قتالا خاسرا ضد خصومها الكثيرين. وبعد قتل الشيخ بنية ارسل البدو المنتصرون راسه الى سعيد باشا في بغداد اثباتا لانتصارهم على شمر الجرباء². وشمر هذه، بعد ان ضعف شأنها بفقدانها عطف الحكومة سنة 1813 ووفاة الشيخ بنية سنة 1815، اصاب نفوذها في

¹ كالسابق: ص 227.

² أمين بن حسن الحلاوي المدني: مطالع السعود (ابو ضبي 1885) ص 122/123.

الجزيرة ضربة شديدة اخرى عند وفاة الشيخ فارس سنة 1818.
وبالنظر الى ابتلائها بهذه المصائب الثلاث صارت عشيرة شمر التي
كانت من قبل قوية تلعب دورا ضئيلا في الشؤون العشائرية
والسياسية خلال السنوات الاربع التالية¹.

¹ فون اوبنهايم: البدو (الجزء الاول) ص 146.

تأثير نزول شمر على الجزيرة

ان المظاهر السياسية والعسكرية للاحتلال الشمرى وهي على هامش تاريخ المنطقة، وقد سبق شرحها بتفصيل واف، مثلت جانبا واحدا فقط من تأثير العشيرة على الجزيرة. والجزيرة التي كانت عهدا طويلا منطقة لجوء عرقي ثقافي للعرب والاكراد واليزيديين والأتراك وجماعات صغرى اخرى، قد شهدت تعديلا اجتماعيا اساسيا بعد احتلال شمر. فهذه الهجرة بدلت بصورة محسوسة الهيئة العشائرية في الجزيرة. ان طرد شمر لعشيرة العبيد من الجزيرة شكل اوضح مثال لهذا التغيير.

ولان ديرتها امتدت ابعد الى الشمال من ديرة العبيد فان شمر ارغمت عشيرتين عربيتين نصف متوطنتين على مغادرة مواطنها التقليدية.

احدى هاتين العشيرتين طي عاشت من قبل بجوار الموصل غربي دجلة مئات السنين حتى ارغمها قدوم شمر الى المضى شمالا نحو ماردين كذلك الجبور العشيرة نصف المتوطنة تركت ديرتها التقليدية حين جاءت شمر الى الجزيرة العليا. واحد اقسام الجبور انتقل الى الشرق نحو دجلة، وقسم اخر لجأ على طول نهر الخابور حيث يقيم حتى اليوم. واثرت هجرة شمر الى درجة أيضا على يزيديية

جبل سنجار والاكراد المليين الرحالة الذين كانوا يعيشون الى مسافة الى الشمال¹.

وشمر التي جاءت حديثا اختلفت أيضا في عاداتها وحياتها الاجتماعية عن عشيرتي العبيد وطى اللتين سكنتا الى جوار الثقافة المتوطنة لعدة قرون.

وبنتيجة اتصالها بالمجتمع المدني تغيرت ثقافتها البدوية على وجه محسوس. وشمر التي نزلت الى جانب هذه العشائر خرجت من منطقة نجد في جزيرة العرب حيث عاشت عيشة متنقلة بسيطة. وحادثان خاصان يؤكدان الفرق بين ثقافة شمر الجرباء وثقافة بدو الجزيرة الاقدمين.

ان سكان المنطقة المستوطنة وجدوا اللباس الغريب للشمريين القادمين حديثا ممتعا بصورة خاصة. وعند زيارة الشيخ بنية لوالي الموصل ازعج مظهره الغريب الاهالي المحليين الى درجة ان الباشا اضطر ان يهيئ عدة جنود لحماية ضيفه². واحد المؤرخين المحليين عبد السلام افندي من بلدة ماردين، يعطي صورة من الدرجة الاولى لنتائج هجرة شمر. ان غزوات شمر بدون تمييز اخلت باحوال الامن السائدة نسبيا في الجزيرة، حتى ان عبد السلام افندي وصف العشيرة

¹ كالسابق: ص 173/183.

² جون روس: ملاحظات عن رحلتين من بغداد الى خرائب الحضر في العراق سنة 1836/37 (في مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، 9 (1839) ص 453/455.

كوباء لا يقل سوءا عن الجراد¹.

¹ فون اوينهايم: البدو (الجزء الاول) ص136.

الفصل الثاني

بروز شمر في الجزيرة: عهد صفوك أبين فارس

1847 – 1818

بالرغم من فقدان زعيم فعال لشمر واستمرار اضطرابها نتيجة حملتي الحكومة الناجحتين سنة 1817 - 1818 فان العشيرة سرعان ما بلغت مكانة مرتفعة جديدة من القوة والنفوذ¹.

وهذا المجد الجديد جاء على يد صفوق بن فارس نجل فارس الجرباء، والشجاعة المتناهية والفصاحة مقرونتان بالبسالة الحربية مكنت الشيخ الشاب من كسب طريقه الى النجاح، حين يتفحص الانسان سيرة صفوق التي دامت ثلاثين سنة وهو رئيس شمر الاعظم يجد عهدين مختلفين. العهد الاول والاقصر امتد من 1818 - 1830. في خلال هذه السنوات الاثنتي عشر تنافس صفوق مع داود باشا للسيطرة على الجزيرة. وبعد خلع داود سنة 1830 دخل صفوق المرحلة الثانية من سيرته. خلال الـ 17 سنة التالية تفادى مهاجمات الولاة العثمانيين بنجاح. كيف قام هذان النظامان، الاول مملوكي والثاني عثماني، بادارة علاقتهما بصفوق وعشيرة شمر، ذلك ما سوف يذكر بوضوح.

¹ لونغريغ: اربعة قرون من تاريخ العراق ص 240/241.

بروز داود باشا

1817

ارتقى داود باشا منصب والي بغداد سنة 1817 وعمره خمسون سنة¹. بعد خدمة طويلة (رجل دين) وموظف في الولاية، تسلم سدة الاحكام وحكم 13 سنة قبل ان يعزله علي رضا باشا سنة 1830. كما كان متوقعا دوخت مشاكل العشائر داود باشا طول مدة حكمه². ومشكلة تفوق قوة العشائر العسكرية، خصوصا البدو الرحالة مثل شمر الجرباء، وزيادتها على قوات الحكومة تستحق دراسة دقيقة بالنظر الى الدور المهم الذي لعبته في تاريخ العراق في القرن التاسع عشر. ووالي بغداد، بصفته الاداري المركزي للولاية، يتحمل مسؤولية تأمين الامن والنظام في الارياف. ان انتشار السلام والامن في الولاية عموما يهيء ازدهار التجارة والزراعة، والاقتصاد المتين يدر ايرادا واسعا من الضرائب على الحكومة المركزية. خلاف ذلك حين كانت الغارات العشائرية تخل بالامن في الارياف العراقية وتجعل التجارة والزراعة صعبة تهبط واردات الحكومة من الضرائب والرسوم هبوطا ملحوظا،

¹ العزاوي: تاريخ العراق، الجزء السادس، ص 237/239.

² عبد العزيز سليمان نوار: داود باشا والي بغداد (القاهرة 1967) ص 91/98.

وهذا الهبوط في الايراد يجعل من الصعب دفع رواتب جيش الولاية. واجه داود باشا التمردات العشائرية بقوتين عسكريتين مختلفتين : جنود اترك ومجنودون من العشائر. في مركز القوات التركية كان الحرس الكردي لداود باشا وعدده نحو 1700 رجل في سنة 1830. بالاضافة الى حرسه الشخصي كان للباشا ايضا 1500 من المشاة و500 مدفعي و 500 بندقية. وكانت قوة اضافية تتألف من 5000 رجل من العقيل تشترك في اكثر الاحيان في الحملات الحكومية الكبرى¹.

والجماعات الكردية ايضا اشتركت في الحركات الشمالية². ويقول المؤرخ التركي ثابت افندي سنة 1830 ان داود باشا كان يقود قوة مقاتلة قوامها 12500 رجل³.

يظهر ان باشوات المماليك كان لهم، في الاعداد المجردة جيش قوي، لكن لدى الفحص الدقيق يجد هذه الاعداد خادعة شيئا ما. فالجنود الاتراك النظاميون فقدوا الانضباط وكان تدريبهم سيئا وجهازهم رديء احيانا كثيرة. ومثال ذلك ان المجندين من العشائر العقيل لم يكونوا ذوي فعالية كبيرة بالنظر الى انشغالهم بالحصول على الغنائم.

¹ كليمان هوارت: تاريخ بغداد (باريس 1901) ص 205

² جان روسو: وصف باشوية بغداد (باريس 1809) ص 29.

³ هوارت: بغداد ص 205.

وفي اكثر الاحيان كان هؤلاء المرتزقة يغيرون على نفس القرى
والعشائر الصغيرة التي يرسلون لحمايتها¹.
والخلاصة ان القوات العسكرية للمماليك على وفرة عددها لم تكن
لديها العزيمة لدحر منافسيها من العشائر.

¹ وزارة الخارجية: 334/195، بغداد، كمبال الى كاننغ رقم 50، 18/12/1850.

تفوق البدو العسكري

هيا المجتمع البدوي بودقة لصنع مقاتلين شجعان، فان البسالة في المعارك منحت البدوي الشاب غير الهياب اعترافا رفيعا في داخل عشيرته. علاوة على العادات والقيم العشائرية التي تؤكد البسالة العسكرية، كانت حياة البدو في الصحراء تهيئة للقتال. كان الصبيان البدو من طراوة عودهم يتعلمون ركوب الخيل والجمال على السواء ويتميزون في ذلك. وكان كل شاب بدوي يفخر بمقدرته في الفروسية ويحاول التغلب على رفاقه من الشباب¹.

وحياة البدو هيات ايضا الفرصة الطيبة للمقاتل الشاب للحصول على المهارة القتالية في استعمال بندقيته ورمحه فضلا عن سكينه. وكان الغلمان كثيرا ما يرافقون اباؤهم في القنص والغارات ويلعبون العابا مختلفة تعزز مقدرتهم على استعمال اسلحة مختلفة². وفي اوائل القرن التاسع عشر كان الرمح السلاح المفضل لدى المقاتل البدوي³. خلافا لجنود المماليك الذين يقيمون في بغداد في الفترات بين

¹ فون اوينهام: البدو، الجزء الاول ص28/29.

² الويس موسل: العادات والاساليب لبدو الدولة (نيويورك 1928) ص256/258.

³ كالسابق: ص 132/133 سحاء رحلة في سوريا والعراق (ليبيغ 1883) ص306.

المعارك في الريف كان المقاتلون من البدو يقيمون بالنشاط العسكري طوال السنة على شكل غزو للعشائر المجاورة. وهذه الغارات، ولو انها تكون في احيان كثيرة مجرد العاب رياضية، تهيئ الفرصة لتقوية المهارات الحربية. ففي الغزو كان للمقاتل فرصة لابداء بسالته والحصول على الشرف الكبير لشجاعته. وكان البدو، بالاضافة الى مقدرتهم الحربية المتفوقة، يستعينون بمعرفتهم الممتازة لجغرافية البادية للتخلص من جنود الحكومة¹.

¹ هارولد ديكسن: عرب البادية (لندن، 1949) ص 31/363.

طرائق الممالك للسيطرة على البدو

يظهر لأول وهلة ان ولاية بغداد من الممالك قد واجهوا ما يبدو انه عدو بدوي متفوق عسكريا. لكن في نهاية الامر وجدت عوامل منعت البدو من استعمال طاقتهم العسكرية بصورة كاملة. مثلا كانت الهجرة التي تضيق الوقت تحدد الالامد الذي تستطيع فيه العشيرة القيام بالغزو على مقياس واسع¹. وكانت القوات الحكومية تقوم بتوقيف حملاتها بدقة لتتمكن من مهاجمة العشيرة البدوية في اوان ضعفها².

يضاف الى ذلك ان طبيعة المجتمع البدوي استلزمت خطة قتال قوامها الضرب والهرب، فكان عسيرا على العشيرة ان تقيم حصارا طويلا حول المدن كبغداد والموصل. وكان للحكومة المركزية ميزة اخرى هي ان العشائر كان عليها شراء الحبوب لزيادة طعامها الضئيل. وقامت الحكومة بأغلاق اسواق الحبوب في الموصل وبغداد وتكريت والبصرة تستطيع ان تنتشر المجاعة لدى العشائر وتخضعها. واستمرت هذه الخطة لتكون انجح وسيلة تستعملها الحكومة ضد العشائر المتمردة حتى بعد حلول القرن العشرين³.

¹ العراق والخليج العربي في سلسلة الكراريس الجغرافية، شعبة الاستخبارات البحرية (لندن 1945/1939) ص 361/363.

² وزارة الخارجية: 301/195 الموصل، رسالة الى كاولي رقم 33، في 847/7/10.

³ وزارة الخارجية: 334/195 بغداد كمبنى الى كانغ رقم 50 في 1850/12/18.

بروز صفوق بن فارس

1818 – 1825

حين تسلم صفوق بن فارس مشيخة شمر سنة 1818 او 1819، كانت العشيرة قد فقدت مؤقتا الكثير من وضعها المتفوق السالف في الجزيرة. لكن شمر بقيادة الشيخ الجديد سرعان ما انتهزت فرصة دقة وضع داود باشا الذي كان منشغلا باعداد العدة لمواجهة هجوم فارسي (ايراني) مهدد به ولاسترجاع قوته ونفوذه.

خلال السنين تناوبت العلاقات بين بلاد الفرس وولاية بغداد بين الصداقة المعتدلة والعداء العلني. وفي سنة 1818 سادت حالة حرب بين المنطقتين. بدأت المعارك حين قام محمد علي مرزة حاكم كرمنشاه العام بدعم الحاكم الكردي محمود بابان في نزاع له مع داود باشا. وتفاقمت الامور كثيرا حين طلب محمود الباباني مساعدة الفرس وتسلم قوة قوامها 10000 رجل. شعر داود باشا بالخطر المحتمل لهذا الوضع فأرسل فورا جيشه الخاص بقيادة عمه عبد الله باشا الى كركوك. وحين وجد الفرس (العجم) مسيطرين على المنطقة حول كركوك، وافق داود باشا على طلب الشاه باعادة محمود بابان الى

بروز صفوق بن فارس

1818 – 1825

حين تسلم صفوق بن فارس مشيخة شمر سنة 1818 او 1819، كانت العشيرة قد فقدت مؤقتا الكثير من وضعها المتفوق السالف في الجزيرة. لكن شمر بقيادة الشيخ الجديد سرعان ما انتهزت فرصة دقة وضع داود باشا الذي كان منشغلا باعداد العدة لمواجهة هجوم فارسي (ايراني) مهدد به ولاسترجاع قوته ونفوذه.

خلال السنين تناوبت العلاقات بين بلاد الفرس وولاية بغداد بين الصداقة المعتدلة والعداء العلني. وفي سنة 1818 سادت حالة حرب بين المنطقتين. بدأت المعارك حين قام محمد علي مرزة حاكم كرمنشاه العام بدعم الحاكم الكردي محمود بابان في نزاع له مع داود باشا. وتفاقمت الامور كثيرا حين طلب محمود الباباني مساعدة الفرس وتسلم قوة قوامها 10000 رجل. شعر داود باشا بالخطر المحتمل لهذا الوضع فأرسل فورا جيشه الخاص بقيادة عمه عبد الله باشا الى كركوك. وحين وجد الفرس (العجم) مسيطرين على المنطقة حول كركوك، وافق داود باشا على طلب الشاه باعادة محمود بابان الى

منصبه السابق¹.

نشبت المعارك مجددا على جبهتين سنة 1821. في قتال واحد اشتدت الحرب بين محمود بابان الذي نال دعم داود باشا وعبد الله بابان التابع لمحمد علي مرزه للسيطرة على السليمانية. ودحر الجيش الفارسي بصورة حاسمة قوات المماليك التي يقودها الكهيا محمد اغا. وفرار محمد اغا الى العدو بعد اندحاره المهين اعتبره البعض عمل خيانة متعمدة. ولما منى داود باشا بعمل عسكري خطير وفقد الكهيا التقدير، اخذ باعداد بغداد لحصار طويل. ولحسن حظ الباشا ان الجيش الفارسي سقط ضحية وباء الهيضة قبل ان يتمكن من محاصرة بغداد. وحتى في حالتهم الضعيفة ارسل الفرس عدة جماعات غازية نحو عاصمة المماليك².

التقت هذه الجماعات بجماعة من شمر يقودها صفوق بن فارس، فدحر المقاتلون الشمريون هذه القوة الفارسية الكبيرة في سلسلة مقابلات من الهجوم والانسحاب. وبالنظر الى انتصارات شمر والمشاكل التي خلفها وباء الهيضة، حسم محمد علي مرزه القائد الفارسي خلافاته مع

¹ نوار: داود باشا ص 114/170.

² العزاوي: تاريخ العراق الجزء السادس، ص 279/280 محمد امين زكي: تاريخ السليمانية (بغداد/1951) ص 147، نوار داود باشا ص 180، لونغريغ: اربعة قرون من تاريخ العراق ص 242/245.

داود باشا وانسحب من كردستان الغربية¹.

بالرغم من التسوية التي جرت بين داود باشا ومحمد علي مرزّه حول العراق الجنوبي بقيت القوات العثمانية تواجه جيوش الامير محمد علي مرزّه ولي العهد والحاكم العام لمقاطعة اذربيجان. ومنشأ هذا القتال الثاني يعود الى نزاع حول السيطرة على عشيرتين فارسيتين رحالتين لجأتا الى باشا ارضروم ولما طلب السلطان مساعدة ولاية ديار بكر والموصل وبغداد ضد الفرس سنة 1822 قام داود باشا بواجبه في ارسال جيش كبير لمساعدته. وتولى الكهيا الجديد الحاج طالب اغا قيادة قوة قوامها 10000 رجل الى الشمال عونا للسلطان. وفي نفس الوقت تولى محمد حسين مرزّه قيادة 40000 جندي فارسي عبر الحدود وطرد الجيش التركي الى قزل رباط. وقد شعر القادة الاتراك بالفاجعة القريبة فخططوا للانسحاب².

لكن القوة الفارسية المهاجمة اوقفت لامد من قبل الشيخ صفوق واتباعه المقاتلين من شمر بين شهربان والخالص. وبنتيجة الخطة السوقية المتفوقة استطاع الزعيم الشمري ان يقسم القوات الفارسية

¹ العزاوي: تاريخ العراق، الجزء السادس، ص 280 / 283.

² لونغريغ: اربعة قرون من تاريخ العراق ص 246. وجدير بالملاحظة ان محمد حسين مرزّه هو ابن محمد علي مرزّه وخلفه.

ودحر قوة تفوقه كثيرا. وقامت العشيرة بعد انتصارها بنهب المعسكر الفارسي وانسحبت بغنائم وفيرة¹.

استعملت عشائر بدوية اخرى ايضا نفس الخطط وتلقت الهجوم الفارسي. واصيب الجيش الفارسي بتجدد وباء الهیضة بعد ذلك وعبر الحدود². وهكذا قرر للهجوم الفارسي الثاني ان ينتهي بعد ان دحره مزيج غير محتمل من كارثة طبيعية ومقاتلين بدو. وتنفس العراق نفس ارتياح ومضى لاصلاح أنظمتة الاقتصادية والزراعية واعادة الانتاج.

بلغ نفوس شمر وزعيمهم الشاب صفوق بن فارس اوجه بعد دحر الفرس. ولولا زعامة الشيخ صفوق القديرة لاستطاع الغزاة الفرس ان يحققوا تدميرا اكثر في العراق. وقد قدر داود باشا كل التقدير مساعدة شمر في دحر الجيش الفارسي وكافأ صفوق بلقب وزير. ومنح الزعيم الشاب ايضا حق ادارة مقاطعة عنه على شاطئ الفرات. ولا شك ان هذه المكرمة الاخيرة اعطت ايرادا سنويا عظيما من الضرائب. والنجاح العسكري والتكريم الحكومي زاد من شهرة صفوق بين رجال عشيرته شمر³.

¹ السابق: المدني مطالع السعود ص 148/149.

² لونغريغ: اربعة قرون ص 246.

³ العزاوي: عشائر العراق، الجزء الاول ص 153.

في سنة 1823 امتد نفوذ شمر من نهر الفرات في الجنوب الى ماردين وفي الشمال ومن الموصل ودجلة في الشرق الى ابعد من نهر الخابور في الغرب وديرة شمر العشائرية الواسعة سببت لهم التصادم مرارا مع عشيرة عنزة في بادية الشام. ولم يكتف شمر بنهب غزاة عنزة سنة 1823¹ فعبرت الفرات في موسم الحرب التالية. وشمر، التي توقعت نصرا هينا جديدا على منافسيها من البدو، اخذت على حين غرة ودحرت بسرعة. وعلى اثر انتصارهم سنة 1824 نهب رجال عنزة العشيرة المغلوبة وقاموا فضلا عن ذلك باهانة شمر بسلب خيولهم العربية المطهمة. وارسل داود باشا قوات حكومية لمساعدة الشيخ صفوق ضد عنزة. وبعد ذلك بالرغم من اندحار شمر المهين أكد الباشا المملوكي تاييده للشيخ صفوق وسمح له بالاستمرار على حكم عنه².

¹ العزاوي: تاريخ العراق، الجزء السادس، ص 285/286.

² السابق:

العلاقات بين الحكومة وشمّر

سنة 1825 – 1830

حافظت شمّر على علاقاتها الودية مع والي بغداد خلال سنة 1825 كما يدل على ذلك اشتراكها في حملة حكومية لاعادة الامن في الريف العراقي¹. لكن في السنوات الاخيرة من العقد 1820 فقد الشيخ صفوق دعم داود باشا. والحقيقة ان زعيم شمّر الكبير اصبح الد اعداء الوالي الداخليين. ومع الاسف ان المراجع العربية التاريخية وتقارير الرحلات الاوربية كلاهما لاتعطيان معلومات مفصلة عن نشاط شمّر بين سنة 1826 و1830.

على اساس تحليل علاقة صفوق مع الولاة العثمانيين بعد سنة 1830، يمكن الافتراض ان الزعيم الشاب وجد من الصعب جدا مواصلة علاقاته الوثيقة لداود باشا. في طبيعة الامر ان الموقف المفضل مع حكومة بغداد منعت شمّر من متابعة غزواتها البدوية واعمال النهب. ومواصلة التعاون مع بغداد يحتمل انها ارغمت العشيرة على ترك غزواتها المعتادة لانها قد تكون تخصص معظم نشاطها لكبح

¹ لونغريغ: اربعة قرون من تاريخ العراق ص247.

جماح سائر العشائر البدوية والكردية والبيزيرية. وكما سوف يشرح
بتفصيل اكثر في الفصول الالية، لم تكن شمر لتستطيع اجراء هذا
التعديل.

سقوط داود باشا

حكم داود باشا الولاية حتى سنة 1830 حين طلب السلطان تنازله. فمئذ سنة 1826 باشر السلطان محمود الثاني (1808 - 1839) منهاجا لاعادة فرض السيطرة الملكية على الامبراطورية التي اختلت مركزيتها. بقيت ولاية بغداد نسبيا بعيدة عن تأثير هذه الاصلاحات لمدة اربع سنوات تقريبا. ولكن في سنة 1830 باء داود باشا بغضب محمود الثاني. وسبب ذلك اعمال تمرد مختلفة مقرونة باشتراك رمزي فقط في الحرب الاخيرة مع الروس. اغتاز السلطان من نجل الباشا المملوكي فاوفا صادق افندي، الموظف الحكومي الموثوق به، للحصول على استقالة داود باشا¹.

وصل المندوب السلطاني الى بغداد ورفض باذراء عروض الضيافة المتكررة، وقدم الفرمان (المرسوم السلطاني) الداعي الى استقالة داود باشا. لكن هذا الباشا المراوغ الذي غاظه الطلب رتب اغتيال صادق افندي واخبر الشيخ السلطان محمود ان رسوله مات بالهزيمة². وكان جواب السلطان انه نظم جيشا قويا بقيادة علي رضا

¹ السابق: ص 260/262.

² السابق: ص 264.

باشا لتنفيذ عزل داود باشا.

غادر علي رضا باشا حلب في اوائل 1831 وتوقف مؤقتا في شمال العراق للحصول على دعم قاسم باشا العمري والي الموصل وعدة عشائر بدوية، ومنها شمر الجرباء، قبل التحرك الى بغداد¹. وحين كان الجيش العثماني لابطا في الشمال، اصيبت بغداد بفاجعتين طبيعيتين : اولهما حدوث وباء اجتاح العاصمة، ثم عقبه فيضان ربيعي هائل. وكانت نتيجة هذين الحادثين السيئين ان داود باشا وجد نفسه في موضع ضعف².

وفي نفس الوقت وصل الى اسوار المدينة قسم من جيش علي رضا باشا بأمره معاونه قاسم باشا العمري والي الموصل³. وشدد ازر القوات العثمانية شمر الجرباء بأمره صفوف والعقيل التابعون لسليمان غنام. كان اعيان بغداد غير مستعدين لحصار طويل فوافقوا على تسليم داود باشا الى قاسم باشا. ولكن لما دخل مرتزقة العقيل والشمر الى بغداد بسرعة واخذوا بالنهب بدل الاعيان رأيهم. صمد البغداديون وراء اسوار المدينة معتزمين مقاومة تقدم علي رضا باشا. وغادر القائد العثماني الموصل سريعا حين علم ان قواته بلغت العاصمة، وحثته

¹ ج.ب. فريزر: رحلات في كردستان والعراق، الجزء الاول (لندن 1840) ص261.

² لونغريغ: اربعة قرون من تاريخ العراق ص264 — 267.

³ فون اوينهايم: البدو، الجزء الاول ص147.

الاخبار عن مقاومة المملوك على تسريع مسيرته نحو بغداد¹.

وجد علي رضا باشا عدوا شديدا العزيمة فامر بالقصف اليومي المتواصل الذي دام عشرة اسابيع. وفي اوائل ايلول طلب الطرفان المتقاتلان كلاهما نهاية سريعة للحصار. فبعد ثلاثة اشهر تقريبا من النار العثمانية المستمرة، كان اهالي بغداد الذين يعانون الجوع والضعف المعنوي على استعداد لقبول أي عرض معقول. وعلى مثال ذلك كان علي رضا باشا، وهو تحت وطأة عبء مزدوج من عدم تمكنه من دفع رواتب جنوده وضغط الاستانة عليه لوقف الحصار الطويل، هو ايضا مرغم على ايجاد نهاية عاجلة للحرب. ومن خلال خيانة عدة وجهاء بغداديين فتحت اسوار المدينة اخيرا امام العثمانيين المنتصرين. ارسل علي رضا باشا داود باشا الى الاستانة حيث بقي مبعدا سنوات عديدة واخيرا هيئ له ان يخدم السلطان في مناصب مختلفة الى وفاته سنة 1851. ومع ان الباشا الجديد سيطر على مدينة بغداد، فان وضعه العام بقي ضعيفا، فان عددا كبيرا من المماليك الموظفين والزعماء العسكريين المتمردين مازالوا يقيمون في بغداد والانحاء الخارجية من الولاية. وعالج الباشا هذه المشكلة بدعوة المماليك الاحياء الى اجتماع في بغداد حيث اعدوا بعد ذلك².

¹ فريزر: الرحلات ص262.

² لونغريغ: اربعة قرون من تاريخ العراق ص275.

علي رضا باشا والعشائر العربية

وجد الوالي العثماني سريعا لانزعاجه الشديد ان السيطرة على العشائر البدوية الكبرى اصعب جدا من القضاء على المماليك المتبقين. وزادت هذه المشكلة تعقيدا ان الفرمان الصادر بتعيين علي رضا باشا لولاية بغداد امره، لا ان يحكم بغداد وحدها، بل ايضا حلب وديار بكر والموصل. ولم يسبق ان عهد الى وال واحد بحكم مثل هذه المنطقة الواسعة¹.

واصبح الشيخ صفوق عدوا لدودا لعلي رضا باشا خلال حكمه الذي بلغ 11 سنة لولاية بغداد. في بادىء الامر دعت ظلامنة معينة شيخ مشايخ شمر الى ترك صداقته مع الوالي العثماني الاتي حديثا. لكن في نهاية الامر تركز صراعهما على محاولات الحكومة المتكررة لانشاء سيطرة مباشرة على ولاية بغداد. لكن الشيخ صفوق المتعود على الغزو متى شاء والمدير للشؤون العشائرية الداخلية دون ان يصغي الا في احياء قليلة الى اوامر الحكومة، وهو اقوى زعماء البدو في الجزيرة، استاء كثيرا من تدخل الوالي المتزايد. يظهر ان الصعوبات الاولى بين الرجلين قد بدأت في اواخر

¹ السابق: ص 275.

1831 او اوائل 1832. بينما كان علي رضا باشا في مسيرته من حلب الى بغداد في شباط 1831 عرض على صفوق مغريات مختلفة مقابل دعم شمر ضد داود باشا¹. وقد قبل صفوق فوراً العرض بالطريقة البدوية. وخلال المدة حين كان الوالي الجديد يثبت مركزه في بغداد، كلف صفوق بضمان سلامة القوافل والمسافرين الذين يمرون خلال ديرة شمر لقاء منحه مكافآت اقليمية و " خلة " ملابس².

هذه الحالة من التعاون المتقابل لم تستمر سوى امد قصير لان علي رضا باشا حين ثبت مركزه في بغداد، كره تنفيذ تعهده السابق لصفوق. بالامتناع عن منح صفوق مكافآته الموعودة يجوز ان علي رضا باشا حاول تقليص نفوذ الشيخ القوي الذي كما يظهر من احد المصادر، اصبح يسيطر على احسن الامكنة على قناة الدجيل شمالي بغداد فضلا عن اغلب انحاء الجزيرة³.

اغتاظت العشيرة من اخلاف علي رضا باشا لوعده، بدات العشيرة بأزعاج قرى متعددة بطلب اتاوات غير قانونية. علاوة على

¹ لويمر: الجغرافية، الجزء الاول، ا ب، ص 1316.

² وزارة الهند: ل/ب اندس / 9، رسائل سرية ومرفقاتها من ايران، الجزء 7، تايلر الى سكرتير الحاكم، 1832/7/10.

³ لوريمر: الجغرافية، الجزء الاول، ا ب ص 1316.

ذلك استولت على رسوم باهظة من القوافل المارة بديرتها¹. ولما طلب صفوق امتيازات اخرى من الباشا في اواخر 1832 او اوائل 1833، رفض علي رضا طلبه فغضب صفوق من جوابه السلبي وعلن تمرد².

ولم يأت شهر تموز 1833 حتى كان زعيم شمر وحليفه يحيى باشا والي الموصل قد اخذ يهاجمان العشائر اليزيدية في جبل سنجار التي كانت تغير على القوافل في طريق التجارة الشمالي بين الموصل وماردين. واذا بمحمد باشا امير راوندوز الذي كان معروفا بلقب " ميركور " (الامير الاعمى) الذي لم يرغب في فقدان الحصول على غنيمة باردة، يقوم هو ايضا بالهجوم على اليزيدية. وتحت قيادة الرؤساء الثلاثة الاقوياء المستقلين في الجزيرة حدث تمرد سنة 1832 - 1833 كان مبدء صراع طويل بين العثمانيين الذين رغبوا في توطيد سيطرة مباشرة على العراق الشمالي وبين زعماء المنطقة الاشداء، مثل الشيخ صفوق، الذين رغبوا في الاحتفاظ باستقلالهم⁴³.
بما ان علي رضا باشا كان واليا غير محبوب نسبيا وله دعم

¹ وزارة الهند: ل/ب اندس/9، رسائل سرية ... 1843/12/7.

² فريزر: الرحلات، الجزء الاول ص271.

³ وزارة الخارجية: 113/159 بغداد، تاسير الى الدائرة السياسية رقم 56 في 1833/7/29.

⁴ وزارة الخارجية: 113/195 بغداد، تايلر الى الدائرة السياسية رقم 56 في 1833/7/29.

عسكري غير كاف فقد عامل شمر بحذر. ولما كان العدد المحدود من القوات التي لديه منشغلة بتمرد عشائري قرب الحلة فقد طلب الوالي الجديد اضعاف شمر القوية بخلق نزاع في داخل العشيرة¹. وقد نفذ خطته في اول الامر بسحب اعترافه بشيخ صفوق كزعيم تؤيده الحكومة، ثم عين الشيخ شلاش ابن اخي صفوق رئيسا منافسا له. علم شلاش انه ضعيف فعلا بدون مساعدة علي رضا باشا وتعاون تعاوننا وثيقا مع المحسن اليه².

لما علم صفوق بمحاولة الحكومة للاخلال بمنصبه كشيخ شمر الاعظم فقد ضرب الحصار على بغداد في ايلول 1833. وبدا مقاتلوا شمر من مسافة نحو 20 او 30 ميلا بتوقيف كل القوافل والتجهيزات والمعلومات التي تقصد العاصمة. كان الحصار في بادىء الامر مزعجا قليلا فقط، ثم اشتد بعد ذلك حتى استولت شمر على كل المراكز الخارجية التركية حول المدينة³. وبنتيجة هذا الضغط المتزايد طلبت القوات التركية وسكان الارياف اللجوء الى داخل البلدة. وقد جعل الحصار بغداد في اشد الضيق، فأمر علي رضا باشا قائده العسكري

¹ وزارة الهند: ل/ب اندس/9، رسائل سرية... الجزء 7، تايلر الى الدائرة السياسية رقم 83 في 1833/10/24.

² وزارة الهند: ل/ب انرس/9 رسائل سرية... الجزء 51.

³ وزارة الخارجية: 113/195 بغداد، تشير الى الدائرة السياسية رقم 56، 1833/7/29.

محمد باشا بترك حملته الجنوبية.

عاد محمد باشا الى العاصمة ومعه نحو 5000 رجل، لكنه لم يستطع كسر حصار شمر. واخيرا تنفست بغداد الصعداء حين ترك صفوق الحصار بعد ذلك. ان مقاتلي شمر المعتادين على الغارات البدوية السريعة لم يكن لديهم الانضباط اللازم لمواصلة هذا الحصار الطويل. يضاف الى ذلك انه في نفس الوقت تقريبا احتاج حليف صفوق يحيى باشا والي الموصل الى مساعدته في الشمال¹. لكن صفوق قبل مغادرته هدد بغداد بحصار جديد. وما ان رفع الحصار حتى ارسل علي رضا باشا فورا جيشا لمهاجمة شمر على طريق الموصل. وحين اتصل الجيش التركي اخيرا بشمر دحرهم في معركة حاسمة².

ان والي بغداد، الذي سبق له ان امسك في كماشة حصار شمري، رغب ان يتحاشى تكرار كارثة سنة 1833 لقد توقع حصارا اخر من جانب شمر سنة 1834 فطلب مساعدة عشيرة عنزة. وكانت عنزة مستعدة كل الاستعداد لقبول عرض علي رضا باشا لان الاحتلال المصري لسورية سنة 1832 قد ارغمها على الخروج من ديارها الاعتيادية في بادية الشام والدخول الى الجزيرة وفي الاحوال الاعتيادية

¹ لوريمر: الجغرافية، الجزء الاول، أ ب، ص 1311.

² العزاوي: تاريخ العراق، الجزء السابع، ص 28.

كان على شمر والحكومة العثمانية ان تتعاونوا لمقاومة هجرة عنزة الى الجزيرة. لكن للأسباب التي سبق شرحها رحب علي رضا باشا بعنزة ومنحها مراعي شمر الغنية اذا ساعدته في التغلب على صفوف بن فارس. ولما رأى صفوف مقاتلي عنزة البالغ عددهم 35000 ينتظرون ضرب أي هجوم لشمر على بغداد فقد حكم عقله واحتفظ بعشيرته في العراق الشمالي¹.

عندما زال خطر هجوم شمر اخبر علي رضا باشا رؤساء عنزة ان الحاجة الى خدماتهم انتهت. لكن العشيرة رفضت العودة الى ديارها الى الجانب الغربي من الفرات، وادعت انها قامت بواجبها وهي تطلب الان المكافأة الموعود بها. ولجل تأكيد هذا الطلب نقلت العشيرة خيامها الى مكان أقرب الى بغداد. وقد خاف علي رضا باشا مغبة وجود نحو 35000 مقاتل عنزي غضبان معسكرين على مقربة من عاصمته، فدعا تابعه الشمري الشيخ شلاش لمساعدته. وقد صدع بهذه الاوامر الوالي العثماني وحرك محاربيه نحو بغداد. وفي الوقت نفسه اخذت صفوف العزة بعشيرته فنى مصاعبه مع شلاش وعلي رضا باشا وارسل 2000 رجل لقتال عنزة لكن بالرغم من عزم قوات العثمانيين وشجعانهم، انتصرت عنزة بتفوق عددها وقتلت شلاش وحاصرت بغداد ونشرت الفوضى في انحاء الجزيرة.

¹ فريزر: الرحلات ص 272

وعشيرة عنزة المنتصرة اعادت عبور الفرات سنة 1835 وتركت
شمر مرة اخرى مسيطرة على الجزيرة¹.

خلال مدة سبعة عشر عاما ارتفع صفوق بن فارس من زعيم
صغير سنة 1818 حتى اصبح اقوى شيوخ الجزيرة سنة 1835. وقد
لقب " سلطان البر " أي ملك البادية وحكم اقسام من العراق وسورية
وتركية الحديثة². اصبح اسمه مخيفا ونزواته نافذة وكلمته قانونا. كان
حاميا لعشائر صغرى عديدة، وحليفا لوالي الموصل، جابيا للضرائب
في مئات القرى، ومسيطر على طرق القوافل، ومحاربا مشهورا.
وقد اسندته قبيلة متحدة رات فيه الزعيم الصنديد. وهكذا بلغ صفوق
اوج عظمته.

¹ كالسابق ص 271-274

² العزاوي: عشائر العراق، الجزء الاول ص 153-156

سياسة الحكومة في الحكم المباشر

حملة رشيد باشا سنة 1835

قبل سنة 1835 كان الشيخ البدوي من طراز صفوق متاكدا بصورة معقولة من المحافظة على قوته خلال سنوات طويلة قادمة. لكن لسوء حظ صفوق ان السنوات الاثنتي عشر التالية اصبحت ملأى بمآزق غير متوقعة ادت الى اضعاف مركزه كقوة يحسب لها حساب في الجزيرة. في سنة 1835 اخذت ولاية بغداد تشعر بثقل الاصلاح الاداري العثماني بكل ثقله.

كان عهد السلطان سليم الثالث (1789- 1807) البداية التي يمكن اعتبارها عهد الاصلاح " الحديث في الامبراطورية العثمانية. وقد تركزت جهوده على اصلاح المدارس والخدمات الطبية، والاهم من ذلك الجيش العثماني. بدأت الحركة بحماسة شديدة، لكن هذه الاصلاحات التي كثيرا ما استخدم فيها مستشارون اوربيون اصبحت بمضي الوقت محدودة الاثر. وفي سنة 1807-1808 حدث تمرد محافظ افضى الى خلع سليم الثالث وقتله بعد ذلك.¹ وبموت سليم الثالث فقدت

¹ ستانفورد شاو: بين القديم والحديث: الامبراطورية العثمانية، السلطان سليم الثالث 1789-1807 (كمبريدج 1971).

حركة الاصلاح العثماني نشاطها وبقيت خامدة نحواً من عشرين سنة حتى شعر محمود الثاني ان العناصر الرجعية في داخل الامبراطورية لابد من القضاء عليها قبل الشروع بالاصلاح. وبدأ عمله باستخدام عدة جماعات مدربة تدريباً عسكرياً اوربياً للمساعدة في ازالة فرقة اليكشارية المتفسخة. وقد قتل كل اليكشارية في الاستانة ووحداتهم المختلفة في الولايات¹ لكن جهود محمود الثاني الاصلاحية لم تقتصر على الجيش، بل ان كل الاوقاف الدينية وضعت تحت رقابة الدولة، واستعيدت كل المنح الاقطاعية التي اعطيت خلال القرون القليلة الماضية. ولم يكف السلطان المصلح ان يحقق هدفه في تركيز سلطته في الاستانة، بل كان عليه ان يكسر شوكة الحكام المستقلين في الولايات².

على اثر انتصار الجيش المصري على الامبراطورية العثمانية سنة 1832 شن محمود الثاني حملات عسكرية مباشرة على الحكام المستقلين في شمال العراق الذين رفضوا دعم جهوده العسكرية. فوالي الموصل كوالي بغداد قبل نحو خمس سنوات، وضع تحت السيطرة الادارية العثمانية المباشرة سنة 1835 حين حل محمد باشا

¹ رودريك هـ. ديفيس: الاصلاح في الامبراطورية العثمانية 1856-1876 (برنستن 1963) ص 23-26.

² برنارد لويس: بروز تركيا الحديثة (لندن 1961) ص 80-81.

اينجه بيرقدار محل الاسرة الجليلية المنغطسة سابقا¹. وحدثت تغييرات
جسيمة اخرى حين خرج رشيد باشا الصدر الاعظم السابق من ديار
بكر على راس قوة عظيمة سنة 1835²، وتحرك نحو ماردين
فضرب المدينة الثائرة، ثم مضى جنوبا الى الجزيرة. وكجزء من
حملات على الحكام المحليين المستقلين اغرى رشيد باشا الشيخ
صفوق بالقدوم الى معسكره بوعد الامان واعتقله مع ولده الشاب
فرحان³.

بقي صفوق وفرحان معتقلين في الاستانة نحو من ثلاث سنوات.
وهذه المدة من الغياب الاجباري سجلت عهدا خاصا مهما في تاريخ
شمر. ففي خلال اربعين سنة تقريبا تأقلمت شمر تدريجيا للعيش في
منطقة تتضمن مدنا كبيرة وحكومة مركزية متزايدة القوة. وقد مرت
ثقافة شمر البدوية بتغييرات متعددة نتيجة الاتصال المتنامي. بالثقافة
المتوطنة.

هيا الاعتقال الاجباري لرئيسي شمر في الاستانة مثلا معينا كيف
ان الثقافة المتوطنة تنفذ خلال الثقافة البدوية. يحتمل ان اراء الشيخ
صفوق البدوية وهو زعيم ناضج داهية، لم تتغير بحكم بقاءه في

¹ سليمان صائغ : تاريخ الموصل(القاهرة 1924) ص310-311.

² لونغريغ : اربعة قرون من تاريخ العراق، ص285.

³ روس: بغداد الى الحضر(في مجلة الجمعية الجغرافية الملكية)،9، ص456 .

الاستانة، لكن قوة البلاط العثماني وثروته لاشك انهما اثرا في نفسه. وخلافا لابييه، يبدو ان فرحان تأثر بصورة محسوسة بزيارته. درس فرحان في مدرسة عثمانية حيث تعلم الكلام بالتركية وتذوق العادات والملابس التركية. وقد احب العيش في امارته، ووجد كما يبدو تائما مع الثقافة التركية¹.

وفي الحقيقة ان النتيجة المهمة للسنوات التي قضاها صفوق في الاستانة هي ان شيخ شمر وافق على مساندة السلطان ضد المصريين في كل الحروب التالية. وبعد ان قدم هذا الوعد سمح الباب العالي لصفوق ان يعود الى الجزيرة². ولولا زعامة صفوق القديرة لأضاعت شمر الجرباء معظم قوتها السالفة في سلسلة منافسات عشائرية. وكما سيظهر بوضوح في الفصول الالاية كانت الزعامة القوية ضرورية جدا للعشيرة المتحدة المتنفذة³.

على اثر اعتقال زعيمها المفضل سنة 1835 عادت العشيرة الى نشر الفوضى في انحاء الجزيرة من الفرات الى دجلة. وفي اثناء غاراتها سنة 1835 دمرت شمر المزارع الخصبة حول بلدة تكريت

¹ بلنت: العشائر البدوية ص231.

² ادوارد متفورد: مسيرة برية من انكلترا الى سيلان قبل اربعين سنة (لندن 1884) ص252-253.

³ وزارة الهند ل/ب اند س/9، رسائل سرية ... حلب، ويرى الى بونسفبي، 12/3 1836.

على دجلة¹. وعندما كان صفوق في الاستانة ايضا استأنفت المعارك التقليدية بين عنزة وشمر سنة 1836. وهذا القتال بالرغم من تدخل القوات المصرية ضد عنزة، وجعل السفر والتجارة في وادي الفرات صعبا الى اقصى حد.

حكم محمد بن فارس على مايقدر ب 12 الف عائله بصفته الرئيس الاعلى لشمر من قبل الحكومة بينما كان اخوه معتقلا في الاستانة. وفي سنة 1836 صرح رحالة اوربي إن فرق العبدية والاسلم والعليان وزوبا ايدت الشيخ محمد² لكن في اواخر 1837 اصبحت فرق متعددة مستاءة من الشيخ الذي تسنده الحكومة وتمردت³. وحين عاد صفوق الى الجزيرة سنة 1838 فقدت عشيرة شمر الوحدة التي تمتعت بها سنة 1835. وفي السنوات العشر التالية بذل صفوق قصارى جهوده لاعادة وحدة شمر.

بعد سنوات الاسر الثلاث الطويلة ايد صفوق السلطان ضد المصريين حين نشبت الحرب مرة اخرى بين هذين الخصمين. وقد أعيد صفوق لقاء تاييده رئيسا اعلى من قبل الحكومة. وبعد ان اصبح

¹ وزارة الهندل/ب اند س/9، رسائل سرية ... حلب، ويرى الى بونسني، 12/3 1836.

² كالسابق

³ وزارة الهندل/ب وس 9/ رسائل سرية ... حلب ، ويرى الى اللجنة السرية، 1837/11/15.

معززا بتكريم الحكومة والدعم الرسمي فضلا عن الاعانة الضخمة التي
يحتمل انه حظي بها، سرعان ما خضع هذا الرئيس الاعلى فرق شمر
العاصية. وظهر دليلا اخر ا على ولائه المجدد للعثمانيين في اذار
1840. فقد غادرت شمر المدينة (جنوبي بغداد) وسارت الى الشمال
نحو اورفة حيث ساعدت مجهود الحرب العثماني بازعاج الحدود
المصرية¹، ومع ان شمر لم تكن سوى شوكة في الجناح المصري،
فان مجرد اشتراكها في القتال ضد المصريين دل على ان صفوق لم
يعد صرف النظر عن طلب السلطان للمساعدة في فعل سنة 1832.

¹ متفورد : مسيرة بحرية ص 252-257.

عهد تردد

1845-1840

تذبذبت العلاقات بين شمر والحكومة خلال السنوات القليلة التالية بين الصداقة المتينة والعداء السافر. حاول الشيخ صفوق بين سنة 1840 و 1845 ان يستعيد مركزه السابق كاقوى الزعماء العشائريين في الجزيرة. وبمضي الوقت وجد هذا الشيخ الشمري، الذي كان من قبل متفوقا، ان من العسير السيطرة على العشيرة وممارسة نفوذه الاعتيادي لدى الحكومة المركزية. يعود هذا التهافت الى ثلاثة عوامل عامة ادت الى هبوط السمعة الشخصية لرئيس مشايخ شمر. اولاً : يظهر ان صفوق اخل بمبدأ مهم لرئيس بدوي قوي. لقد نفر اقساماً كبيرة من العشيرة¹.

ثانياً : حدثت مجاعة شديدة خلال السنتين 1845 و 1846 اضعفت العشيرة عموماً فضلاً عن استنزافها لثروة الشيخ صفوق الشخصية. وبدون موارد الثراء الملازمة للشيخ القوي. اضاع صفوق

¹ اوسنن هنري لايارد: اكتشافات في خرائب نينوى وبابل، نشره هـ و ف ساغس (لندن 1970) ص 114.

أكثر نفوذه على العشيرة¹.

ثالثاً : كنتيجة لضعف شمر وزيادة قوة الحكومة العسكرية استطاعت بغداد أن تسيطر سيطرة أقوى على شمر الجرباء. ومقدرة نجيب باشا الملحوظة في التدخل في شؤون العشائر الداخلية تعطي مثالا للهيمنة العثمانية المتزايدة في الجزيرة².

مع أن شمر قامت بغزوات صغيرة من 1840 - 1843 فإن صفوق بقي عموماً خارج مجرى الشؤون في الولاية وأدت الدسائس السياسية بين والي بغداد والموصل بصورة محسوسة إلى العلاقات المتوترة بين الحكومة وشمر³.

بدأت الصعوبات بين علي رضا باشا والي بغداد ووالي الموصل عن قضية السماح أو عدم السماح للشيخ صفوق أن يستمر في حكم منطقة عنه على نهر الفرات⁴. وكان صفوق قد حصل على عنه في الأصل مكافأة لخدماته ضد الإيرانيين في أول العشرينات من القرن الثامن عشر.

وافق علي رضا باشا كارها على السماح لصفوق بالاحتفاظ بهذا

¹ كالسابق ص 115-116.

² وزارة الخارجية 204/195 الموصل، رسام إلى تايلر، 1843/11/23.

³ وزارة الخارجية 228/195 الموصل، رسام إلى كاننغ، 1844/11/29.

⁴ وزارة الخارجية 228/195 بغداد، رسام إلى كاننغ، رقم 29، 1846/9/15.

المنصب. لكن باشا الموصل الذي اراد عنه ان تكون له، احتج بمرارة على هذا القرار. وبعد مناقشة طويلة اقنع علي رضا باشا بعزل صفوق في اواخر 1841 او اوائل 1842 واسترجاع عنه منه ورد صفوق على ذلك بشن عدة غارات قرب نهر الخابور. وحصلت صعوبات اخرى للشيخ المطوق حين حاولت عدة عشائر الخروج من سيطرة شمر. وقد امل صفوق ان يحتفظ بولاء هذه العشائر، فارسل الشيخ فرحان الى بغداد للمفاوضة لعقد تسوية مع والي، ثم عاد الى منطقة الموصل ليجتمع بالعشائر المنفصلة وقد قام نامق باشا والي بغداد الجديد باعادة تعيين الشيخ صفوق رئيسا اعلى لشمر في تشرين الثاني 1843¹.

رغبة منه في الاحتفاظ بدعم الحكومة، قاد صفوق حملة ناجحة ضد عنزة قرب حران في ايار 1844². لكن في خريف 1844 فقد صفوق مرة اخرى اعتراف الحكومة حين عين نامق باشا شيخا منافسا له لمنصب رئيس العشيرة الاعلى. وحاول صفوق انهاء هذا التحدي لسلطته كرئيس العشيرة باعادة توطيد علاقاته الودية مع والي بغداد.

ولم يكد يمر الوقت حتى حصلت الفرصة للرئيس الشمري الخاطيء لاسترجاع الدعم الحكومي. في خلال صيف 1844 قامت

¹ وزارة الخارجية 204/195 بغداد، تايلر الى رسام، 1843/11/28.

² ج ب باجر : النسطوريون وطقوسهم (لندن 1852) ص334.

عشيرة عنزة، التي طردت من ديرتها بكارثة حريق، بغزو الجزيرة طلبا للمرعى بعد ان عثرت على العشب اللازم لمواشيها بدأت في الغارة بين بغداد والموصل¹.

طلب نجيب باشا ومحمد شريف باشا والي الموصل كلاهما مساعدة شمر لوقف غارات عنزة. وقد قبل صفوق بسرور طلب الحكومة هذا وخرج الى الميدان بصحبة الف مقاتل شمري. واتصلت شمر نهائيا بقوة عنزة التي تعد 20 الف مقاتل بقيادة الشيخ ادهم بن جحيش شمال غربي الموصل. واستطاعت شمر بمساعدة خيالة اكراد يقودهم بدر خان بك ان تطرد قوة عنزة الكبيرة الى الجنوب نحو تلعفر واسكي موصل².

بعد سلسلة من المراسلات الدبلوماسية حاول بها ادهم بن جحيش تحسين علاقاته مع والي الموصل، استؤنفت المعارك بين عشيرتي عنزة وشمر في خريف 1844³.

وفي اعقاب عدد من معارك غير فاصلة عادت عنزة الى نهر الارياف حول الموصل في اواخر 1844 واول 1845. وشعر ادهم بن جحيش بان عشيرته تواجه اشد المصاعب التي تفوق قدرتها فوافق

¹ كالسابق.

² كالسابق.

³ كالسابق.

على شروط الصلح التي ألزمت عنزة بالعودة إلى البادية السورية ودفع
اتاة قدرها 15000 غنمة وأكثر من 3000 بغير و 8 افراس. لكن
اتفاق الصلح هذا لم يمه الصراع بين شمر وعنزة. فان صفوق،
باوامر من محمد باشا، هاجم عنزة حين عبرت نهر الفرات واستولى
على أكثر من 7000 غنمة. ورد ادهم بن جحيش على هذه الخديعة
التي املاها العثمانيون بالغارة على انحاء نهر الزاب الاصغر واخيرا
طردت شمر عنزة إلى خارج ولاية بغداد إلى البادية السورية في اواخر
سنة 1845¹.

¹ وزارة الخارجية 237/195 بغداد راولنسن إلى كانغ، رقم 43، في 1/10/1845.

المعركة التي لا بد منها

1846

قام صفوق واتباعه بالعديد من الغارات الصغيرة في اوائل 1846. وحدثت اشد هذه الحوادث في ثلول سنجار حيث قتلت شمر احد رؤساء اليزيديين وثمانية من مقاتليه¹. ويظهر ان صفوق استعمل هذه الغارات للاحتفاظ برئاسته على مختلف افخاذ شمر. ومنذ عزله الاجباري من الجزيرة سنة 1835، تدهور تدريجيا وضع صفوق كالرئيس الاعلى لشمر الجرباء (وسلطان البر). ولم يحل خريف سنة 1846 حتى قام صفوق وقد هبط نفوذه وتأثيره بسرعة باخر جهوده لانقاذ وضعه السابق.

لكن خلال اثني عشر شهرا سقط شيخ البادية القوي سابقا قتيلا بيد قاتل عثماني. ومع ان حوادث السنة الاخيرة من حياة الشيخ معلومة لم يحاول الا القليل من المؤلفين، بل لم يحاول أي واحد منهم، شرح هذه الاعمال او تحليل نتائج مقتله على العلاقات بين شمر والدولة العثمانية. والبحث التالي يحاول ان يملأ هذا الفراغ بتقديم عدد من الملاحظات تشرح الأعمال التي عملها صفوق.

نقول في البدء ان شيخ شمر كان رجلا شديد الاعتداد بنفسه. فقد كان يرى نفسه شخصا قويا ومهما وحاول ان يحتفظ بالمركز الذي تمتع به في العشرينات والثلاثينات (من القرن التاسع عشر). كذلك يظهر انه كان يستاء من أي تجاوز على مزاياه الشخصية كزعيم بدوي وبطبيعة حاله رفض ان يخضع لرغبات عشيرته او الحكومة. ولاشك ان هذا الرفض نشأ عن حقيقة تذكره العهد الذي شهدته عشيرة شمر كسيادة الجزيرة غير المنازعة. ولذلك لم يستطع الشيخ المسن ان يعدل مسلكه ازاء تدخل الحكومة في شؤون العشيرة².

ان حقائق الحياة في الجزيرة سنة 1846 تعطي اختلافا محسوسا لفكرة صفوف عن قوة شمر ودوره بصفته الرئيس الاعلى. لقد تغيرت الاحوال السياسية والاقتصادية في الجزيرة منذ سنوات العشرين والثلاثين (من القرن التاسع عشر). وفي مقدمة هذه الاتجاهات الجديدة الوجود الاداري العثماني النامي دائما مما زاد الضرائب على سكان الجزيرة من ريفيين ومدنيين ورحالة. وصحب الضرائب المرتفعة طلبات متزايدة لرشاوى ومدفوعات ادارية وهذه النفقات المرتفعة منعت صفوف من المحافظة على طراز المعيشة المطلوب من الزعيم البدوي

¹ وزارة الخارجية 228/195، الموصل، رسام الى كاننغ، رقم 32، 10/8/1926.

² وزارة الخارجية 272/195 بغداد، روالنسن الى كاننغ، رقم 19، 27/10/1847.

الكبير. وبالنتيجة تضاعل نفوذه على افخاذ عشيرة شمر المختلفين¹.
في السنوات العشر التي تلت نفاذها الابتدائي في المنطقة سنة 1831 لم تقم القوة العسكرية العثمانية، باستثناء حملة رشيد باشا الكبرى سنة 1835، بتحدي الحكام المحليين الصغار بصورة فعالة. ولكن خلال سنوات الاربعين اثر الجيش التركي تاثيرا متزايدا في المنطقة عن طريق حملاته الفعالة ضد الدول الكردية شرقي الموصل. وهو ان صفوق لم يكن الهدف المباشر لهذه القوة الجديدة فانه ولا ريب، خشى من تعاضمها وحاول تدميرها باعماله العنيفة في سنة 1846 1847².
ان مجاعة شديدة بدأت سنة 1844 ودامت سنتين عاقت صفوق ايضا في محاولته للاحتفاظ بالسلطة. فالجوع ارغمه على بيع حليته الشخصية ومواشيه لشراء حبوب لعشيرته، حرم الشيخ من ثروته. وحين يفقد زعيم بدوي ثروته فانه يفقد في الوقت نفسه نفوذه لدى عشيرته. وكما ذكر انفا تحدي الشيخ نجرس شيخ شمر المنافس الذي ايدته الحكومة ايضا صفوق واعمال الشيخ صفوق في السنة التي تلت ايلول 1846 سمحت له بتخصيص جهوده لتدمير مزاحميه واحياء ماضيه³.

¹ لا يارد : اكتشافات ص 171.

² وزارة الخارجية 301/195 الموصل، رسام الى كاوي رقم 38، في 1874/7/26.

³ لا يارد : اكتشافات ص 114.

في خريف 1846 تحركت شمر الى الشمال من بغداد نحو منطقة الموصل الهادئة. ولكن لما ظهر صفوق في العراق الشمالي تغيرت الاحوال بسرعة. بدأت شمر فوراً بنهب العشائر الصغيرة جنوبي حمام علي ووقفت المرور على نهر دجلة والغارة على القوافل في طريق حلب الى الموصل. واخيراً دخل صفوق الى منطقة نفوذ بدر خان بك الزعيم الكردي الثائر قرب جزيرة عمر.

ولما وصل صفوق الى منطقة امان نسبي ارسل ابنه فرحان حاملاً بعض الهدايا القليلة ووعداً بتقديم هدايا اخرى للتفاوض مع نجيب باشا في بغداد¹. امل فرحان ان يقنع الوالي باعادة تنصيبه زعيماً حكومياً اعلى لشمر، ووافق نجيب باشا على تلبية طلب الشيخ الشاب. وبالخلع على فرحان اعاد نجيب باشا فعلاً رئاسة شمر الى صفوق بدون الاعتراف بالشيخ المسن الذي يعلم انه محبوب حقاً. بعد هذا التنصيب فقد نجرس تاييد الحكومة. وكذلك وعد نجيب باشا بارسال قوة عسكرية لمساعدة فرحان في المحافظة على الأمن في الجزيرة. ان عمل نجيب باشا الغريب شيئاً ما تجاه عدوه المفترض الشيخ صفوق يمكن تفسيره بسهولة بحقيقة ان والي بغداد رغب تأمين السلم في الجزيرة. وقد اختار ان يتعامل مع شمر ذات النفوذ على اساس انها

¹ وزارة الخارجية 301/195 الموصل، رسام الى كاوي رقم 38، في 1874/7/26.

تستطيع تأمين الامن بين العشائر اذا استطاع احد ذلك¹.

يظهر ان المشاكل التي كانت تواجه صفوق في خريف 1846 كانت معقدة اكثر من تلك التي تجابه نجيب باشا. اولا كان على صفوق ان يحل مشكلة وحدة العشيرة. وكما يرى بعد هذا استعمل كل طريقة تخطر على البال لتحقيق هذا الهدف. ثانيا، كان على صفوق ان يبقى على صفاء مع الموظفين العثمانيين المختلفين لانه بدون دعمهم لا يواجه غضبهم فحسب بل يفقد ايضا سطوة الاعتراف الحكومي. وعلى كل حال ان حوادث 1846 و 1847 صورت بصورة واضحة مأزق شمر الجرباء في الجزيرة.

ان هذه العشيرة، وقد فرقت بين الحياة البدوية التقليدية والتاثير الجديد المتزايد لسيطرة الحكومة المركزية، طالبت ان تجري التعديلات اللازمة لبقائها قوة عظيمة ومتحدة وقد دار جوهر المشكلة حول قضية بقاء او عدم بقاء شيخ بدوي تقليدي مثل صفوق محتفظا بمركزه في زعامة عشيرته. والجواب على هذا السؤال كما اوضحته الحوادث التالية كان سلبيا.

مرة اخرى قرر صفوق، وهو الشيخ الذي كادت تعترف به الحكومة والمتمتع بحماية حليفه بدرخان بك، ان يعيد وحدة العشيرة

¹ وزارة الخارجية 272/195 بغداد، راولنس الى كرولي رقم، 19/1847.

تحت سيطرته بصرف النظر عن العواقب¹. وكانت علاقاته الطائشة مع
الثائر الكردي بدر خان بك تربك نجيب باشا الذي وبخه الباب العالي
رسميا لاعترافه بفرحان رئيسا رسميا لشمر² أمل صفوق ان يحصل
على رضا الدولة العثمانية بمعاملتهم باحترام وطلب دعمها العسكري
للقضاء على افخاذ شمر العاصية التي امتنعت عن الخضوع لسلطته بعد
اعتراف نجيب باشا بفرحان زعيما اعلى.

في محاولة اخرى لاحباط العداء في داخل العشيرة دعا صفوق
الشيخ نجرس الى مخيمه للبحث في مشاركتها الرئاسة.
ارغم صفوق على الاعتماد على دعم الاتراك فمضى الى الشمال
الغربي نحو ديرك المجاورة لدير بكر. وسرعان ما تجسمت مساعدة
الحكومة اذ ان مشير ماردين ارسل 600 جندي لشد ازر احد ابناء
صفوق لاختضاع افخاذ شمر المتمرده. وقد اغتاز عودة ومقاتلوه لمساندة
الحكومة للشيخ صفوق فاخذوا يغيرون على كل الجهات، وكانت تلغفر
غربي الموصل ضحية لهجومهم. ومضى على هذا الفرع من العشيرة
الى ابعد من ذلك نحو الشرق فواصل غزواته بطريقة الضرب
والهرب على شهربان وسائر الاصقاع³. وقاموا ايضا بغلق اكثر

¹ محمد امين زكي : خلاصة تاريخ الكرد وكردستان (بغداد 1961) ص 236-239.

² وزارة الخارجية 272/195 بغداد راولنسن الى كرولي رقم، 1847/19.

³ وزارة الخارجية 301/195 موصل، رسام الى راولنسن رقم 13، 1847/7/18.

طرق البادية المؤدية الى الغرب. وقد نشر عودة الفوضى الشاملة فطلب صفوق مساعدة نجيب باشا ليوقفه عند حده. ووافق الوالي على ارسال مفرزة من الجنود الى صفوق¹.

غادرت بغداد مفرزة عثمانية بقيادة كنج اغا في اواخر تشرين الاول 1847 وقابلت صفوق في مخيمه على بعد ساعات قليلة خارج العاصمة. وتحركت القوة المشتركة نحو الجنوب واستعدت للقضاء على عودة المزعج. وقد بدا كل شئ مرضيا حين تقدم الشخص المطلوب الى بعد مسافة ملائمة للضرب. وقد اتحد فرحان بابيه مرة اخرى وقاد مفرزة من محاربي شمر الى المعركة بينما بقي صفوق في المؤخرة بحماية حرسه الخاص. ويفترض ان كنج اغا قائد الجنود الاتراك بقي الى الوراء لمساعدة صفوق في حالة الضيق. ولما كان فرحان والقسم الاعظم من شمر في طريقهم لمقابلة عودة حصلت الفرصة لكنج اغا لتنفيذ اوامر نجيب باشا السرية. وباشارة متفق عليها سلفا قام جندي عثماني باطلاق النار على صفوق في ظهره وقطع راسه. ولم تمض ساعات قليلة حتى قبض نجيب باشا على راس (سلطان البر) ولما علم فرحان بموت ابيه هرب الى عشيرة عنزة وطلب حمايتها الانية².

من المناسب خصوصا ملاحظة طبيعة تدخل الاتراك في شؤون

¹ كالسابق

² وزارة الخارجية 301/195 الموصل، رسام الى كراولي رقم 38.

شمر. وجد والي بغداد نفسه لا يستطيع تحدي العشيرة عسكرياً سنة 1847 بعد ان اقامت في الجزيرة نحو عشرين سنة، فحاول ان يضعف قوة شمر بوسائل غير مباشرة. ولجل تحقيق هذا الهدف اعتمد نجيب باشا على شكل من سياسة المماليك العشائرية ونفذها الى النهاية.

يجوز انه اعتقد ان اغتيال صفوق يهيئ حلاً لمشكلة شمر. لكن في نهاية الامر لم يكن ما حسمه سوى مشكلة صفوق. والحقيقة ان صفوق كان آخر شيخ شمري في القرن التاسع عشر شغل منصب سلطان البر " بلا منازع. وقد بلغت شمر بقيادته اوج قوتها العسكرية. ولسوء حظ شمر ان طمع صفوق الشخصي وعدم امكانه التكيف لاحوال متغيرة سبب سقوطه. وقد كان على صفوق للاحتفاظ بسلطته ان يحل مشكلتين اساسيتين :

(1) وحدة العشيرة و (2) التدخل المتزايد لسلطة الحكومة العثمانية المركزية. اخفق صفوق في الحفاظ على وحدة العشيرة وبدون تأييد عشيرة متحدة لم يكن شيخ شمر المسمن يستطيع ان يدرأ التحدي من جانب الوجود المتزايد الاداري والعسكري العثماني في الجزيرة. وفي احسن الاحوال، حتى مع وجود عشيرة متحدة، لم تكن جهوده ضد الاتراك سوى مجرد اجراء مؤقت لملئ الفراغ لان الفنون العصرية في نهاية الامر ومرور الوقت من شأنهما تقوية موقف الحكومة المركزية.

الفصل الثالث

عهد تعديل : تحفظ العلاقات

بين العثمانيين وشمر

1848 - 1868

في شتاء 1847 - 1848 تمتع نجيب باشا بانتصاره الحديث على
شمر الجرباء. وخلال مدة قصيرة بدا وكأن الحالة في الجزيرة خاصة
وفي العراق عامة قد هدأت لصالح الوالي التركي. والحقيقة ان نجيب قد
ابعد الشيخ الشمري المشهور في القرن التاسع عشر عن مسرح
التاريخ. لكن المعنى الحقيقي لهذا الحادث في ذلك الوقت كان
واضحا¹. وعند تحليل احداث العشرين سنة التالية من العلاقات بين
شمر والعثمانيين يتضح كل الوضوح ان وفاة صفوق وعمل نجيب باشا
لم يمنح العثمانيين النصر الكامل الذي ارادوه. وبدلا من تحقيق خوف
البدو وتهدة عداؤهم للحكومة المركزية، جاء اغتيال الاتراك للشيخ
صفوق لمجرد توسيع شقة الخلاف بين الطرفين.

واذا نظرنا الى ابعث من حوادث سنة 1847 نجد ان العقدين اللذين
عقبوا موت صفوق وقدم مدحت باشا واليا لبغداد سنة 1868 ربما كانا
من انسب وأهم العهود في العلاقات بين البدو والاتراك في ولاية بغداد²
ففي هذا العهد بدأ الاتراك بوضع الخطوط الغامضة لسياسة عشائرية
منتظمة غايتها الحد من غزوات شمر وسائر القبائل البدوية³. وفي

¹ وزارة الخارجية 272/195 بغداد راولنسن الى كرولي رقم، 19، 1847/10/27.

² علي حيدر مدحت: مدحت باشا حياته وعمله (باريس 1908) ص 14-27.

³ البرتين جويده: مدحت باشا ونظام الاراضي في العراق الاسفل (في مجلة شؤون الشرق

هذه الخطة عامل الاتراك البدو وكانهم مجرد متوحشين يجب ازالتهم من الولاية.

هذه السياسة الشديدة حلت محلها شيئاً فشيئاً طريقة اكثر تعقيدا للتعامل مع العشائر البدوية. يضاف الى ذلك ان في عقدي الخمسين والستين من القرن التاسع عشر شرعت الفنون الحديثة (التكنولوجيا) بتأثير اثرها في العلاقات بين الاتراك والبدو. كيف استعمل الطرفان هذه التجديدات الفنية ؟ ذلك ما يقدم احدى المشاكل الرئيسية في تحليل الصلات الشمرية - الحكومية. ويجب الاشارة هنا الى انه حدثت خلال نفس المدة عدد من التغييرات في داخل عشيرة شمر.

الاطوسط، رقم 3،المحرر البرت حوراني ((وثائق سنت انطوني رقم 16 (كربونديل، بلا تاريخ) ص112-114.

المواقف بين الاتراك وشمر

نعود الى احداث اواخر سنة 1847 لنجد نجيب باشا يتمتع بوضع قوي بعد اغتياله لصفوق بن فارس. لا ريب ان نجيب باشا قد اعتقد انه خفف من انتقاد الباب العالي حول اعترافه السابق بصفوق كرئيس اعلى لشمر وقيام صفوق بعد ذلك بالعصيان على المحسن اليه¹. وفي الوقت الذي قضى نجيب باشا على احد خصومه الكبار فهو دون ان يشعر سمم علاقاته بسائر العشائر البدوية. كان الرأي العربي في اوائل عقد الاربعين يعتبر الموظفين الاتراك في ولاية بغداد رجالا خونة لا يوثق بهم.

كانت مواقفهم بلا ريب متأثرة بمثل هذه الاعمال كأغتيال الشيخ سليمان غنام رئيس العقيل من قبل الاتراك في اوائل الاربعينات. وقبل سنة 1847 فورا ابدى الرأي العربي تحسنا ملحوظا عن الاتراك. فالمعاملة الحسنة لزعميين كرديين ثائرين، بدرخان بك امير بهتان وحليفه محمود خان امير موك، كما يظهر، دعت الى هذا التقدير. لكن بقتل الشيخ صفوق وثر نجيب باشا مرة اخرى ولاء العرب تجاه

¹ وزارة الخارجية 272/195 بغداد، راولنس الى كانغ، رقم 19 في 1847/10/27

سادتهم الاثرالك¹.

لا شك ان شمر رأت صفوق مذنباً بانتهاكه حرمة العرف
الاساسي البدوي باغتياله ضيفه الشيخ نجرس بعد ان اعطاه صاك
الامان². وقد اثارَت خيانة صفوق رد فعل شديد بين اتباعه الشمريين
فضلا عن العشائر البدوية الاخرى. في عرفهم كان الشيخ المهان
يستحق نفس النهاية الخيانية التي اوقعها بالشيخ نجرس. لكن نفس
هؤلاء البدو خالفوا قيام نجيب باشا بايقاع نفس العمل. فبصفته الممثل
الظاهر لسلطة الدولة جاء الاستياء من عمله كاغتصاب لا داعي له
لحقوق شمر³.

¹ كالسابق.

² لايارد، نينوى (2)ص.

³ وزارة الخارجية 272/195 بغداد، راولنس الى كانغ رقم 19، 27/10/1847.

التحزب داخل العشيرة

بالإضافة الى سياسات نجيب باشا الاستغلالية حدثت أزمة رئاسة لشمر الجرباء بعد مقتل صفوف فمئحت العشيرة من ادراك قوتها الكامنة بتمامها خلال العقدين التاليين من السنين¹. فطبيعة العشيرة البدوية اذا انقسمت الى عدد من الافخاذ، وكل فخذ له شيخ خاص، واقترن ذلك بالتحاسد البدوي المتواجد، تجعل من العسير جدا" الاحتفاظ بوحدة العشيرة.

ان وجود رئيس عام قدير يمتلك شخصية بارزة وبسالة حربية واحترام ابناء عشيرته يستطيع ان يسيطر على التنافسات الداخلية الى حد ما لكن حتى الرئيس المثالي، كما كان صفوف في ايام شبابه، يجد منصبه في احيان كثيرة موضع التحدي من رؤساء افخاذ مختلفين لكن صفوف نجح في توطيد وحدة شمر الى وقت قليل قبل وفاته. ولأجل ان تبقى العشيرة قوية لا بد ان يرأسها زعيم متسلط. وهكذا اثبتت الزعامة القبلية القوية انها العامل الاساسي في الحفاظ على قوة شمر خلال القرن الذي عقب سنة 1850². وآل محمد وهي الاسرة

¹ العزاوي تاريخ.

² ستين : شمر الجرباء ص 17-20.

التي اخرجت عادة رؤساء شمر الجرباء الكبار، اصبحت منشقة بعد وفاة صفوق. لم يكن احد ابناء صفوق يمتلك صفات ابيه ولذلك لم يستطع احدهم ان يحظى بدعم رجال شمر. كان فرحان، اكبر ابناء صفوق السبعة الاحياء، يمتلك على قدر الامكان افضل الصفات التي تؤهله للرئاسة العليا. وكان يتمتع بعلاقة متينة مع الولاة العثمانيين المختلفين وخدم اباه مدة طويلة كمساعده الوثيق¹. لكن فرحان استذوق ايضا "بعض نواحي الثقافة التركية باعدت عنه الكثير من رجال عشيرته البدوية"².

كان لسائر اولاد صفوق ايضا القابلية لتحدي فرحان في زعامة شمر. كان هؤلاء الاولاد عبد الكريم وعبد الرزاق وفارس ومعجون وعبد الرحمن وهذا³. ومثلما احدث قدم عبد الكريم ثاني ابناء صفوق اقوى تحدي لفرحان. كان عبد الكريم محاربا باسلا ومحباً للحياة البدوية في القنص والغزو فترأس جماعة قوية في الستينات من القرن التاسع عشر. وكانت نفسيته المتهيجة تضعه دائما على خلاف مع السلطات التركية⁴.

¹ لونغريغ: اربعة قرون من تاريخ العراق ص309.

² اوستن كهنري لايارد: اكتشافات بين خرائب نينوى وبابل (نيويورك 1853) ص 332.

³ فون اوبنهايم: البدو (الجزء الاول) ص 145-155.

⁴ بانث: البدو ص 226-235.

اما ابناء صفوق الاربعة الاخرون، وهم اصغر سنا¹ من اخويهم الكبيرين، فلم يؤثروا بصورة محسوسة في شؤون شمر الا في مدة متأخرة من القرن. والمنافسات، كهذه التي جرت بين ابناء صفوق كثيرا ما كانت تخل بوحدة العشائر البدوية. وشمر الجرباء، التي تمر لحسن الحظ بأزمة رئاسة خلال العقود الثلاثة من حكم صفوق، جوبهت فجأة بالحقائق الكالحة لهذه المشكلة القديمة. وبنتيجة ذلك انغمست العشيرة في المنازعات المرة والصراعات الداخلية التي دامت اكثر من خمسين سنة¹. وفقدان التماسك هذا اضعف شمر كثيرا².

لاول مرة منذ قدمت شمر الى الجزيرة توجد معلومات كافية عن هذه الفترة من الزمن لتشخيص الافخاذ المختلفة التي تؤلف العشيرة. في سنة 1850 بينما كان اوستن هنري لايارد عالم الآثار البريطاني الشهير الذي اصبح فيما بعد سفيرا لدى الباب العالي، يسافر خلال الجزيرة، سجل اقسام العشيرة كما يلي : (1) الخرصة (وتتضمن البريج، الفداغة، العليان، الغشم، الهضبة)، (2) عبدة، (3) الصايح (وتتألف من الصبحة والاصلم)، (4) الثابت، (5) العامود، (6) التجافغة، (7) آل غضا، (8) الحريرة، (9) الغفيلة، و (10) الزميل². وكل فخذ ينقسم ايضا الى عدد من الوحدات الصغرى ولكل واحدة رئيس الاسرة.

¹ فون اوبنهايم: البدو (الجزء الاول) ص 144-148.

² لايارد: بابل ص 260.

وهؤلاء الرؤساء ينتخبون واحدا منهم زعيما لمجموعتهم. وكل الافخاذ هاجرت الى الجزيرة من نجد. وفي منتصف القرن التاسع عشر، حين كملت هجرة شمر الجرباء نسبيا"، ضمت القبيلة نحو عشرة افخاذ. ان الفخذ الواحد كانت تعوزه القوة الكافية للسيطرة على المنطقة. ولذلك كان لا بد لشمر الجرباء من التماسك بغية اثبات قوتها ونشر سطوتها الشاملة. وهذا التماسك يرجع الى زعامة عشائرية مركزية قوية يتولاها آل محمد المعروفين عموما" باسرة الجرباء. وحصل آل محمد على قوتهم ونفوذهم من حقيقة ان الشيخ مطلق الزعيم المشهور قاد شمر الى خارج نجد الى العراق خلال حروب الوهابيين في نهاية القرن الثامن عشر. وبنتيجة صفات القيادة التي امتاز بها هو واعضاء اسرته الذين خلفوه، استمرت اسرة مطلق على ترأس مقدرات القبيلة برمتها¹.

من الناحية النظرية يمكن لرئيس أي فخذ ان يتزعم القبيلة بشرط ان يحظى بالاحترام اللازم والولاء العسكري. لكن الحقيقة ان شيوخ العشيرة المهمين في القرنين التاسع عشر والعشرين خرجوا من آل محمد. يضاف الى ذلك ان كل رئيس اعلى لشمر منذ سنة 1847 الى اليوم الحاضر جاء من سلالة صفوق بن فارس. ومع ان آل محمد لم يتركوا زعامتهم على شمر فان المنازعات على الرئاسة حدثت في

¹ العزاوي: عشائر العراق، الجزء الاول، ص131-132.

أحيان كثيرة. وكانت المنازعات تشمل في كل حين تقريباً الأخوة والأعمام وأولاد الأخوة وأبناء العم¹.

مع مراعاة رئاسة آل محمد، كثيراً ما حولت أفخاذ شمر ولأهـا من رئيس إلى آخر. كانت ثم اعتبارات مهمة متعددة تعين الرئيس الذي يتبعه الفخذ. وكانت في مقدمة القضايا التساؤل عن الرئيس الذي يستطيع تهيئة أفضل الفرص للغزو المربح. والعامل الآخر المهم في هذا الصدد هو أي رئيس يستطيع منع الحكومة المركزية من التدخل في شؤون العشيرة. والاعتبارات الأخرى تدور حول شخصية الرئيس وعدد المؤيدين له وثروته². وفي النتيجة كان شكل الولاء الذي يربط أفخاذ مختلفة برئيس شمر الأعلى تختلف حسب قوة الأفراد المختلفين من آل محمد ممن اتت بهم الظروف إلى زعامة القبيلة. وفي خلال السنين الطويلة برز شكل من الولاء في داخل العشيرة. وسيبحث في هذا الشكل على الوجه الكامل في الفصول التالية.

¹ مكي الجميل: البدو (بغداد 1957) ص 276.

² لا يارد: نينوى ص 124.

شؤون شمر والعثمانيين

1847 - 1851

بعد ان اغتال ابراهيم اغا الصفوق هرب فرحان بن صفوق من بغداد قاصداً "ديرة عنزة في البادية السورية"¹. ومع ان العشيرتين كانتا عدوين لدودين، فان أي فخذ او رجل من عنزة او شمر على خلاف مع عشيرته يستطيع ان يجد الامان لدى العشيرة الاخرى². وهكذا فر فرحان من غضب نجيب باشا ونفس عشيرته التي حاولت قتله في الثأر لاغتيال الشيخ نجرس.

في كانون الاول 1847 بعد نحو شهرين من موت الشيخ صفوق، بقيت شؤون شمر الداخلية مرتبكة. وهذا النزاع الداخلي افضى الى غارات متتابة نشرت الفوضى في قسم من الجزيرة. ولما كان نجيب باشا لم يستطع تأمين الامن بين افخاذ شمر المتمردة بالقوة العسكرية فقد رغب ان يسيطر عليها بوسائل اخرى. استعمل الخطة التقليدية للتفريق والتغلب واعترف بالشيخ عودة رئيساً "اعلى معيناً" من

¹ وزارة الخارجية 272/195 بغداد، راولنسن الى كاننغ، رقم 19، 27/10/1847.

² لا يارد: بابل ص 260.

الحكومة¹.

استمرت المنازعات داخل العشيرة طول سنة 1848. وغارة كبرى من جانب عنزة في ربيع تلك السنة اوقفت المعارك الداخلية المستمرة في شمر². كان يقود عنزة اثنان من الزعماء المحنكين في الغارات السابقة هما ادهم بن جحيش وابن هذال، فعبرت من البادية السورية الى الجزيرة. وما ان تمكنت من الاتصال بشمر في الجانب الشرقي من الفرات حتى بدأ الغزو بسرعة. وحسب المعتاد كان الزراع المتوطنون وسكان القرى الصغيرة والقوافل المارة بالمنطقة هم الذين تحملوا اعظم الضرر في اثناء القتال³.

في امل ان يستفيد من الاحوال المضطربة في الجزيرة، قدم نجيب باشا دعمه لعنزة واعاد تعيين فرحان بن صفوق، وفرض ضرائب ثقيلة على المزارعين. ولما يصبح ضغط الضرائب اثقل مما يحتمل فان كثيرا ما كانت العشائر وحتى المناطق برمتها تتور على الحكومة⁴. وقد استطاع نجيب باشا بطريقة ما ان يجمع ثروة خلال اشغاله منصب الوالي بفرض الضرائب الباهضة على اهالي العراق. وخططه

¹ وزارة الخارجية 301/195 الموصل، رسام الى كاننغ، رقم 24، 15/5/1848.

² كالسابق.

³ وزارة الخارجية 301/195 الموصل، رسام الى كاننغ، رقم 38، 30/10/1848.

⁴ باثر: التزام (المعلمة الاسلامية) المجلد الثالث ص 1154-1155.

الاستغلالية اثرت تأثيراً "محسوساً على منطقة الهندية جنوبي بغداد حيث خمنت الضريبة السنوية قانونياً" بمبلغ 17800 ليرة. وفي سنة 1849 اعطى نجيب باشا تلك الناحية بالالتزام الى الشيخ وادي رئيس قبيلة زبيد الذي رفع الضريبة اعتباطاً الى 105000 ليرة¹.

ادت مضاعفة الضريبة خمسة اضعاف الى ثورة عشائر الهندية المسالمة عادة وطرده الشيخ وادي البغيض الى خارج المقاطعة. وخفض نجيب باشا ايضاً "فعاليته كوالي حين ألقى تسوية سلمية بين عبدي باشا قائد الجيش في ولاية بغداد والعشائر الثائرة. وفي الوقت نفسه تمردت شمر مرة اخرى تحت رئاسة الشيخ عودة ونشرت الفوضى التي اعتادت عليها على جانبي نهر دجلة².

في اعقاب نزاعه العلني مع عبدي باشا، فقد نجيب باشا منصب الولاية. وقد قام الباب العالي في امل تفادي الصعوبات المالية التي اخلت بالعراق على عهد الوالي السابق، بمنح عبدي باشا زيادة كبيرة في راتبه³. كلف الوالي الجديد بدون تعقل قوة عسكرية كبيرة لاختضاع العشائر المتمردة في المستنقعات الغربية، وقد امل ان يسيطر على العشائر الثائرة باقامة سد على رأس شط الهندية لقطع تجهيز الماء عن

¹ لوريمر: الجغرافية، الجزء الاول، أب، ص 1361-1362.

² وزارة الخارجية 301/195 الموصل، رسام الى كاننغ رقم 3، 1848/11/19.

³ لوريمر، الجغرافية، الجزء الاول، أب، ص 1361-1362.

هذه المنطقة الضحلة. انتهى المشروع بالفشل حين تدفقت سيول الماء واكتسحت سداده العديدة¹. وبنتيجة تحمس عبدي باشا المفرط ضعف الهدوء ضعفا شديدا في المنطقة. وحين نشب تمرد كردي في شمال شرقي العراق في اوائل 1851، اسرع الوالي بارسال معظم قواته النظامية لمعالجة الوضع. وبينما كان الجيش التركي يطارد الاكراد الناهبين انتشر عصيان العشائر في العراق الجنوبي. وفي هذه الازمة اليائسة التفت عبدي باشا الذي لم يكن لديه سوى قوات حكومية قليلة، الى الشيخ فرحان طالبا "مساعدته"².

طلب الوالي من الشيخ فرحان ان ياتي برجال عشيرته الى العراق الجنوبي لتأديب القبائل العاصية. وشمروا التي كانت دائما على استعداد للعمل، اسرعت الى المنطقة جنوبي بغداد وبدأت تغزوها بدون تمييز. جذب اهتمامها الخسيس الصديق والعدو. وسبب هذه الغارات هو ان عبدي باشا قعد عن تجهيز الشمريين وعوائلهم بالمؤن الكافية، فقامت شمروا باحثة عن الطعام بغزو العديد من مخازن الحبوب على جانبي الفرات. وتحملت الحلة خصوصا الدمار من هذه الغارات³.

¹ كالسابق.

² وزارة الخارجية 334/195 بغداد، كمبال الى كاننغ، رقم 41، 20/11/1850.

³ كالسابق.

شعر رجال شمر ان عبدي باشا غير قادر على وقف نشاطاتهم فنهبوا الانحاء من بغداد على طول الخط الى اسفل الكوت. وقد تفاقت هذه الاعتداءات حتى حدا الامر بعبدي باشا في النهاية ان ينكر اتفاهه التام مع شمر. وشعر فرحان ايضا انه مني بالخيانة فتنصل من تفاهمه مع عبدي باشا. وحتى لو اراد فرحان ان يوقف الغارات غير المسموح بها لما استطاع السيطرة على رجال عشيرته شمر¹.

اثبتت نتائج اول محاولة لاستخدام شمر كجنود نظاميين على انه، لكي يكونوا فعالين، يجب ان يسيطر عليهم بصورة وثيقة. وقد تعلم عبدي باشا لاسفه ان الاستفاة الفعالة من المساعدين البدو يجب ان يراعى فيها : (1) يجب ان لا تصحبهم عوائلهم الى المعركة، (2) يجب ان يجهزوا بالمؤن، (3) يجب منع غزواتهم منعاً صريحاً².

خلف نامق باشا عبدي باشا واليا لبغداد سنة 1852. مثل الكثيرين من اسلافه كان الوالي الجديد يعتقد ان القوة العسكرية تحل جميع الصعوبات العشائرية. وبعمله الشديد وسلوكه القاسي ازاء زعماء عشائريين مختلفين، حرض نامق باشا مرة اخرى العشائر الجنوبية على الثورة. اعلن وادي بك شيخ زبيد الحرب على الباشا الجديد واتخذ مقره

¹ وزارة الخارجية 334/195 بغداد، كمال الى كانفغ، رقم 1850/12/18، 50.

² كالسابق.

في المسيب على الفرات. وقد انضم اليه رجال من عشائر الدليم وعنزة، فقامت زبيد بالتهب حسب مشيئتها، وحولت انتهاكاتها العراق الجنوبي مرة اخرى الى صحراء قاحلة. جوبه نامق باشا مثل سلفه بمشكلة اعادة الامن فلم ير بدا من استدعاء الشيخ فرحان¹.

علم فرحان بموقف نامق باشا الضعيف فأمده تلبية لطلبه بـ 2000 محارب شمري. وعلى غرار ذلك كان نامق باشا يعلم بسوء تصرف شمر سنة 1850 حين استخدموا من قبل كمساعدين، وقد حاول منع اعادة تلك الصعوبات. وفي هذه المرة اوعز الى شمر بترك عوائلهم في الجزيرة الشمالية².

اعد فرحان رجال عشائره لمسيرة سريعة نحو جنوب العراق. ومع ان شيخ شمر قد رغب، ولا ريب ان يساعد الوالي المطوق، فان رجال عشيرته خططوا لاستغلال احوال الفوضى في جنوب العراق لشن غاراتهم الخاصة. وخطط فخذ الزيدان ايضا لانقاذ الشيخ سميط. زعيمهم المسجون، الذي حبس في السجن ببغداد منذ سنة 1851. وكانت النتيجة ان نامق باشا لم يحصل الا على مساعدة ضئيلة من شمر في القضاء على التمرد في جنوب العراق³.

¹ العزاوي: تاريخ العراق الجزء السابع ص 97.

² وزارة الخارجية 367/195 بغداد، كمبال الى كاننغ، 26/4/1852.

³ كالسابق

خلال السنوات المضطربة في اوائل واواسط الخمسينات (من القرن التاسع عشر) اخبر المسافرون والقناصل الاوربيون ان ولاية بغداد باسرها تقريبا قد قاست الامر من فقدان السيطرة الادارية الناجحة¹. وكانت المشكلة المستعصية عن السيطرة على العشائر العربية المخلة بالامن مصدر ازعاج لكل الولاة. وكما شرح سابقا، نبعت تمردات العشائر في القسم الجنوبي من الولاية خصوصا تمردات المنتفق وعشائر زبيد من الضرائب المرهقة. وان القضاء على العسف الاداري كان من شأنه معالجة هذه المشكلة.

غير ان مشكلة السيطرة على العشائر البدوية كشمز كانت اشد تعقيدا. فخلفا للعشائر الزراعية المتوطنة في جنوب العراق، كانت طبيعة البدو تتطلب من رجال العشيرة ان يثبتوا شجاعتهم في غارات الغزو المتكررة بسبب هذا الشكل الطبيعي لم يكن في استطاعة الحكومة ان تصلح أي تعسف مثل الضرائب الفادحة، وتتوقع من البدو ان يوقفوا غاراتهم.

على اثر موت الشيخ صفوق سنة 1847 حاول كل وال عثماني ان يسيطر على العشائر البدوية المتمردة بمجرد قوة السلاح لكن الجيش العثماني اخفق في دحر العشائر البدوية القوية لانه كان صغيرا ولا

¹ راجع لايارد: بابل ونيوى، و ك لوفنس: رحلات وبحث في بلاد كلة. وشوشن(لندن 1857)، هرمزد رسام: آشور وبلاد نمرود (نيويورك 1897).

يملك التدريب الكافي. كانت الاعمال القاسية لهؤلاء الولاية على اختلافهم، وقد استبدت بهم فكرة مقابلة القوة بالقوة، تغيظ رؤساء البدو مرة بعد اخرى. بدلا من التعامل مع الرؤساء كرجال اشراف، كان الموظفون العثمانيون يعاملونهم بشدة واحتقار كأنهم منبوزون وثوار فيهينون مشاعرهم البدوية. وقد قال احد الموظفين البريطانيين يصف سياسة نامق باشا العشائرية بانه :

((بأعمال قسوة لامبرر لها ابدا... يثير رؤساء العشائر واحدا فواحدا، حتى ليتجمعوا في اتحاد معاد للحكومة. ومنذ ذلك الحين، باظهاره احيانا ضعفا عسكريا، وبقبوله في اوقات اخرى اساليب الخيانة ومواقف الشدة في الكلام طول الوقت مع العالي في السلوك مما هو لبدو الصحراء الشيء الذي لايمكن تحمله فيصبح اهالي الولاية العرب في حالة من الانزعاج والسخط الشديد حتى ليستلزم الامر قوة 50000 رجل لاخلاد المعارضة واعادة الهدوء))¹.

هبط مستوى الامن في الولاية من 1853 الى 1856 حين ارسلت ولاية بغداد عددا كبيرا من القوات للقتال في حرب القرم² في سنة 1856 بدأت احوال الاتراك في العراق في دركها الاسفل. في

¹ وزارة الخارجية 367/195 بغداد كمبال الى الماسبري، رقم 14، في 1852/1/20.

² رسام: آشور ص42.

السياسة العشائرية الفاسدة القائمة على جنون مزدوج من القوة التي كانت دون الكفاية ومن الحكمة الادارية الضعيفة الزائدة عن اللزوم، قد دمرت ولاية ذات قابليات غنية. كما عبر عنها القنصل البريطاني العام: (لا يكاد يوجد ميل واحد من هذا الفضاء الواسع خارج الحدود القريبة للمدن الكبرى يمكن ان يقال فيه انه تحت السيطرة الحقيقية للسلطات التركية).¹

¹ كالسابق.

نتائج رئاسة شمر العاجزة

ان سنوات السيطرة الحكومية الادارية والعسكرية الضعيفة كان يمكن ان تهئ فرصة طيبة لشمر الجرباء لمد قوتها ونفوذها لكن مشاكل شمر الداخلية منعته من الاستفادة من هذه الفرصة الذهبية. لاجل ان تستطيع العشيرة استغلال ضعف العثمانيين كان يجب ان تكون لها زعامة عشائرية قوية مكافحة فمثل هذا التوجيه كان يحتمل ان يزيد ايرادات العشيرة بفرض مدفوعات "خاوة" اعظم على العشائر والبلدان المجاورة. ولكن لسوء حظ العشيرة لم يظهر فيها زعيم قوي ليرث تراث صفوق بن فارس.

تسّم الشيخ فرحان، اكبر ابناء صفوق ومساعد الموثوق به، منصب الزعيم الاعلى، لكنه لم تكن لديه الصفات التي جعلت من والده رئيسا ناجحا. لم يكن فرحان يملك فصاحة والده وبراعته في اللغة العربية ولا شجاعته في المعارك. ولاشك ان حقيقة عدم قيامه في أي وقت بشن غارات على الاتراك او على العشائر الاخرى احبطت جاذبيته كزعيم بدوي¹.

يظهر فرحان بن صفوق من المصادر المعاصرة انه رجل

¹ لا يارد: بابل ص 322.

حضيف حاول ان يحافظ على علاقات ودية مع رجال عشيرته ومع منافسيه الحكوميين. نبع شعوره المعتدل وعدم ميله نحو الحياة البدوية المتسمة بالغزو واصطناع الشجاعة من عاملين، اولاً، جاءت امه من بغداد، خلافا لعادات البدو. ثانياً، حينما كان صبياً رافق فرحان والده الى الاستانة حيث تشرب بالثقافة التركية. هذان العاملان كلاهما حالاً دون فعاليته كرئيس لشمر¹

ان مشاركته الوثيقة مع والي بغداد والموصل اضعفت أكثر من ذلك مقدرة فرحان لتوحيد القبيلة. عدا عدة فترات قصيرة من عدم الحظوة، كانت الحكومة تدعم فرحان كزعيم شمر المفضل لديها بعد تنصيبه رئيساً اعلى سنة 1846. ومقابل دعم الحكومة كثيراً ما اعاد فرحان البضائع المنهوبة ومنح عونه لتأديب افخاذ شمر المتمردة². وضع فرحان تعاونه الوثيق مع والي بغداد على اساس اعتبارين عمليين :

- 1- بصفته رئيساً اعلى كان يقبض راتباً حكومياً شهرياً من شأنه المحافظة على ولاء افخاذ مختلفة من شمر.
- 2- استعمل منصبه الرفيع كرئيس اعلى مؤيد من الحكومة لزيادة جاذبية رئاسته المحدودة. وقد اقر فرحان بمشاكل رئاسته سنة

¹ بلنت: البدو ص 376.

² رسام: آشور ص 42.

1850 حين اعترف بعدم تمكنه من توحيد عشيرته المنقسمة على نفسها¹.

عدا فقدانه شخصيا لصفات الزعيم المتوهج فان التناذب داخل العشيرة الناشئ عن اغتيال الشيخ نجرس سنة 1847 منع فرحان ايضا من توحيد شمر. فالافخاذ التي ايدت نجرس رفضت اتباع الشيخ فرحان بسبب تورطه غير المباشر في الغيلة الخيانية. وتورط الشيخ ايضا اغاظ الافخاذ التي ايدت نجرس².

هذه الاعمال اغاظت فخذ الزيدان الذي ايد نجرس ضد الصائح فخذ حجر. يضاف الى هذا التنافس داخل العشيرة الدسائس المستمرة لشيوخ اخرين من شمر ضد فرحان التي جعلت من العسير عليه ان يوحد العشيرة³. وبمرور الوقت قدم عبد الكريم بن صفوق الذي تمتع بشهرة متزايدة بسبب حبه للغزو وعداوته للسلطات العثمانية اعظم تحد لمنصب فرحان في رئاسة العشيرة وخلال عقد الخمسينات جلب فخذ عبدة القوي تحديا ثانيا لرئاسة الشيخ فرحان العليا⁴.

بين سنة 1853 و1856 شنت افخاذ شمر المختلفة غارات

¹ لايارد: بابل ص 322.

² وزارة الخارجية: الموصل، رسام الى بلور رقم 21، 22/12/1862.

³ رسام: آشور ص 45.

⁴ كالسابق.

صغيرة. ولاشك ان هذه الحوادث لاتستحق الذكر تفصيلا، لكنها كمجموعة ولدت حالة مستمرة من الخلل في امن الجزيرة. وقد اتجهت السياسة الحكومية الى الشيخ فرحان للسيطرة على افخاذ عشيرته بغية وقف غاراتهم على انحاء الجزيرة المستوطنة. لكن بالنظر الى شعبيته المحدودة لم يستطع الشيخ فرحان ان ينفذ طلبات الحكومة، واستمرت غارات شمر بدون رادع. القوافل والمسافرون والزراع المتوطنون والعشائر البدوية الرحالة الضعيفة - كلها كانت ضحايا لابتزازات شمر. ولم تكن الاحوال المختلفة في الجزيرة مثلا بمعزل عن اخفاق الحكومة في السيطرة على العشائر العربية. والحقيقة ان اغلب انحاء ولاية بغداد قاست نفس الصعوبة¹

¹ وزارة الخارجية 304/195 الموصل، رسام الى روز رقم (1) في 1853/1/3. رسام : آشور ص 45.

شؤون شمر والعثمانيين

1861-1857

ان قلة القوات العسكرية خلال حرب القرم عاقت جهود محمد رشيد باشا للمحافظة على السيطرة على الارياق العراقية¹. لكن لما انتهت الحرب سنة 1856 شرع العثمانيون بالاهتمام بمشكلة العشائر الرحالة بطريقة اكثر تنظيماً شيئاً ما وبصورة دائمة. وقد تركزت سياستهم الجديدة على فكرتين : (1) انشاء قوة عسكرية اقوى لقمع تمرد العشائر، و (2) استخدام الفنون التكنولوجية الحديثة لتحديد مزايا البدو التقليدية في المواصلات والتنظيم. ومع ان هذه كانت خطوة في الاتجاه الصحيح فان السياسة العثمانية الجديدة انما مثلت مرة اخرى النظرة التقليدية السلبية، وهي فرض القصاص وليس منح المكافآت والمغريات الملائمة للبدو لاجل وقف غاراتهم. وهكذا منذ 1856 الى سنوات الستين المتقدمة حاول ولاة بغداد السيطرة على شمر عن طريق التاديب العسكري.

شعر العثمانيون ان بدو الجزيرة يؤلفون ناحية واحدة فقط من المشكلة العشائرية العراقية فوضعوا منهاجاً واسع الاساس للسيطرة على

رعاياهم المتمردين. كانت عشيرة عنزة القائمة ديرتها غربي نهر الفرات اول هدف لهذه السياسة الجديدة. حاول العثمانيون ان يصدوا هذه العشيرة المزعجة بالقوة العسكرية، فبدأوا باعادة السيطرة على طريق القوافل بين حلب وبغداد الذي يساير نهر الفرات. واستعملت دير الزور التي في منتصف الطريق تقريبا بين حلب وبغداد نقطة انطلاق منطقية للسيطرة على عنزة².

لاجل ضمان استمرار الادارة اصبحت دير الزور سنجقا مستقلا في ايالة (ولاية) حلب سنة 1854. وبعد سنة من حملات عشائرية غير ناجحة، حل يوسف باشا، الموظف الحكومي، محل الحاكم المدني يوسف بك شريف³ وقد شيد يوسف باشا خلال مدة حكمه حصنا قويا شن منه حملات ناجحة متعددة على عنزة. وفي السنوات التالية ساعدت حصون اخرى شيدت على طول طريق حلب - بغداد على السيطرة على العشائر العربية الثائرة¹.

استفاد رشيد باشا من خبرة يوسف باشا في دير الزور فانشأ عدة اصلاحات في العراق كان الهدف منها تحسين السيطرة على العشائر العربية. اعاد والي بغداد باوامر مباشرة من الاستانة، تنظيم قوات

¹ العزاوي: تاريخ العراق (الجزء السابق) ص 107-108.

² وزارة الخارجية 377/195 بغداد، كمبال الى ستراتفورد دي ريد كليف، 1858/2/15.

³ الويس موسل: الفرات الاوسط: سفرة طوبوغرافية (نيويورك 1927) ص 3.

الولاية العسكرية هيا (النظام الجديد)، كما يفترض، للوالي جيشا قويا. وفي سنة 1857 استعمل والي بغداد عدة بدع تكنولوجية ليصد تفوق البدو في حركتهم وتماسكهم العشائري ومقدرتهم على القتال. وادخال سفن المدافع على دجلة في السنوات الخمسين الاخيرة (من القرن التاسع عشر) احبطت فورا مقدرة شمر في الغارة على السفن التجارية التي تسير في النهر بين بغداد والموصل².

مزية تقليدية عسكرية بدوية اخرى، وهي المباغثة، اخذت تضمحل بانشاء اسلاك البرق سنة 1861. فخلال سنوات حالت المواصلات البطيئة دون شن العثمانيين حركات عسكرية منظمة على نطاق واسع ضد شمر. بادخال البرق (التلغراف) اصبح في الامكان تنظيم هجوم عسكري يستخدم جنودا من حلب واورفة وماردين وديار بكر والموصل وكركوك. وهكذا في اواخر سنوات الخمسين لم تواجه شمر ارادة اقوى للسيطرة على العشائر العربية المتمردة فحسب بل واجهت لأول مرة تحديا من جانب جيش افضل تنظيما يمتلك اسلحة محسنة ومواصلات ممهدة³.

¹ العزاوي: تاريخ العراق (الجزء السابع) من 122/120.

² لونغريغ: اربعة قرون من تاريخ العراق ص 293-294.

³ وزارة الخارجية 521/195 بغداد، كمبال الى بلور رقم 8، 26/2/1862.

تغير العلاقات بين العثمانيين وشمر

1858-1857

استفاد رشيد باشا وخلفه عمر باشا من تلك الوسائل الجديدة فحاولوا وقف تخريبات شمر. ولأجل تحقيق هذه الغاية عينوا الشيخ فرحان مسؤولاً عن أعمال عشيرته. ومع ان فرحان كان في السابق مسؤولاً عن سلوك شمر فقد ادعى ان عدم مقدرته على توحيد العشيرة منعتهم من وقف غارات شمر العديدة¹.

خلال هجرة شمر الى الشمال في شباط 1857 اقنع رشيد باشا الشيخ فرحان بزيارة بغداد حيث بحث في الشؤون العشائرية مع السلطات التركية. وفي اثناء هذا الاجتماع حث رشيد باشا الشيخ فرحان على توقيع اتفاق تحريري يلخص مسؤولياته بصفته رئيساً اعلى معيناً من الحكومة².

نص هذا الاتفاق على المقابلة بالمثل بين الشيخ فرحان ورشيد باشا. ان مجرد فكرة دخول موظف عثماني في اتفاق يفترض انه يكون ملزماً مع رئيس بدوي تدل على تغيير محسوس في الموقف. قبل اعوام

¹ رسام: آشور ص 45.

² وزارة الخارجية 521/195 بغداد، كمبال الى ستراتفورد دي ريد كليف.

قليلة كان القمع عن طريق العمل العسكري هو الذي يكون السياسة الحكومية الوحيدة الملائمة ضد (البلاء البدوي). وهكذا للمرة الاولى نرى واليا عثمانيا يمنح شمر عرضا منصفيا بعيد المدى. وهذا الاتفاق على التعيين نص على وضع قوة مؤلفة من خمسمائة جندي حامل بندقية فتيل تحت اوامر رئيس شمر الاعلى وهؤلاء الجنود، ولو انهم يدفع العثمانيون رواتبهم ويجهزونهم، يقيمون مع شمر¹.

مقابل جنود الحكومة وافق فرحان على السيطرة على غارات شمر بدون تمييز. ومعنى هذه المسؤولية الجديدة ان فرحان كان عليه ان يوقف استيفاء " الخاوة " (الاتاوة) ويتنازل عن اتاوات القرى ويبدأ باسترجاع الممتلكات المنهوبة. وقد علم رشيد باشا ان وقف استيفاء الخاوة والغزو يؤدي الى هبوط ايرادات شمر فزاد راتب الشيخ فرحان الشهري. ومع ان هذا الاتفاق المعقد قد انهار، كما يظهر، في السنة التالية فانه بالرغم من ذلك قد سجل بداية جديدة في العلاقات بين العثمانيين وشمر².

في اعقاب اتفاق سنة 1857 بين رشيد باشا وفرحان ادخل عمر باشا خلف الوالي السابق، مشروعا اخر للسيطرة على شمر الغازية. لقد ساءه ان يكون عليه ان يدفع الى شمر شهريا راتب " ابتزاز " فخطط

¹ كالسابق

² كالسابق.

عمر باشا لتقوية الشيخ فرحان باعطائه مفرزة دائمة قوامها ثلاثمائة محارب خيال شمري مؤيدين باموال الحكومة. يقود هذه القوة رؤساء عشيرة شمر ويقبضون رواتب مماثلة لضابط تركي من نفس الرتبة. ومقابل مؤنهم وخبولهم ورواتبهم الشهرية يتولى هؤلاء الجنود غير النظاميين القضاء على نشاط العشائر المتمردة في انحاء الولاية. والغرض من هذه القوة ان تحقق هدفين : (1) لقد اعطت الشيخ فرحان سلطة السيطرة على افخاذ شمر العاصية، و(2) خلقت قوة اضافية يمكنها ان تساعد والي بغداد على تامين الامن¹.

والحقيقة ان خطط رشيد باشا وعمر باشا لم تكن الحل الكامل لوقف غارات شمر لكنها مثلت تحولا كبيرا في السياسة العشائرية العثمانية السابقة. واهميتها الاولى تقع في حقيقة ان الحكومة العثمانية للمرة الاولى قدمت الى الشيخ فرحان اتفاقا منصفيا شيئا ما وعلى اساس المقابلة بالمثل ، وقد مضى الوقت الذي كان يعامل شمر به كمجرد دود يجب محقهم²

بعد امد قصير من عقد اتفاق 1858 واصلت الحكومة معاملتها الودية للشيخ فرحان اذ عهدت اليه مسؤولية حراسة خط البرق الممدود حديثا الذي يمر بديره شمر من نهر الخابور الى الزاب الاكبر.

¹ وزارة الخارجية 577/195 كمبال الى سترا تفورد دي ريد كليف، رقم 8، 1858/2/4.

² وزارة الخارجية 673/195 بغداد، كمبال الى بلور، برقية رقم 2.

وقبض الشيخ فرحان لقاء خدماته مكافأة شهرية قدرها 3600 قرش او
مايساوي تقريبا راتب 30 خيالا غير نظامي. واتفاق خط السبرق،
كالمشروعين السابقين ولو انهما لم يكونا نافذين في المدى الطويل،
سجل مع ذلك تغييرا في السياسة العشائرية العثمانية.

عهد غموض 1860 – 1862

بعد 1860 لقيت شمر نوعين من الاعمال العثمانية لوقف غارات العشيرة :

(1) التهديد بعمل عسكري مباشر اصبح ذا معنى متزايد بسبب الاصلاحات التنظيمية والتجديدات التكنولوجية المدخلة في سنوات الخمسين الاخيرة. فالتحصينات العسكرية على طول نهر الفرات، والنظام الجديد، والبرق، وسفن مدافع اخرى على دجلة، كلها عززت القوة العسكرية العثمانية.

(2) الضغط غير المباشر، يجعل الشيخ فرحان مسؤولاً عن سوء تصرف العشيرة واعادة الاموال المنهوبة. وبنتيجة ذلك دارت العلاقات بين شمر والعثمانيين من 1860 الى 1868 حول جهود الحكومة المدبرة للسيطرة على شمر وكفاح العشيرة للاحتفاظ بمزاياها البدوية التقليدية.

لاجل تخفيف غارات شمر، ولو على مقياس ضئيل، كان لا بد من ايجاد جيش عثماني اكبر. ولكن في سنة 1860 لم تكن اصلاحات الحكومة العسكرية التي تمت في عهد رشيد باشا وعمر باشا قد جربت في ميدان الحرب. ومثال ذلك التجديدات التكنولوجية، كالبرق

وبوآخر دجلة التي تشرّد بصورة محسوسة قوة الحكومة المركزية، لم تستعمل من قبل ضد شمر. لذلك حين تسلم نامق باشا منصبه واليا لبغداد سنة 1861 لم يرث سوى سياسة عشائرية غير مجربة. والشيخ فرحان اكثر من نامق باشا، شغل موقفا غير واضح سنة 1861¹.

شعر فرحان ان موقفه كرئيس اعلى صدر اولا من اعتراف الحكومة وليس من اغرائه ومقدرته الشخصية كما كان الامر الاعتيادي بين زعماء البدو، فواجه لذلك مهمة تكاد تكون خارج الامكان في السيطرة على افخاذ شمر المختلفة. يضاف الى ذلك ان منافسات عديدة داخل العشيرة، كما سبق لنا الاشارة اليها، عقدت اكثر واجب فرحان في الاحتفاظ بدعم الحكومة. خلال هذه المدة زادت (شعبية) الشيخ عبد الكريم وهيأت تحديا متزايدا لزعامة فرحان².

كانت المسألتان العسيرتان على التدقيق اللتان يتوقف عليهما مستقبل العلاقات بين العثمانيين وشمر : (1) الاثر الفعال للاصلاحات العثمانية، و (2) جاذبية زعامة الشيخ فرحان، وقد جاء الجواب عليهما سريعا. مع ان فرحان قد حاول تقييد نشاط شمر في الغزو فانه اخفق في نهاية الامر في تنفيذ هذا الجزء المهم من اتفاقه مع

¹ العزاوي: تاريخ العراق، الجزء السابع ص 134-138.

² كلمان هوارت: تقرير عن عشائر العراق العربية (في المجلة الاسيوية الفرنسية، سلسلة 13، 7 (1878) 215-240.

الحكومة. وقد حدثت نقطة تحول رئيسية في العلاقات بين شمر والحكومة في سنة 1861 حين ساعد الشيخ فرحان واخوه عبد الكريم يصحب كل منهما الفخذ التابع له، باشا (متصرف) كركوك. فقد كانت عشيرة العبيد، عدوة شمر لزمان طويل، تغزو جوار كركوك، وطلب الحاكم مساعدة شمر في السيطرة عليها¹.

خاف العبيد من عدوهم شمر فاسرعوا بالموافقة على شروط صلح الحاكم. ولذلك لم تمس الحاجة الى شمر. وبالرغم من هذه النهاية السريعة لغارات العبيد، حصلت المتاعب حين طلب الشيخ فرحان عودة فخذ الثابت المتمرد الذي التجأ الى العبيد الى معسكره. وحين رفض خليفة الهذاب شيخ فخذ الثابت العودة، أرسل فرحان عبد الكريم للقضاء على التمرد وقد مات خليفة الهذاب في المعركة التالية، فعاد فخذ الثابت المغتاز برئاسة (الجراش) وعبر دجلة ونهب المنطقة حوالي الموصل. وكانت تخريباته التي اغلقت طريق النهر بين الموصل وبغداد وادت الى احراق اكثر من ثلاثين قرية قد استمرت طويلا الى سنة 1862².

¹ وزارة الخارجية 717/195 الموصل، رسام الى بلور، رقم 9، 28/10/1861.

² وزارة الخارجية 717/195 الموصل، رسام الى بلور رقم 42، 15/1/1862.

الحملة العثمانية

سنة 1862

نظم نامق باشا حملة عسكرية مدبرة لوقف غارات شمر وطردهم من الجزيرة. ولأجل ان ينفذ هذا المشروع العظيم استعان بمحاربين غير نظاميين من زبير والعبيد وعشائر المنتفق¹ للانضمام الى قوات حكومية من بغداد واورفة والموصل وتكريت². وكان مجموع افراد الحملة 16000 رجل. مثل هذه الحملة الحكومية المركزة لم يسبق شفهها ضد شمر منذ حملة رشيد باشا سنة 1835-1836. وتعين نتائج هذا الهجوم على شمر هل تساعد الحكومة أم لا تساعد الاصلاحات العسكرية والتجديدات التكنولوجية لسنوات الخمسين في السيطرة على العشائر البدوية³.

في اوائل اذار 1862 هجمت المفارز الحكومية المختلفة والمساعدون البدو بقيادة تقي الدين باشا وشبلي باشا وابراهيم باشا،

¹ عباس العزاوي: تاريخ العراق، الجزء السابع ص140.

² وزارة الخارجية 717/195 بغداد، القنصل العام الى بلور رقم 26.

³ وزارة الخارجية 717/195، الموصل، رسام الى بلور رقم 13، 1862/4/28.

على شمر في المعركة التي كثرت الدعاية لها من الموصول. خشي زعماء شمر نتيجة هذه الحملة لانها اذا قدر لها النجاح فمثل هذا الهجوم المركز يطرد العشيرة الى خارج الجزيرة. تحركت العشيرة فوراً، في امل تفادي الكارثة، للاستفادة من احدى مزاياها العسكرية البدوية التقليدية. لما كان الهجوم قد بدأ في اواسط اذار، علم رؤساء شمر ان حرارة البر تكون بعد مدة قصيرة اشد مما يستطيع تحمله الجيش العثماني. فالقوات الحكومية لن تتمكن من اطعام خيولها واعطاءها الماء، وبذلك لن تستطيع ملاحقة البدو ولا بد لها ان تعود الى حصونها¹. رغبة منها في استغلال هذه المزية، انتقلت شمر بعيداً في عمق السهوب متوجهة الى نهر الخابور. وفي نفس الوقت تفادت المعارك المركزة حيث تتغلب الخيالة العثمانية. خلافا لستراتيجية الخداع الشمرية كان انتصار العثمانيين العسكري يتوقف على مقدرة قادتهم لارغام شمر على خوض معركة حاسمة. وقد علم القادة العثمانيون ان السهوب يصبح بسرعة حاراً لا تتحمله خيولهم فكان لديهم اقل من شهر واحد لايقاع الهزيمة بشمر².

خلال نحو من ستة اسابيع انسحب الشيخ فرحان وعبد الكريم سميظ غرباً نحو نهر الخابور. وكلما تحركوا الى عمق السهوب تبعهم

¹ وزارة الخارجية 771/195 بغداد، القنصل العام الى بلور رقم 10، 1862/3/26.

² وزارة الخارجية 717/195 بغداد، القنصل العام الى بلور رقم 25، 1862/4/4.

الجيش العثماني حتى ارغمه الحر الشديد على ترك المطاردة. وفي
اواخر نيسان اوقفت كتائب الموصل وبغداد وكركوك مجهودها الذي
تبجحت به وعادت الى موطنها¹. وهكذا نرى السياسة العشائرية
العثمانية حتى مع مزايا الاصلاحات العسكرية والتجديدات التكنولوجية
وقد اخفقت في التغلب على مزايا البدو العسكرية التقليدية المبنية على
المخادعة والتفوق في الحركة.

فشلت الحملة ايضا بسبب المنافسة المستمرة بين القواد العثمانيين
الثلاثة تقي الدين باشا وشبلي باشا وابراهيم باشا، وقد اراد كل منهم
ان تكون له اليد العليا. في اعقاب هذه المشاحنة لم يستطع الجيش
المؤلف من 16000 رجل سوى احراز نصر واحد على فخذ واحد
منعزل من شمر. في هذا اللقاء فاجأت الخيالة العثمانية ومساعدوها
من العبيد رجال العشيرة الغافلين حين خيموا ليلا. وقد ارتعب الفخذ
فهرب تاركا كل ما يمكن للمهاجمين².

هذا الفشل البين اثر كثيرا، ولاريب، على افكار الولاة العثمانيين.
ومع ان حملة الحكومة قد اخفقت وان شمر لم تتمتع بنصر واضح.
لقد شعر الشيخ فرحان وزملاؤه من رؤساء العشيرة ان الحملة العسكرية
العثمانية قد تحدت تفوق شمر مباشرة. فاول مرة خلال سنين طويلة

¹ كالسابق

² كالسابق.

تجمعت القوات العثمانية على هدف واحد. وعلم الشيخ فرحان انه،
بتحسن قليل فقط في حركة العثمانيين وقيادتهم وقوة نيرانهم، يتهايا
للحكومة ان تطرد شمر الى خارج الجزيرة¹.

ان السلم غير المرضي الذي فرضه نامق باشا على شمر دل
ايضا على وضع العشيرة الضعيف. نبعت قوة موقف نامق باشا من
حقيقة ان شمر في منتصف الصيف بقيت معزولة قرب نهر الخابور
وممنوعة من الوصول الى اسواق الحبوب في الولاية. واذا حافظت
الحكومة على هاتين الحالتين فان العشيرة لاتستطيع ان تتمون
بالحبوب المهمة جدا ولا ان تهاجر الى الجنوب للفرار من الشتاء
القارس².

طلب فرحان الشروع بمفاوضات السلم بان قدم عرضا لدفع اثمان
كل الاموال المنهوبة خلال السنوات التسع الماضية. وبدأت المباحثات
الجديدة حين قدم الى بغداد ممثل شمر الشيخ سميظ وشرع بالمباحثة
مع نامق باشا وانتهت هذه المفاوضات حين قام الشيخ فرحان نفسه
بالرحلة الطويلة من نهر الخابور الى بغداد لاجل حسم التسوية وفي
النهاية وافقت شمر على دفع تعويض باهظ قدره 40000 راس غنم
و3000 راس بغير ومائتين من الخيل. وبالرغم من تخفيض المطالب

¹ وزارة الخارجية 717/195 بغداد، القنصل لعام الى بلور، رقم 22، 1862/5/21.

² كالسابق.

بعد ذلك فان شمر تحملت عبئا فادحا وحتى نيسان 1863 لم يستطع فرحان حتى مع مساعدة 800 فارس عثماني، سوى تسليم 3350 رأس غنم و 1391 بعيرا¹.

شكل جمع بقية التعويض مشكلة مزمنة لان الشيخ عبد الكريم ادعى ان فخذة يمتلك حماية خاصة من هذه الابتزازات واتبع عبد الكريم رؤساء افخاذ اخرون هددوا الشيخ فرحان بالانتقام اذا لم يمنحوا هم ايضا معاملة خاصة. وهكذا مرة اخرى جوبهت رغبة فرحان في تنفيذ واجباته تجاه الحكومة بمجازفة استبعاد قسم كبير من عشيرته. وفي نفس الوقت عقدت مركزه على وجه اشد منافسة اخيه عبد الكريم المتجددة فضلا عن معارضة فخذ الصائح.

¹ العزاوي: تاريخ العراق، الجزء السابع، ص 140-141.

عشيرة شمر هادئة

1862 - 1868

اخفقت الحملة العسكرية لسنة 1862 في طرد شمر من الجزيرة لكنها اثرت تأثيرا مهدئا على غارات العشيرة في السنوات الخمس بعد 1862 هبطت هبوطا جسيما حسب غارات شمر على القرى الزراعية والعشائر الرحالة الضعيفة والقوافل التجارية. لقد شعرت العشيرة، ولأريب بان جهد الحكومة الابتدائي ضدها اذا كان قد اخفق فان اية حملة مقبلة قد تدمر شمر. وهكذا حتى الافخاذ المتمردة بزعامه الشيخ عبد الكريم امتنعت عن معاداة الحكومة المركزية وكان الغزو الكبير الوحيد بين 1863 - 1868 بين شمر وعدوها القديم عنزة. وثمة ثلاثة تقارير معينة تصف الصعوبات بين شمر وعنزة في سنة 1865 و 1866 و 1868¹.

غادرت شمر في اوائل الخريف مراعيها الصيفية في الجزيرة الشمالية وبدأت مسيرتها الطويلة نحو منازلها الشتائية جنوبي بغداد. وفي نفس الوقت تقريبا خرجت عنزة من مراعيها الصيفية في بادية

¹ وزارة الخارجية 803/195 بغداد، كمبال الى ليونز رقم 41، 1866/10/17.

الشام ومضت ايضا الى الجنوب على سواحل نهر الفرات وفي اواخر الخريف كانت العشيرتان متجاورتين على مسافة اميال قليلة جنوبي بغداد¹. وحاولت العشيرتان، وهما تتمتعان بحب الغزو ان تنهب احدهما مخيمات الاخرى ومواشيها. وكان الخاسرون الحقيقيون في غزوات 1865 و 1866 و 1868 الزراع المتوطنون الذين دمرت زروعهم من قبل العشيرتين النهابتين².

¹ لوريمر: الجغرافية الجزء الاول، ا ب، ص 1436-1437.

² العزاوي: تاريخ العراق، الجزء السابع، ص 180.

سبعون سنة في الجزيرة

عشيرة شمر سنة 1868

ان الحقائق المعنية التي تصف هذا او ذاك من رؤساء شمر او تلقي الضوء على العلاقات بين العشيرة والحكومة مهمة بلا شك، لكنها قلما تشرح التاريخ الكامل للعشيرة في الجزيرة. من اهم نواحي تحليل تاريخ شمر الجرباء في الجزيرة هي كيف ان عشيرة بدوية خالصة خرجت من جزيرة العرب قد تكيفت للحياة تحت تاثير حضارة مقيمة. في سنة 1868 او بعد سبعين سنة تقريبا من وصول شمر الى ولاية بغداد، يظهر ان العشيرة بلغت حدود توسعها الاقليمي.

شغلت ديرة شمر الاراضي بين نهر دجلة في الشرق، والفرات والخابور في الغرب، والسفوح العالية في الشمال، والارض المنخفضة جنوب بغداد. وكانت العشيرة تنجز هجرتها السنوية في داخل هذا المحيط الجغرافي. اما من الناحية السياسية فان شمر كانت تستوفي الخاوة (الاتاوة) من العشائر الضعيفة والقرى المتوطنة في المنطقة¹. ومن الناحية العسكرية كانت لها القوة الكافية للغارة على كل الطرق التجارية الحيوية التي تمر بديرتها. ولم يبق لدى شمر اماكن

¹ لوريمر: الجغرافية الجزء الاول، ا ب، ص 1361.

محاصرة بلدة كبيرة كما كانت تفعل في سنوات الثلاثين والاربعين (من القرن التاسع عشر) لكنها كانت لاتزال تستطيع تحدي جيوش الحكومة¹.

خارج تدخل الحملات العسكرية الحكومية بين حين واخر بقيت شمر القوة العسكرية السائدة في الجزيرة. وسيطرتها العسكرية سمحت لها ان تستوفي الخاوة من القبائل العربية الضعيفة على حواشي ديرتها. وكانت الجحيش خصوصا تدفع الخاوة الى فخذ البريج، والجبور في الخابور الى الشيخ فرحان، وبلدة تلعفر الى فخذ الصائح. ومثال ذلك عشيرة طئ النازلة شمالي الموصل كانت ايضا تدفع الخاوة الى شمر². واليزيديون المعروفون بالبسالة في الحرب كانوا يقاومون تجاوزات شمر ويتحاشون اداء الاتاوة الى القبيلة البدوية القوية³. وبالرغم من سيطرتهم العسكرية كانت شمر لاتزال تخشى غزوات قبيلة عنزة التي كانت تشن الغارات على الجزيرة كل سنة تقريبا⁴.

بقي حب شمر للغزو قويا في الستينات كما كان حين هاجرت العشيرة من نجد. لكن بعض عناصر طبيعة شمر البدوية قد تغيرت

¹ لايارد: بابل ص 266.

² كالسابق.

³ كالسابق.

⁴ العزاوي: تاريخ العراق، الجزء السابع، ص 106.

نهائيا خلال السنين السبعين الاخيرة. فالمظاهر الطبيعية والاقتصادية لحياة شمر العشائرية تغيرت على وجه محسوس جدا. خلال الاربعين سنة السابقة زاد اتصال البدو مع المدن الكبرى كبغداد والموصل زيادة عظيمة. ففي اوائل هذا القرن حين دخل الشيخ بنية الى الموصل، وجد الكثيرين يحدقون في وجهه. بالنظر الى ملابسه وعاداته النجدية الغربية. لكن في الاربعينات والخمسينات كان عدد كبير من الرؤساء ورجال العشائر يدخلون بانتظام الى مدن الولاية الكبرى¹.

كان رؤساء العشائر المختلفون في معرض السياسة كثيرا ما يزورون بغداد وماردين والموصل وديار بكر لاجل ان ينصبوا كرؤساء عشائر رسميين². ولما كانت العشيرة البدوية تستهلك كميات كثيرة من الحبوب فكان لابد لها من شرائها من تجار المدن او الزراع المتوطنين. في السنوات الاعتيادية، عند انجاز الحصاد المحلي، كان ممثلو العشائر يبادلون منتوجات الابعار كاللبن والجبن بالحنطة والحبوب الاخرى³. وكانت شمر ايضا تدفع ثمن الحنطة بالنقود التي تسلبها من القوافل المارة. ومصدر اخر من الاتصال بالمدن هو استئجار شمر كرعاة حين زاد طلب الاوربيين على الصوف العربي

¹ روس: ملاحظات عن سفرتين (في مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، 9).

² وزارة الخارجية 624/195 بغداد، القنصل العام الى بلور رقم 12، 11/4/1860.

³ لايرد: بابل ص 389.

خلال سنوات الاربعين¹.

في بعض الاحايين كانت شمر تدفع ايضا ضرائبها السنوية خلال هذه الزيارات للمدن. وادخلت نواح مختلفة للحياة المدنية الى ثقافة شمر عن طريق التجار المتجولين الذين يزورون العشيرة ويبيعون لها مواد كالقماش والسلاح والتبغ والقهوة. كل شيخ شمري ايضا احتفظ بعلاقة متينة باحد التجار او موظفي الحكومة في كل بلدة قريبة يراقب مصالح شمر ويستوفي الخاوة من القوافل التي يكون مرورها من ديرة شمر. ومقابل خدمات ممثلها في المدينة كانت شمر تحمي الاملاك والمواشي العائدة له².

¹ كالسابق ص 580.

² ارنست ابرج: على النيل ودجلة : قصة رحلات في مصر والعراق بالنيابة عن.

الفصل الرابع

الانقسام الداخلي والتحدي الخارجي

شمر الجرباء 1869-1914

خلال نصف القرن بين 1869 و 1918 تغيرت مقدرات شمر الجرباء السياسية والاجتماعية والاقتصادية تغيرا عظيما. في مطلع هذه المدة حافظت العشيرة على وضعها كقوة مستقلة في الجزيرة. لاشك انها لم تكن تحظى بالقوة والاتحاد اللذين اتسمت بهما في السابق، لكنها بالرغم من ذلك بقيت قوة يحسب لها حساب. لسوء حظ شمر حتى هذا الوضع من القوة النسبية ان له ان يهبط تدريجيا خلال الجياليين القادمين. لقد اودت بها سلسلة من الازمات الرئاسية والقحط وحملات الحكومة التاديبية فضلا عن نهوض الاتحاد الملي الكردي القوي، فدخلت شمر في الحرب العالمية الاولى عشيرة منقسمة على نفسها وقد نقصت عنها قوتها ونفوذها السابق.

اصلاحات مدحت باشا

الاسكان العشائري

منذ عزل داود باشا سنة 1830 لم يجهز الباب العالي ولاية بغداد بغير مساعدة مباشرة ضئيلة. وهذه الولاية ذات القابليات الزراعية الغنية جدا والشريان التجاري المزدهر لم تتسلم الدعم العسكري الكافي للسيطرة على القبائل المتمردة العديدة ولم توضع في يد ولاية قديرين وذوي نظرة بعيدة يستطيعون وضع الاصلاحات الادارية اللازمة¹. قبل سنة 1870 كان تناقض سياسة العثمانيين العشائرية كثيرا مايؤدي الى خلق فوضى شديدة بين العشائر العربية. لم يفكر الا القليل اذا كان ثمة تفكير، في تهيئة بديل يفيد الشيخ في بذل جهده للسيطرة على عشيرته². وفيما يتعلق بنوع الادارة الداخلية وفعاليتها، لاحاجة للقول اكثر من ان معظم جموعها كانوا يستطيعون اعتزال الخدمة مكنتين بالاموال التي جمعوها خلال حكمهم في بغداد³.

¹ للحصول على صورة واضحة لشؤون العراق الادارية بين 1830، 1870 يرجى مراجعة لونغريغ: اربعة قرون من تاريخ العراق، ص 250-297.

² جويده: نظام الاراضي (وثائق سنت انطوني رقم 16، ص 112-113).

³ لوريمر: الجغرافية الجزء الاول، القسم ا ب ص 1358-1363. بيير دي فوسيل: الحياة في العراق قبل قرن واحد بقلم قناصلنا (باريس).

جاء مدحت باشا الى بغداد واليا في نيسان 1869 يحمل عزمًا مؤكداً في تدشين عهد اصلاح في العراق، فكان ذلك نقطة بداية في التاريخ العصري لهذه البلاد. خلافاً للكثير من الولاة السابقين الذين ارسلوا الى بغداد بنتيجة عدم رضا اوقصاص سياسي، وصل مدحت باشا الى هذه الولاية البعيدة في اوج نشاط خدمته.

ولد سنة 1822 ودخل في خدمة الحكومة في مطلع شبابه. ابدى موهبة ادارية وهو يخدم موظفاً صغيراً فتقدم مدحت باشا بسرعة وشغل مناصب في البلقان وسائر انحاء الامبراطورية وفي اثناء تدريبه زار عواصم اوربية متعددة لمدة نصف سنة فتعلم اشياء كثيرة ساعدته بعد ذلك في المناصب التي تقلدها. قبل قدومه الى بغداد ولي مدحت باشا مقاليد الحكم في الولاية الدانوبية المؤلفة حديثاً جالبا الى هذه المقاطعة الهائجة السلام والرخاء النسبي¹

حاول الوالي النشيط الجديد ان يحسم بعض المشاكل المدنية والعسكرية الملحة. وكان في مقدمة اعماله انشاء نظام جديد للادارة في الولاية يعطي كل ناحية تركيبة موظفين يساعدهم مجلس منتخب². شيد الكثير من المشاريع العامة كالمدارس والمستشفيات والميآتم بتوجيه من مدحت باشا. وفي امل ان يستثمر ثروة العراق

¹ مدحت: مدحت باشا ص 4-13.

² ديفدن: الاصلاح في الامبراطورية العثمانية، ص 160-164.

الاقتصادية، فكر الوالي الجديد في مشروع سكة حديد محكم يصل بغداد بالعالم الخارجي. وفي فكرة مماثلة طلب عدة بواخر جديدة لزيادة التجارة على نهري دجلة والفرات. وخطط لحفر النهرين بغية تحسين النقل عليها. لكن هذا المشروع كالكثير من مشاريعه انتهى بالفشل¹.

شعر مدحت باشا بانه، لاجل اجراء اصلاحاته العديدة، لابد له من تحسين وضع الامن في انحاء الولاية. تقدم بسرعة للتخفيف من وطأة الفوضى العشائرية ونشر الامان في ارياف العراق. خلافا لاسلافه الذين اکتفوا برد الفعل لمشاكل العشائر، وضع خطة متعددة الجوانب استبقت الكثير من المصاعب الناشئة عن التعامل مع العشائر المستقرة والمترحلة. علم ان السياسات السابقة غير المنسقة التي اختلفت بين عدم الاهتمام والمصالحة المفرطة والقمع الشديد والتي تركت شيوخ العشائر في حيرة، فحاول مدحت باشا ان يتبع سياسة عشائرية اكثر تعقلا وايسر على الفهم².

وضعت هذه السياسة الجديدة على اساس اعادة تنظيم شامل اجتماعي وسياسي واقتصادي للمجتمع، ورمّت الى اعادة تشكيل صورة الولاءات وتوزيع السلطة. فمنذ هذا الحين تكون الدولة وممثل السلطان

¹ عبد العزيز نوار: تاريخ العراق الحديث (القاهرة 1968) ص 380-391.

² لونغريغ: اربعة قرون، ص 305-311.

لا العشيرة ولا شيخ العشيرة المحور المزدوج للولاءات العامة. كانت التقاليد تقضي بان رئيس العشيرة يحصل على السلطة بتحدي سلطة الحكومة واستيفاء الخاوة (الاتاوة) وقيادة الغزو على العشائر الاخرى والزراع المستقرين، وكل ذلك قطع حبل الامن في الارياف. يضاف الى ذلك ان شيخ العشيرة، على وجه مناقض، كان يطلب اعتراف الحكومة به كشيخ العشيرة الاعلى، ادى ذلك الاعتراف الى مكافاة مزدوجة هي زيادة النفوذ في العشيرة والحصول على اعانة حكومية كبيرة. وبالرغم من اعتراف الحكومة بقي مركز شيخ العشيرة يعتمد اساسا على الدور الذي يقوم به بصفته زعيم بدوي تقليدي. وهكذا حتى يحين الوقت لتغيير اساس الزعامة البدوية، بقي الامن والهدوء في انحاء الولاية املا بعيد المنال¹

اخذت عدة اصلاحات عشائرية قام بها مدحت باشا تعدل وتغير الاساس التقليدي لسلطة الشيخ بين عشائر العراق العربية. وقد تألفت هذه السياسات العشائرية الجديدة من ثلاثة اقسام رئيسية. كان القسم الاولان التوطين (والعثمنة) يرميان الى اضعاف التلاصق بين الشيخ وعشيرته بينما يزداد اعتماده على الحكومة المركزية والقسم الثالث، وهو الكبت العسكري، يدار بصورة اشد فهكذا اذا تخلف الرئيس العشائري عن التجاوب للجزر (أي المعاملة الطيبة) فتستعمل العصا

¹ كالسابق ص 307.

لإعادته إلى واجبه الصائب¹.

بعد أن درس مدحت باشا النواحي المختلفة لمشكلة العشائر في إنهاء الولاية قرر أن يسكن أكثر ما يمكن من العشائر في نفس ديارهم. فيما مضى حين كانت تصدر الأوامر إلى إحدى العشائر بوقف غاراتها، لم يعط لها بديل من جانب الحكومة، بل كانت تهدد فقط بإجراءات تأديبية قاسية. والآن، كبديل لذلك، أمر مدحت باشا بمسح الأراضي لكي يمكن بيعها إلى أفراد من رجال العشائر. وقد ارتأى أن ضمان التملك والمصلحة الدائمة التي تخلق على هذا الوجه تكون دوافع قوية لرجال العشائر لترك طريقة حياتهم النهائية².

كان مدحت يعلم جيدا أن العشائر المستقرة على نفس أراضيها يمكن السيطرة عليها بصورة فعالة وحكمها بعدالة أكثر، وفضلا عن ذلك فرض الضريبة عليها وتجنيدتها بسهولة وعلى غرار ذلك تكون العشائر المستقرة أسهل انقيادا لخطة (العثمة) (التتريك) التي خطط مدحت لإنشائها. وإذا تمت الأمور كما يجب فالمؤمل أن الشيوخ المالكين للأرض يشعرون بمرور الوقت بارتباط وثيق بالحكومة وأخذ مشروع مدحت في (العثمة) شكلا طبيعيا حين قلد شيوخ عشائر مختلفين موظفين حكوميين. وقد جعل كل شيخ مسؤولا عن إدارة

¹ كالسابق ص 306-307.

² جريدة: نظام الأراضي (وثائق سنت انطوني، رقم 16) ص 120-121.

المنطقة التي استقرت فيها عشيرته. ولم يتسلم الشيخ لقبه فحسب بل صار ايضا يقبض راتبا شهريا في اداء واجباته الرسمية. وكانت النتيجة ان السياسة العشائرية العثمانية تحت مدحت باشا تطورت على اساس معقول مما ادى فيما بعد الى تحسين وضع الامن¹. وفي نهاية القرن وصفت تقارير اوربية عديدة الولاية بانها اضمن امنا مما كانت عليه قبل سنة 1870².

¹ لونغريغ: اربعة قرون، من تاريخ العراق ص 307.

² فون اوبنهايم: vam mittelmeeer الجزء الثاني، ص 83-84.

سياسة مدحت باشا العشائرية

وشمر الجرباء 1870 - 1871

حين تسلم مدحت باشا منصبه واليا لبغداد في نيسان 1869 كانت شمر الجرباء لاتزال تحت الرئاسة الاسمية للشيخ فرحان بن صفوق. وخلال سنوات الستين العشر كانت رئاسة شمر موضوع خصام بين ثلاثة من ابناء صفوق وهم فرحان وعبد الكريم وعبد الرزاق. ولا بد ان نذكر هنا ان عبد الكريم وهو رجل ذو شجاعة كبيرة وارادة قهارة، كان معبود رجال عشيرته ونال ولاء قسم كبير من شمر. ومع ان فرحان وعبد الكريم اختلفا اختلافا شديدا في اجتذابهم لحب العشيرة فانه لم تحدث حتى ذلك الحين قطيعة بين هذين الزعميين القويين¹.

غير ان هذه القطيعة حدثت في اعقاب سياسة مدحت باشا العشائرية. فالشيخ فرحان، الذي سبق لنا البحث في ميله الى القيم العثمانية وعلاقاته الودية التقليدية مع الحكومة المركزية، تعاون علنا مع الوالي الجديد، وقبل بمحض ارادته بارض منحت له على الضفة الغربية لنهر دجلة في قلعة الشرفاء على بعد 60 ميلا جنوبي الموصل. وهذا الترتيب تضمن موافقة الضمنية على اسكان عشيرته كزراع على

¹ راجع الفصل الثالث ص 26-27، 32.

الارض التي حصل عليها. ونال فرحان دليلا اخر على التكريم والتصديق الرسمي حين انعمت عليه الحكومة العثمانية بلقب ورتبة الباشوية وبراتب شهري مكافاة له على وقف الغزو واعادة الاموال المنهوبة¹.

احدثت السياسة العثمانية الجديدة تماما رد فعل مخالفا لدى الشيخ عبد الكريم. فمنذ اغتيال ابيه حلف عبد الكريم يمينا ابديا ببغض العثمانيين الذين كان يحتقرهم ويعتبرهم جيلا حقيرا من الناس واتباعا لسياسة عداء سافر، اخذ ينهب ويغزو والغارة على القرى والقوافل بدون اقل تحريض. وفي احدى المرات رفض استقبال ممثل عن والي بغداد. وكانت النتيجة ان العثمانيين صاروا يرون عبد الكريم خارجا على القانون².

¹ بلنت: البدو ص 232.

² كالسابق ص 98-99.

أمر شمر

سنة 1871

سجلت سنة 1871 فترة شديدة الأهمية في تاريخ عشيرة شمر الجرباء في الجزيرة. منذ عبورهم الفرات في أوائل القرن التاسع عشر جوبه بدو شمر الجرباء باصناف من التحديات الثقافية والاقتصادية والعسكرية والتكنولوجية. وتضمنت هذه مواجهة عشيرة العبيد القوية، والتنظيم المعقد للإدارة العثمانية العسكرية والإدارية، والتجديدات التكنولوجية مثل الأسلحة الحديثة والبواخر، وأخيراً ثقافة الجماعة المتوطنة في الجزيرة. استطاعت شمر حتى سنة 1871 أن تقاوم كل هذه التحديات بدرجات مختلفة من النجاح. لكن كما سوف يبدو واضحاً هنا، حان لحظوظ شمر أن تعاني تغييرات جمة تحت حكم مدحت باشا.

من جميع أبناء صفوق كان عبد الكريم أقربهم ليمائل حب والده للحياة البدوية وفي ضمنها حماسه للقتال. كان شديد الإيمان بالمزايا البدوية - شجاعاً وسخياً وشهماً، وكان محارباً مشاكساً وعنيفاً يقود رجال عشيرته بنفسه. وكان يتمتع بحب عشيرته حتى أن نصف أفرادها تقريباً وقفوا إلى جانبه ضد أخيه الأكبر فرحان باشا. بين الأفخاذ المتعديدين نال عبد الكريم ولاء العبداء والعليان والصائح. ولم يكد مدحت

باشا يشرع بتنفيذ مشروعه لاسكان العشائر حتى ثار عبد الكريم على التدخل في المزية البدوية¹.

عند تحليل اسباب ثورة عبد الكريم يتضح ان ثورة شمر سنة 1871 قد اختلفت كثيرا عن جميع تمرداتها السابقة. اولا ان شمر علمت من اخر حملة حكومية منظمة شنت ضدها سنة 1862 ان القوة العسكرية العثمانية قد زادت زيادة عظيمة بسبب قابلية التحرك الكبيرة والتنظيم المتحسن والاسلحة المتطورة. بعد تلك الحملة فورا علم عدة رؤساء شمريين ان العشيرة كان يحتمل ان تطرد من الجزيرة لو ان الحكومة استعملت قابلياتها الجديدة بصورة افضل. ثانيا، خلال السنوات العشر التالية مضت الحكومة في تقوية وضعها العسكري على طول شاطئ الفرات وفي العراق الشمالي. هكذا لا بد لمحارب متمرس كعبد الكريم، بالرغم من بغضه للعثمانيين ولم يكن بالتاكيد مجنوناً، ان له اسبابا جد قوية لرفع لواء الثورة والمجازفة بهزيمة مؤكدة على يد اعدائه الالاء².

يبدو ان المؤرخين في الماضي لم يقدرُوا اهمية ثورة عبد الكريم حق قدرها في تاريخ شمر. بمعالجتها كحادث اخر في المعارك التي

¹ العزاوي: تاريخ العراق، الجزء السابع، ص 261-263، وزارة الخارجية 949/195

بغداد، القنصل العام الى البيوت، رقم 36، 2/8/1871.

² راجع الفصل الثالث ص.

لا تنتهي بين العثمانيين وشمري، يظهر انهم اخفقوا في فهم المعنى الصحيح لهذا الحادث¹ وحين ينظر الى الثورة كصراع ثقافي وعسكري تأخذ معنى اعظم كثيرا مما نسب اليها من قبل. قبل سنة 1871 لم تتجح القوات المسلحة العثمانية في توطيد تفوق عسكري قاهر على شمر الجرباء كما ان ثقافة العراق المتوطن لم تهدد بصورة فعالة لثقافة شمر الرحالة. وقد شعر عبد الكريم ان مشروع التوطيين الذي وضعه مدحت باشا يمثل نهاية ثقافة شمر النجدية فاستمسك بشدة لتراثه وقرر ان يحارب بالرغم من الفارق القهار.

ادعى عبد الكريم ان قائمقام نصيبين قد اساء معاملته فثار في اوائل اب 1871. خلال اسبوع واحد نجح الزعيم الثائر على راس نحو 3000 محارب شمري، في نشر الدمار في المنطقة المحيطة بنصيبين. قبل ان تستطيع الحكومة اتخاذ عمل فعال، اغارت شمر المتمردة على اكثر من 200 قرية واحرقت 70 منها بالنار، وقتلت عددا كبيرا من الاشخاص، واستولت على كل شيء يمكن نقله. وفي نفس الوقت كتب عبد الكريم رسائل الى رؤساء عشائر مختلفة يشتكي فيها بان مدحت يعتزم ارغام شمر على الاستقرار كفلاحين لا غير

¹ للاطلاع على المعالجة الاعتيادية لثورة الشيخ عبد الكريم سنة 1871 يرجى مراجعة: فون اوبنهايم: البدو، الجزء الاول، ص 149. لونغريغ: اربعة قرون ص 310. العزاوي: عشائر العراق، الجزء الاول، ص 159-160.

وطلب مساعدتهم¹.

لما وصل العديد من هذه الرسائل الى مدحت باشا اعلن منح مكافاة قدرها 10000 قرش لمن يأتيه بعبد الكريم حيا و 5000 قرش لمن يأتي برأسه. وفي الوقت نفسه قسم عبد الكريم قواته الى ثلاثة اقسام وارسلها على دير الزور والموصل وبغداد. هذه الخطة السيئة الترتيب للتغلب على العثمانيين انهارت حين انهزم الشمريون بصورة نهائية في قلعة الشرقاط. اغار على نحو 3000 محارب شمري جيشان عثمانيان بقيادة اسماعيل باشا من ديار بكر واحمد باشا القائد العام من بغداد².

قتل 300 محارب وجرح واسر عدد اخر كبير فترك عبد الكريم ممتلكاته وفر مسرعا الى البادية. بعد هزيمته الفاجعة طلب الزعيم المحاصر الامان على خط وادي الثرثار لكن لسوء حظه جف الوادي جفافا تاما ولقي عدد كبير من رجال شمر حتفهم من العطش. وانتهت الثورة حين تم لعدة مفارز من القوات العثمانية التي انضم اليها مقاتلون من الدليم وعنزة، ان تلحق بالمفرزتين الشمريتين الاخيرتين وتدحرهما وفي احدى هذه المعارك سقط عبد الرزاق اخو عبد الكريم قتيلا امام الهجوم العثماني الضاري. وعند وصول تعزيزات عسكرية

¹ وزارة الخارجية 949/195 بغداد، القنصل العام الى البوت رقم 42، 30/8/1871.

² كالسابق

اخرى من المراكز العثمانية على الفرات ومنطقة سنجار، لم يكن للثورة
الا ان تنتهي بالافاق¹

حطمت خطط عبد الكريم وسقط اعوانه صرعى وتفرقوا وقد فقد
زوجته الحبيبة وولدا صغيرا، ففر لينقذ حياته أمل ان يهرب الى نجد
ويحظى بحماية ابن رشيد الزعيم الشمري، وعبر نهر الفرات سباحة
ووصل اخيرا الى ديرة المنتفق في جنوب العراق². لكن لسوء الحظ
كان ناصر باشا شيخ اتحاد المنتفق القوي على صلة طيبة بمدحت
باشا فقبض على عبد الكريم وارسله الى بغداد³. بعد محاكمة قضائية
في بغداد حكم على عبد الكريم بالاعدام لتمرده ولما نال الحكم موافقة
الاستانة النهائية انتهت حياة الشيخ الشمري شنقا على جسر نهر دجلة
في الموصل⁴.

¹ كالسابق.

² حبيب شيحا: ولاية بغداد (القاهرة 1908)، ص 242-243.

³ وزارة الخارجية 949/195 بغداد، القنصل العام الى البيوت رقم 46، 1871/11/26.

⁴ مدحت: مدحت ص 22.

قبيلة شمر الشرقية والغربية

1880 - 1872

على اثر موت عبد الكريم وعبد الرزاق كليهما اصبح فرحان باشا شيخ مشايخ شمر الذي لا ينازع. وقد خضعت لزعامته العشيرة كلها تقريبا، عدا الافخاذ المتمردة عبدة والعليان والصائح. ومع انه حمل لقب "الباشا" الرفيع وحصل على راتب شهري حكومي كبير فان الجاذبية العامة للشيخ فرحان كزعيم عشائري لم تزد¹. لقد استمر مرهقا بوصمة ان امه حضرية المولد وحبه للثقافة المدنية ومشاركته العملية الوثيقة مع السلطات التركية. وتعزى زعامته لعشيرة متحدة نوعا ما خلال السنوات 1871 - 1875 الى عدم وجود منافس فعال اكثر من أي بروز لمحبة شعبية.

بعد اعدام عبد الكريم تعاون الشيخ فرحان بصورة وثيقة مع السلطات الحكومية في محاولتها لاسكان شمر الجرباء كزراع. واختيرت قلعة الشرقاط، الواقعة على نهر دجلة على مسافة نحو ستين ميلا جنوبي الموصل منزلا مفضلا لخيام شمر، موقعا لهذه المحاولة الاولى للاسكان. وقد منح مدحت باشا الشيخ فرحان بقطعة ارض

¹ وزارة الخارجية 949/195 بغداد، القنصل العام الى البيوت

تمتد على ساحل دجلة الغربي. وفي بادئ الامر كانت المنطقة كلها لاكثر من صحراء خالية من الماء¹ من الصعب ان نقرر حقا كيف حاول فرحان باشا ان يستثمر منحة الارض هذه، لكن توجد معلومات كافية تلخص جهود الاسكان. بسبب هجرة شمر الموسمية يمكن الافتراض بصورة معقولة ان اولئك الذين اقاموا في قلعة الشرقاط سكنوا فيها جزءا من السنة. وقد اتخذت عدة محاولات بسيطة لزرع بعض المزروعات. ونصب ايضا ساقية (ناعور) على دجلة لتجهيز الماء لعدد من اشجار الفاكهة زرعت في حقل منظم بجوار النهر² كما استخدم فرحان باشا كما كان المتوقع عددا من الفلاحين من عشائر مختلفة تابعة لشمر كالجبور للقيام بالعمل الزراعي الفعلي. وفي سنة 1878 حين زار ولفرد وانا بلنت قلعة الشرقاط وجدا فرحان باشا واكثرية العشيرة مخيمين فيها. والعدد الكبير من رجال العشيرة النازلين في الخيام حول خيمة فرحان قد جردوا الريف الملاصق وجعلوه عاريا بقطعانهم من الالغام والاباعر. وحسبما رواه بلنت وزوجته وعدة مسافرين اوربيين اخرين زاروا قلعة الشرقاط في اوائل سنوات الثمانيين انتهى مشروع اسكان شمر بالفشل³.

¹ كالسابق. بلنت: البدو ص 186-188.

² رسام: آشور ص 257-258.

³ بلنت: البدو ص 187، سنماو: ص 303-304. ج ب بيترز: تحريات ومجازفات على

ومع ان تجربة الشرقاط كانت اقل نجاحا فانها اثبتت مدى (عثمنة) الشيخ فرحان. لاشك ان فرحان لم يعتزم قط ان يتنازل تماما عن علاقته بحياة البادية لكنه لابد كان عالما كل العلم انه، لاجل المحافظة على منصبه كزعيم عشائري اعلى، فلا بد له من مواصلة التعاون مع السلطات السياسية. انه لم يقم بصورة دائمة في قلعة الشرقاط. لكنه حين كان يخيم هناك كان يدخل مظاهر متعددة من ثقافة الاستقرار في مخيمه وهو ابتعاد كبير من عادات العشائر التقليدية. ومن اثار التجديد غير المسبوقه قبلا استخدامه موظفا دينيا مقيما في الموصل ليؤم الشيخ واتباعه في الصلاة اليومية وليعلم ابناؤه اللغة التركية. ومع ان هذه الخطوة لم تدل على نهاية الحياة البدوية فانها مثلت تطورا جديدا في نظام حياة شمر النجدية¹.

ان افخاذ شمر كالعبدة والعليان والصائح التي التحقت بدون تمسك بالشكليات بعبد الكريم، نزلت الى اساليبها الرحالة الحرة بحماسة اكثر بعد ان تعرضت لطريقة الحياة الغربية وغير المعهودة "المستتركة" تحت رئاسة فرحان. وهؤلاء المحاربون الساخون سرعان ما وجدوا رئيسا جديدا في شخص فارس بن صفوق. بعد حوادث سنة 1871 فورا هربت عمشة ام عبد الكريم مع ابنها الصغير فارس الى الملجأ الأمن لدى بادية شمر التابعة لابن رشيد في نجد. وفي هذه المنطقة

الفرات الجزء الاول، (نيويورك 1898) ص 119.

البعيدة والعسيرة الدخول نشأ فارس بن صفوق تحت حماية قريبه القوي. واصبح هناك متمرسا بطريقة الحياة الحرة وغير المقيدة التي ادى الدفاع عنها في تدمير مقدرات الاسرة ووفاة ابيه واخوانه الكبار. وخلال اقامتها في هذا المنفى في نجد لم تضع عمشة الفرصة لاثارة حقد ابنها على الاثرالك².

لما عاد الشيخ فارس الى الجزيرة سنة 1875 اسرع اتباع عبد الكريم، الذين نفرتهم اساليب فرحان باشا " البغدادية " فانضموا الى الشيخ الشاب. وكانت دعوته كزعيم ابعد كثيرا من كونه اخا شقيقا لعبد الكريم المحترم، فان حبه للبادية واخلاصه الشديد لطريقة الحياة البدوية التقليدية أهله فورا كمنافس لفرحان الميال الى الاستيطان والبعيد عن "الشعبية " كان لفارس مؤهلات لاغبار عليها لرئاسة شمر العليا لقد كان سليل بيت الرئاسة في الجزيرة وكان اخوه عبد الكريم وابوه صفوق من رجال البسالة العظمى، وقتل كلاهما بطلا شهيدا وهما يحاربان في سبيل طريقة الحياة الشمرية. وكان هو نفسه مالكا لعدد من الصفات التي جعلته معبود بعض أفراد شمر كان كريما فوق العادة شجاعا في المعارك، فارسا مغوارا وفاتر الحماسة نحو السلطات التركية، فسرعان ما جمع اكثر من نصف عشيرة شمر تحت لوائه. وقد

¹ بلنت: البدو ص 188، 192-193. بلنت: البدو ص 188، 192-193.

² فون اوبنهايم: البدو، الجزء الاول ص 149.

مثل العبداء والصالح والعامود اكثرية اتباعه¹.

منذ سنة 1875 انشقت شمر الجرباء الى شقين متنافسين. فشمر الغربية التي يرأسها فارس بن صفوق شغلت القسم الشمالي الغربي من ديرة شمر التقليدية. وكانت دير الزور على الفرات في منتصف الطريق بين بغداد وحلب مركز الصلة الرئيسية بين شمر الغربية مع السلطات التركية. اما قسم العشيرة التابع لفرحان باشا والمعروف باسم شمر "الشرقية" فشغل المنطقة من الديرة العشائرية القريبة في الموصل ونهر دجلة. وفي بادئ الامر اتخذ الشيخ فارس موقفا اشد عداء نحو السلطات التركية في دير الزور. ولكن في سنة 1878 حين دعا حسين باشا قائمقام دير الزور فارس لزيارته قبل الشيخ الشاب دعوته فورا ليحمل لقب باشا. وبموجب هذا الاتفاق تسلم فارس راتبا شهريا ضئيلا ليحافظ على الامن في ديرته العشائرية².

¹ سنماو: ص303-304

² بلنت: البدو ص223.

نظام متغير

تغير الجزيرة اداريا وفنيا وديمقرافيا (سكانيا)

1800-1914

بين سنة 1880 ونشوب الحرب العالمية الاولى سنة 1914 تغيرت موازنة المجتمع العشائري في الجزيرة والعراق الشمالي تغيرا محسوسا¹ في بادئ الامر كانت شمر الجرباء، ولو انها مجزأة الى جزئين متعاضدين ، لاتزال تتمتع بموقعها المعتاد كاقوى قبيلة محلية. خلال هذه الثلاثين سنة استمرت شمر على اتباع سيرة حياتها البدوية بالرغم من حصول عدد من التغييرات قللت من مجال نفوذها ومست مزاياها السابقة من الغزو وفرض الاتاوة (الخاوة)².

اتخذت قوى التغيير التي اثرت في شمر اشكالا مختلفة، لكنها صدرت كلها من الوجود العثماني الاداري المتزايد في فعاليتها في الجزيرة. خلال الثلث الاخير من القرن التاسع عشر ابرز هذا الوجود نفسه بصورة مؤثرة في امن عسكري متحسن. كانت شمر الجرباء قبل ذلك تتشن غاراتها باقل خوف من انتقام الحكومة. وحتى هجوم

¹ نورمان لويس : وحدود الاسكان في سورية 1800.

² ستين: شمر جربا ص 102-103.

مدحت باشا العسكري المدبر سنة 1871 تطلب تخطيطا متقنا ومواصلات فعالة بجمع العدد الكبير من القوات اللازمة للتغلب على العشيرة¹.

بعد العقود التي تبعت هذا النصر الحاسم زاد وجود القوة العسكرية العثمانية بصورة محسوسة حول حدود ديرة شمر. فبالإضافة الى زيادة العدد العام من الجنود المهينين لحراسة البادية، جعلت التكنولوجيا المحسنة الجندي الفرد محاربا فعالا افضل. وقد وجه العثمانيون اهتمامهم في البداية الى تأمين الامن على طريق القوافل على طول نهر الفرات الذي يصل بين بغداد وحلب.² اتخذت ديرة الزور الواقعة على الفرات نقطة البداية لجهود العثمانيين لتحسين الامن. شيد ارسلان باشا خلال الستينات قلعة قوية البناء هناك واستخدم قوات عثمانية لقمع غارات عشيرتي شمر وعنزة³ وفي سنة 1900 اقامت القوات في قلاع في الكسارة والمعدان والتبني والشطية والبوحسن والميادين والصلاحية والبوكمال والقائم⁴. وابتعد من ذلك شمالا على ساحل نهر الخابور اقيمت حامية اخرى في تل الحسجة لتشارك في

¹ لويس: بروز، ص 174-175.

² لويس: الحدود (مجلة الشؤون الدولية) 31 (1955) 48-60.

³ راجع الفصل الثالث ص

⁴ موسيل: الفرات الاوسط ص2.

مسؤولية السيطرة على شمر الغربية.

في الجانب الشرقي من الجزيرة وقفت القوات من تكريت والموصل وجزيرة ابن عمر مع قوات ديار بكر وماردين ونصيبين تصد شمر الشرقية¹. وعدا انشاء سلسلة من الحاميات العسكرية حول ديرة شمر، استعان العثمانيون بتجديدات عديدة اخرى لتحديد غارات شمر اكثر من ذلك ويظهر ان تجديدا بسيطا، وهو اتخاذ البغال وسيلة للنقل في البادية، حسن كثيرا من مقدرة القوات الحكومية لمطاردة غزاة البدو الشاردين. قبل ذلك كان المحاربون البدو الراكبون على الجمال يتمتعون بمزية كبيرة في سرعة الحركة². وحين كان العثمانيون يطاردون شمر على الخيل كان هؤلاء يتجهون الى البادية الحارة الجافة ويتخلصون بسرعة من مطارديهم. لكن هذه المزية البدوية فقدت لان البغال التي تتطلب القليل من الطعام والماء تستطيع السير بسرعة جيدة في البادية³.

وحصل تجديد اخر تكنولوجي في البنادق المحسنة المتعددة الطلقات

¹ وزارة الخارجية 1242/195 الموصل، راسل الى تيكسن رقم 2، 1879/1/20.

وزارة الخارجية 1445/195 ريشاردز الى بلاودن رقم 2، 13/11/83.

وزارة الخارجية 164/195 بغداد، القنصل العام الى وايت رقم 86، 1889/11/21.

وزارة الخارجية 2339/195 الموصل، كريغ الى لوثر، رقم 13، 1910/4/21.

² وزارة الخارجية 717/195 بغداد، القنصل العام الى بلور رقم 25، 1862/4/4.

³ سنماو: ص 274-275.

مما قضى على مزية بدوية اخرى. بدءا من سنة 1869 ببندقيات "سنايدر" التي تحشى انقطاعا، وقد عقبها ونشستر " المتكررة الرصاص في السبعينات، ثم بندقية " مارتيني " المحسنة حوالي نهاية القرن، فصار الجنود العثمانيون يتمتعون بمزية عالية في اطلاق النار على محاربي شمر الذين كانوا مسلحين ببندقيات قديمة ورماحهم التقليدية¹ لا ريب ان البغالة العثمانيين السريعي الحركة المسلحين ببندقيات متكررة الاطلاق قد اثروا في غزاة شمر لكن هذه البنادق الجديدة يحتمل انها كانت اشد وقعا على شمر حين كان يستعملها الزراع المتوطنون. في محادثة مع مارك سايكس، المسافر البريطاني في بداية القرن العشرين، قدم عبد الرحمن اغا الرئيس الاعلى للاكراد الكيكية² قصة مفيدة عن اثر بندقية " مارتيني " على العلاقات بين شمر والزراع :

(سألته هل شمر يزعجونه ؟ فقال بايجاز :

فيما مضى.

سألته : لم ليس الان ؟ فكرت لحظة واحدة ان عبد الرحمن ينوي الابتسام فعلا. برقت عيناه الفاترتان، ولاحظت بريق اسنان صفراء طويلة تحت شواربه. لكن ذلك لم يكن سوى تثاؤب.

¹ كذلك. لويس: الحدود(مجلة الشؤون الدولية،31(1955) ص54.

² كان الاكراد الكيكية من اشد خصوم شمر في العراق الاعلى.

قال : في السابق وكأنه يواصل كلامه، فلم يكن لدينا سوى الرماح. اما الان فشمّر بارعون جدا في الرماح، وافراسهم سريعة ايضا، وجماعاتهم الغازية تزيد على عدد رجالي. عدا ذلك كان شعبي اقل فعلا رجلا امام رجل. لكنني اشتريت مؤخرا خمسين بندقية "مارتيني" بمبلغ كبير. وجدير بالقول ان " المارتيني " لا فائدة منه لرجال يركبون الخيل ضد رجال يحملون الرماح. يصرخ البدوي ويجري بسرعة نحو الرجال حاملي " المارتيني " الذين ياخذهم الخوف ويهربون. وقد علمت ذلك حين اشتريت " المارتيني " وكذلك علمت شمّر. لكن شمّر لم تعلم بما علمت، وذلك ان الرجل الراجل وله مارتيني يساوي عددا كبيرا من الرجال مع الرماح. في السنة الماضية استولى الشمريون على عدة الاف من اغنامي، فاخذت معي خمسين من رجالي مسلحين بالمارتيني وركبنا نلحق بهم. ولما وصلنا الى البدو وطلبت من رجالي ان يترجلوا. ولما رأى شمّر ذلك فكروا اننا جننا مستسلمين وهجموا علينا كالشياطين، وهم يصرخون ويرفعون رماحهم حسب العادة. قلت لرجالي ان يقفوا بلا حركة على الارض وينتظروا. فلما جاء الشمريون على بعد دقيقة واحدة، قلت لرجالي ان يطلقوا النار كلهم معا. هرب الشمريون لكننا اطلقنا النار اربع مرات قبل ان يصلوا الى مسافة سليمة. وقد غضب شيوخهم وقالوا ان هذا ضد اصول الغزو وهو امر معيب لاننا جرحنا اثني عشر رجلا منهم. لكنهم اعدوا كل اغنامي، ولاهتم بما تقوله شمّر لانهم يخافون الان ان يمساوا

ايا من ماشيتي، وعليهم ان يغزوا في مكان اخر. ان البدو لا يفهمون المارتيني اكثر مما انا افهم الرماح. ¹

بين التجديدات التكنولوجية التي اثرت في بدو شمر، يحسن بنا ان لانغفل سلسلة المواصلات البرقية المتسعة. كما ذكرنا سابقا كان خط البرق الذي يربط بغداد بالموصل قد بدا بالعمل منذ سنوات الستين ². عل حد الجزيرة الغربي مد خط برق وادي الفرات يربط حلب وبغداد سنة 1890 ³. يضاف الى ذلك ان خدمات برقية قد انشئت قبل نشوب الحرب العالمية الاولى على الجانب الشمالي من العراق الاعلى. ومجموع هذه الشبكة البرقية قد سهلت التنظيم السريع الفعال للحملات العسكرية ضد العشائر البدوية المتمردة.

علاوة على ادخال تجديدات مختلفة تكنولوجية وادارية تغير ايضا شكل السكان في الجزيرة خلال الثلث الاخير من القرن التاسع عشر. سجلت الاعوام بين 1870 و1914 مبدأ اعادة اسكان مناطق واسعة من الاراضي الزراعية المتروكة في الجزيرة الشمالية ⁴. اتخذت مشاريع الاسكان المؤيدة من الحكومة على سواحل نهري الفرات والخابور

¹ مارك سايكس: تراث الخليفة الاخير (لندن 1915) ص330.

² وزارة الخارجية 521/195 بغداد، كمبال الى بلور رقم 8، 1862/2/26.

³ موسيل: الفرات الاوسط ص3.

⁴ لويس: الحدود (مجلة الشؤون الدولية، 31، 1955) 54-60.

انمطا مختلفة متعددة.

اولا، ان العشائر الصغيرة كالجبور والبقارة والعقيدات التي لا تستطيع حماية نفسها ضد غارات عنزة وشمر حثت على الاستقرار على طول نهر الخابور. ومع ان قوات الحكومة المقامة في مواقع استراتيجية قد منحت العشائر المتوطنة حماية افضل، فانها لم تكن تستطيع منع استيلاء (الخاوة) المستمرة حتى سنوات القرن العشرين¹ ومشروع اعادة اسكان عثماني ثان، واكثر نجاحا شيئا ما، بدئ به بجوار راس العين. في هذا المشروع المعين اسكن جراكسة مسلمون طردهم الروس من وطنهم في جبال القفقاس في اواخر سنوات السبعين من القرن التاسع عشر، في اراضي زراعية متروكة حول راس العين.

والجراكسة محاربون اشداء عنيدون تصادموا مع شمر الغربية في منازعة استمرت عقودا من السنين. ومع ان الجراكسة تحملوا الكثير من غارات شمر السنوية فانهم احتفظوا باراضيهم ونجحوا في اخر الامر بجعل راس العين وطنهم².

لقد صورت القصة التالية بصورة دقيقة شكل العداء البدائي بين

¹ فون اوبنهايم: الجزء الثاني ص 78-79.

² ماعوز: الاصلاح العثماني ص 142-143. البعثة الى تركية الشرقية، الجزء 9 ماردین، القس جوزيف ا ي سكوت الى الدكتور ن ج ليالانك، رقم 262، 1882/5/1. ستين: شمر جربا ص 26-27.

شمر واللاجئين الجراكسة القادمين حديثا :

في اول الامر حين جاء الجراكسة الى راس العين اغارت شمر عليهم واستولت على مواشيهم وخيولهم. لكن في احد الايام قبض رجال راس العين على عشرين بدويا وقتلوهم. واخذوا واحدا وحفروا ثقباً في جسمه ونفخوه مملوءاً بالهواء كما ينفخ جلد الغنم، ثم وضعوه خارج راس العين حتى ان كل قادم يقول : ماشاء الله، ما هذا ؟ انظروا ماذا فعل الجراكسة بالشمري. لكن شمر فكروا فيما بينهم كيف يتسنى لهم الثار، وعملوا هذه المكيدة. جاؤوا الى راس العين وقالوا : (ايها الجراكسة، شنت عنزة الحرب علينا. تعالوا وساعدونا) واولئك الذين لم يعلموا بخداع البدو ذهبوا معهم - رجال كثيرون وكل واحد يحمل بندقيته - الى البادية. وقال الشمريون : (الاترون هؤلاء الفرسان في البادية ؟ انهم رجال عنزة فانهم الذين لديكم بنادق امضوا الى الامام. ونحن بدو ومالنا الا الرماح) وهكذا تقدم الجراكسة الى الامام ولم يكن هناك احد من عنزة بل جماعة اخرى من شمر. وقد فوجئ رجال راس العين بين جماعتين من البدو من امام ووراء، وفي ذلك اليوم سقط منهم خمسون رجلاً.¹ استمر هذا التنافس خلال سنوات القرن وكان واحدا فقط من عدة تأثيرات جديدة غيرت وضع شمر في

¹ مارك سايكس: دار الاسلام (لندن 1904) ص 284-285.

الجزيرة¹. ويحتمل ان اقوى التحديات في الجزيرة لتفوق شمر، بصرف النظر عن العداء التاريخي مع عشيرة عنزة، قد اتى من الاكراد المليين بعد عقود من السنين خسر فيها الاكراد الرحالة في العراق الشمالي حربهم ضد تجاوزات شمر اصبحوا اقوياء تحت زعامة ابراهيم الملي وتمكنوا من دحر الغزاة البدو². وبعد ان انتهت الحرب الروسية التركية سنة 1878 استعان الزعيم الكردي بمهارة بالقبائل المجاورة لاحكام اتحاد كبير قرب ويرانشهر¹

خلال التسعينات استخدم السلطان عبد الحميد الزعيم الكردي بصفة لواء في الجيش الحميدي الذي انشا في انحاء المناطق الكردية في الامبراطورية عدا منحه رتبة باشا الاضافية، تسلم ابراهيم الملي ايضا كمية كبيرة من بنادق (مارتيني) وقد استفاد من هذه المساعدة العثمانية فقام بسرعة بتحويل الاكراد المساعدين العرب في مركزه في وايرانشهر الى قوة عشائرية متفوقة في العراق الشمالي. من العرب انضمت الى الزعيم الكردي عشائر الجحيش والعبادلة والبقارة والشرابين يضاف الى ذلك ان الاكراد الشيشيشية قرب ماردين انضموا ايضا الى القوة الجديدة. لكن بينما قوة ابراهيم الملي ونفوذه زادا، اصبحت عشائر

¹ سايكس: تراث الخليفة ص 323-324.

² زكريا: عشائر الشام ص30، لاجل الاطلاع على اخبار معاصرة عن التوازن المتحول بين البدو والعرب والاكراد الرحالة راجع برالد بانسي(ليبزنغ 1913) ص 62-64.

طئ والجور وشمر اعداءه الالاء². وقد استمرت المصادمات العشائرية الناشئة عن هذه التحالفات الجديدة الى موت ابراهيم باشا الملى سنة 1909³.

¹ سايكس: نراث الخليفة ص 323-324.

² كالسابق. و ج الفنستن: القضية الكردية (مجلة الشؤون الدولية، 22، 1946) ص94.

³ زكريا؛ عشائر الشام ص 322-323. فون اوينهايم: البدو، الجزء الاول ص 139-141.

شمر الغربية

1890 – 1914

احتفظت افخاذ الثابت والفداغة والعليان بموقعها تحت زعامة فارس بن صفوق كاقوى مجموعة عشائرية في الجزيرة الغربية. وخلافا لشمر الشرقية بزعامة فرحان باشا التي كان تعاونها مع السلطات التركية وتذوقها للثقافة التركية قد باعدا الكثيرين من رجال عشيرته، فان قسم الشيخ فارس من شمر حاول ان يحيى حياته البدوية التقليدية. والعلاقات الودية نسبيا بين الشيخ فارس وباشا دير الزور سهلت امور شمر في اعمال غزوهم واستيلاء (الخاوة). وبشرط ان غارات شمر لم تخل بالزراعة المتوطنة والقوافل التي تمر بالطريق من الموصل الى حلب، فان العثمانيين لم يتدخلوا في شؤون اتباع الشيخ فارس. وكانت النتيجة ان العشيرة استمرت على استيلاء الخاوة من اكراد سنجار والجبور والحديدين وسائر العشائر الصغيرة على نهر الخابور¹.

في سنة 1890 امتدت ديرة شمر الغربية من بين الميادين ودير الزور على الفرات جنوبا الى خط على طول راس العين وويرانشهر

¹ سنماو: ص 303-304.

وماردين شمالا. في داخل هذه المنطقة لم يتحد احد شمر سوى اعدائهم التقليديين عنزة. شنت غارات متقابلة بين هاتين العشيرتين كل سنة تقريبا. ومن المفيد القول ان غارة مدمرة بوجه خاص حدثت سنة 1885 حين فاجا فخذ السباع من عنزة الشيخ فارس على الخابور وسرقوا اكثر من اربعمائة بعير¹، قبلت الخسائر من الغارات بين العشائر كجزء من الحياة البدوية ومالت الى التوازن على مر السنين وعند نهاية القرن جاء التحدي من ابراهيم باشا وفرقته الحميدية مخلا بالتوازن في العلاقات بين شمر وعنزة والعثمانيين.

دارت شمر خلال السنين نحو الهضبات الكردية في جنوب الاناضول فدفعت ببطء حدود مراعيها الى الشمال حتى بلغت المنطقة حول ويرانشهر. قبل بروز ابراهيم باشا في التسعينات لم تقدم العشائر الكردية الضعيفة وغير المتحدة المقيمة في المنطقة سوى مصاعب قليلة الى شمر الغربية. ومع انهم كانوا اعداء الداء، فان المعركة الاولى من المعارك العديدة الكبيرة بين شمر والمليين لم تحدث الا في اواخر التسعينات حين اغار الشيخ علي الشيوخ علي ابراهيم الملي. وقد انتهت هذه الغارة بصورة فاجعة حين اسر ابراهيم باشا علي الشيوخ وارسله الى الاستانة. وقد بقي في العاصمة التركية عدة شهور قبل اطلاق سراحه.

¹ العزاوي: تاريخ العراق، الجزء الثامن ص 76.

عاد الشيخ المهان الى الجزيرة فطلب ثارا سريعا بشن هجوم شمري اخر ضد خصومه المليين. وقد ساعده ابن عمه محمد الشيوخ ابن البطل الشمري الخرافي عبد الكريم، فاعد علي الشيوخ محاربيه. لكن قبل ان تتمكن شمر من الوصول الى مضارب الملي بجوار راس العين، علم ابراهيم باشا بخططهم وتقدم مع اتباعه الاكراد في اثناء الليل وفاجا شمر في تل حرمل (شرقي راس العين)¹

بعد الاندحار الثاني انتهت شمر الغربية والشرقية برئاسة الشيخ فارس والشيخ العاصي بن فرحان مؤقتا عداءهما وخططتا لهجوم عل اوسع مقياس ضد الاكراد المليين. تحرك جيش شمر الضخم الى الشمال قاصدا ويرانشهر بعد ان ناشد المساعدة من اكراد الدكوري والكيكي وعرب طي والجبور وحرب والشرابين. وقف مدة قصيرة في الحلالية لمحاصرة قلعة يسيطر عليها احد اعوان ابراهيم باشا الموثوقين، ثم اتخذت شمر بعد ذلك موقعا شمالي ويرانشهر لشن الهجوم. لكن لسوء حظ العرب علم ابراهيم باشا بواحدة جواسيسه تفاصيل خطة شمر الحربية وفاجاهم مرة اخرى في لحظة خطيرة. وللمرة الثالثة والحاسمة دحر الاكراد أعداءهم البدو، انتصرت القوات الحميدية وطاردت العرب المنسحبين كل الطريق الى راس العين².

¹ فون اوبنهايم: البدو، الجزء الاول ص 139.

² كالسابق.

اثر النصر الكردي الساحق في شمر بثلاث طرق : اولاً: سمح للاكراد المليية باسترجاع قسم كبير من المراعي الشمالية التي خسروها واستولت عليها شمر خلال القرن الماضي. ان اعادة احتلال الاكراد للسبل بين ويرانشهر ورأس العين سجلت تطويقاً اخرًا لديره شمر وقد لاحظ احد الاوربيين انه، بعد المعركة الحاسمة سنة 1901، قلما تحركت شمر الى شمال نهر الخابور. ثانياً : بعد هذا التحول في التفوق العشائري، اعاد الزراع الارمن الاقامة في الارض الزراعية المهجورة حوالي رأس العين¹.

ثالثاً : سرعان ما انتهى النصر الكردي التعاون الموقت بين شمر الشرقية والغربية. وهذا التقارب الظاهر انتهى بالسرعة التي بدا بها حين رفض فخذ الثابت والفراغة من شمر الغربية ان ينضموا الى الحملة ضد ابراهيم باشا. خلافاً لسائر افخاذ شمر التي تعيش بعيداً عن نهر الخابور، واجه هذان الفخذان مشكلة خاصة. كانا يعيشان الى غرب الخابور محصورين بين عدويهما القويين عنزة والملي، فلم يكن لها بد من تحاشي معاداة أي من الجماعتين²

بالاشتراك في هجوم شمر على الاكراد المليية كان هذان الفخذان يتعرضان لهجوم الفدعان من عنزة حلفاء ابراهيم باشا النازلين جنوبي

¹ سايكس: دار الاسلام ص 288.

² فون اوينهايم: البدو، الجزء الاول ص 140.

الفرات. علاوة على ذلك حتى لو ان جيش شمر قد هزم ابراهيم باشا، فان الثابت والفراغة يصبحان خاضعين لثار الاكراد وعنزة لامد طويل بعد عودة شمر الشرقية الى ديرتها قرب الموصل. وبنتيجة ذلك اغاظ هذان الفخذان بقية شمر حين تركا وادي الخابور وضربا خيامهما قرب موطنهما السابق في قلعة الشرقاط خلال الهجوم على الاكراد المليية¹.

واجه فخذ الثابت والفراغة مصاعب جديدة بعد وفاة زعيمها الشيخ فارس سنة 1901 مع الاسف ان الزعيم المتوفي لم يخلف ولدا بالغاً ليتولى رئاسة العشيرة خلال هذه المدة العصيبة. وهكذا نرى الثابت والفراغة كما يظر تحت رحمة شمر الشرقية الاقوى منهما بسبب ضعف زعامتهما، وقد انقذا من أي فقدان اخر للسلطة بنزاع داخلي بين خصومهما. نشأ صراع علني على رئاسة العشيرة بين اثنين من ابناء فرحان باشا هما العاصي وجار الله. وفي هذا الصراع انضم هذان الفخذان الغريبان التائهان الى جار الله ومؤيديه من العبدية ضد العاصي وسائر شمر الشرقية. وبعد عدة معارك غير حاسمة اعيد السلام في نهاية الامر بين شمر الشرقية وفي هذه الفوضى الشاملة عاد الثابت والفراغة الى نهر الخابور حيث عاشا تحت حماية المليية².

¹ كالسابق.

² كالسابق.

احتفظ ابراهيم الملي بوضعه المتفوق في شمال العراق حتى خلع رجال تركية الفتاة السلطان عبد الحميد في نيسان 1909 وقد قام ابراهيم باشا، تاييدا للسلطان المخلوع المحسن اليه مع قوة من 1500 كردي باحتلال دمشق باسم السلطان لكنه لم يلبث ان ارغم على الانسحاب بعد مدة وجيزة. وعند عودته الى ويرانشهر طورد هذا الزعيم الكردي القوي من جانب المتعاطفين مع حزب تركية الفتاة. وقد جر مطارديه هنا وهناك في انحاء العراق الشمالي، حتى لقي مصرعه قرب صفية. ومن الغريب انه قتل بايدي شمر الغربية التي دحرها دحرا مبينا قبل اقل من عشر سنين¹.

تركت وفاة ابراهيم باشا الملي فخذي الثابت والفراغة دون الحماية المعهودة من حاميه الكردي. ولذلك اتجها الى الفدعان طلبا للحماية. وكان الجواب البدائي المتحفظ من هاشم بن مهيد رئيس الفدعان يرجع الى رغبته في صيانة العلاقات الودية بين الفدعان وسائر عشيرة شمر. لكن حين بدا الثابت والفراغة بغزو اخوانهم في العشيرة، سارعان ما وجد الفدعان انفسهم متورطين في النزاع بين الفخزين المنبوذين وسائر قبيلة شمر. وفي سنة 1914 عاد الفخذان الثابت والفراغة فانضمما مرة اخرى الى الجماعة الرئيسية لشمر الغربية².

¹ عن سقوط ابراهيم باشا الملي الزعيم القوي سابعا راجع بيير روندو.

² فون اوينهايم: البدو، الجزء الاول ص 140.

العلاقات بين شمر الشرقية

والعثمانيين 1890-1914

بينما كان الشيخ فارس وشمر الغربية يقيمون خارج النفوذ المباشر للحكومة المركزية، تعاونت شمر الشرقية برئاسة فرحان باشا بصورة فعلية مع الولاية الاتراك في بغداد والموصل¹. وقد ادت هذه الصلة الوثيقة الى انخفاض جسيم في قوة شمر البدوية التقليدية. يضاف الى ذلك ان التغيير يمكن ان يعزى الى عاملين معينين احدهما داخلي والاخر خارجي. وقد لخص ستيفن لونغريغ المشكلة الداخلية اذ كتب ((ان شمر قد مزقت بمناقساتها الداخلية... فابتدت صورة كاملة لفقدان الهدوء البدوي))² وكانت السيطرة العثمانية الادارية الفعالة المقرونة بوجود عسكري اقوى في ديرة شمر الشرقية قد هيات القوة

¹ وزارة الخارجية 1243/195 الموصل، راسل الى نيكسن 1879/4/5

وزارة الخارجية 1309/195 الموصل، راسل الى مايلز 1880/6/5.

وزارة الخارجية 1445/195 الموصل، ريثاردز الى بلاودنه رقم 1883/11/1322.

وزارة الخارجية 1478/195 الموصل، ريثاردز الى بلاودنه رقم 1884/3/4122.

وزارة الخارجية (القنصل العام) الى وايت رقم 86 89/5/21

وزارة الخارجية 1647/195 بغداد، تويدي الى وايت رقم 3350، 1880/6/26.

² ستيفن هـ. لونغريغ: العراق 1900-1950: تاريخ سياسي واجتماعي

الخارجية قد خفضت تفوق عشيرة شمر في الجزيرة.

كانت المنافسات بين الافخاذ موجودة دائما بعد وفاة عبد الكريم اخذت هذه المصاعب معاني اعمق في تاريخ شمر. قبل 1871 تركزت المنافسة في داخل العشيرة في قضية أي رئيس يستطيع ان يحصل على اعظم تايد على اساس كرمه وشجاعته وبسالته في القتال وذكائه فضلا عن حيازته لاعتراف الحكومة برئاسته العليا. عدا هذه العوامل كانت الافخاذ كثيرا ماتدعم الزعيم الذي يستطيع جلب اعظم الغنائم وينجح في تحدي سلطة الحكومة.

طالما اعتقد رجال شمر بانهم قادرون على دحر الجيش العثماني او التهرب منه فان مقدرة الحكومة للتاثير في شؤون شمر بقيت محدودة نسبيا. لكن حالما وطد الجيش تفوقه العسكري على شمر زاد تاثير الحكومة على حياة العشيرة زيادة جسيمة. بعد اخفاق محاولة عبد الكريم الجريئة لمقاومة تجاوز العثمانيين المتزايد سنة 1871، اصبح شيوخ شمر بعده لا يستطيعون المطالبة بالزعامة على اساس انهم يملكون التفوق العسكري لتحدي الحكومة. وبنتيجة ذلك اصبحت الحكومة شيئا فشيئا الحكم النهائي في شؤون العشيرة. ومنذ سنة 1875 شعرت شمر عموما والقسم الشرقي منها خصوصا ان اعمالهم تابعة لمدخله

واقنصادي(اكسفورد 1953) ص54.

الحكومة الفعالة¹.

خلال الثمانينات من القرن التاسع عشر حافظ فرحان باشا على علاقات وثيقة مع والي بغداد والموصل. وقد حمل فرحان رتبة الباشوية وتولى مسؤولية منع شمر من الغزو وفرض الخاوة على العشائر الضعيفة وقرى شمال الجزيرة. وقبض مقابل خدماته راتباً شهرياً يقارب 250 ليرة تركية. وفي الحقيقة لم يكن فرحان يستطيع ان ينفذ هذه الشروط الصارمة ضد الغزو، لكنه اظهر التعاون في القيام بواجبه المقرر. وكما ابلغ قنصل بريطاني، كلما احدث غزو من بين شمر، ارسل فرحان دائماً كتاباً ينسب العمل الى فخذ ثائر او الى غريمه الشيخ فارس. وفي محاولة اخرى لارضاء الموظفين في بغداد والموصل، كثيراً ما كان يطلب قوات حكومية للمساعدة في السيطرة على افخاده المنشقين².

قبل الحرب العالمية الاولى اضعف العثمانيون اكثر من ذلك شمر الشرقية إما بخلق المنافسات بين الرؤساء العديدين او اثاره المنافسات الموجودة. مثلاً، حصل تحد كبير لزعامة فرحان في ربيع 1884 حين طلب اخوة معجون بن صفوق اعتراف العثمانيين به كالرئيس

¹ مثلاً تدخل الحكومة سنة 1889. وزارة الخارجية 1647/195 بغداد، القنصل العام الى وايت رقم 86، 21/2/1889.

² وزارة الخارجية 1682/195 بغداد، توپدي الى وايت، رقم 355، 26/4/1890.

الحكومي الاعلى. وقد ايد معجون عدد من رجال عشيرة فرحان باشا، فعرض ان يدفع للحكومة ضريبة مواشي سنوية قدرها نحو 10000 ليرة تركية وان يتنازل عن الراتب الشهري المعتاد اذا اعترف به رئيسا لشمر في سنجق الموصل¹.

بالرغم من راتبه الشهري السخي البالغ 25000 قرش نفر فرحان الكثيرين من اتباعه ببخله. ونظرا الى العرض المهم الذي قدمه معجون اقترح والي الموصل ان يسمح له بان يجبي الضرائب السنوية كتجربة لمقدرته على اداء الوظيفة. لكن قبل اجراء التجربة الغيت بامر والي بغداد. وهكذا استطاع فرحان ان يدفع تحدي اخيه الاصغر غير الناجح فعلا وان يحتفظ بمنصب الرئيس الاعلى الى وفاته سنة 1890.² بعد وفاة فرحان باشا عادت مشكلة اختيار خلف له مرة اخرى تنتشر الفوضى في وحدة العشيرة كما كان شأنها قبل نحو اربعين سنة بعد وفاة الشيخ صفوق. خصوصا ان فرحان باشا خلف ستة عشر ولدا لكل منهم ادعاء شرعي بزعامة العشيرة. وكان منهم مطلق وشلاح وعبد العزيز وفيصل والعاصي ومجول وزيد وبدر

¹ وزارة الخارجية 1478/195 الموصل، ريشاردز الى بلودن رقم 22، 4/3/1884.

² وزارة الخارجية 1478/195 بغداد، بلودن الى الايرل اوف دوفرين رقم 362، في 1884/5/21.

ومضر¹. في بادئ الامر خلف العاصي اياه رئيسا اعلى بين جماعته الكبرى. وخلال السنوات العشر التالية انتقلت مشيخة شمر الشرقية بين حين وحين بين صلاح والعاصي ومجول وجار الله².

تقدم الاخبار التالية امثلة عديدة لشؤون شمر الشرقية المضطربة بين سنة 1890 و 1914. نشبت المعارك داخل العشيرة في ايار سنة 1897 حين تمرد فخذ الصائح على تعيين العاصي رئيسا اعلى من جانب الحكومة، وقد مضى العاصي الى الموصل واستعان بدعم الوالي باعطائه فرسيه الكريمتين اللتين تساويان اكثر من 200 ليرة تركية. وقد ارسل الوالي فوراً مقابل ذلك عدداً من الجنود الخيالة لمساعدة العاصي في القضاء على التمرد³. بعد سنتين مرة اخرى، سنة 1899، تحدى صلاح العاصي بأرشائه حميد بك وكيل والي الموصل وبعد ذلك في نفس السنة يظهر ان الشيخ مجول بن فرحان قام ايضا برئاسة شمر العليا⁴. وحدثت مصاعب اخرى سنة 1902 حين خرج جار الله ضد الشيخ العاصي بتأييد من فخذ العبدية ومفرزة من

¹ فون اوينهايم: البدو، الجزء الاول ص154.

² العزاوي: تاريخ العراق، الجزء الثامن، ص108.

³ وزارة الخارجية 1978/195 الموصل، القنصل الى القنصل العام في بغداد، رقم 13، 1897/4/6.

⁴ وزارة الخارجية 2055/195 الموصل، القنصل الى القنصل العام في بغداد رقم 1899/11/16، 5.

الخيالة الاتراك¹.

تفاقم الصراع حول زعامة شمر الشرقية سنة 1905 حين شن فخذ العبد والاسلم معارك علنية. وتفجر وضع عشائري متأزم حين اتهم جار الله العاصي بالعمل بصورة غير شريفة وتجاوزه على كرامته الشخصية. وقد امل جار الله ان يهين العاصي واتباعه اكثر من ذلك فتحرك مع العبد من مخيمهم في البادية بين دجلة والفرات للهجوم على العاصي ومحاربيه على دجلة. وفي المعركة التي نشبت قتل رئيسا الفخذين كليهما الهادي بن العاصي وجار الله. وبقي الاسلام بدون رئيس بعد ان فقد الشيخ الهادي وسجن العاصي. وفي هذا الوقت تولى رئاسة الفخذ عم الهادي عضيبي بن قعود رئيس فخذ الصائح ونجح بعد ذلك بدحر الاسلام في معركة تالية².

بعد هذه المعارك الدائرة داخل العشيرة شغل رجال شمر الشرقية انفسهم بسلب التجارة والرعاة المسافرين على طريق حلب - الموصل³. وكما كانت الحال منذ سنوات الثمانين (من القرن التاسع عشر)، لم ترسل الحكومة قوة عسكرية ضد شمر بعد كل حادثة صغيرة، بل انتظرت حتى يتم تنظيم حملة كبيرة. بعد سبع سنوات من النهب

¹ وزارة الخارجية 2138/195 الموصل، رسام الى القنصل العام في بغداد، 1502/10/22.

² موسيل: الطبائع ص 566-569.

³ وزارة الخارجية 12174/371 الموصل، نائب القنصل الى لاوثر، 1910/2/1

المزعج وفرض الخاوة الثقيلة، قام الاتراك اخيرا بمعالجة امر العشيرة السالبة بكل شدة.

في 2 كانون الثاني 1911 خرج من بغداد نحو 2000 جندي تركي ومساعدين من العشائر بقيادة العميد رضا بك رئيس الاركان ضد شمر الشرقية. كانت حركة الجيش في اول الامر بطيئة بسبب برودة الجو الشديدة¹، لكنه لم يلبث ان جمع 4000 رجل من شمر بقيادة الشيوخ مجول والعاصي وشلال في الحضر، شرقي قلعة الشرقاط، واخذت عليهم عهدا بدفع الضرائب المتأخرة البالغة 7000 ليرة تركية². علاوة على احتجاز عدد كبير من الابعار والاغنام، عزل القائد التركي الشيخ مجول من الرئاسة العليا ومنح المنصب الى الشيخ هشام بن العاصي، وسبب ذلك استياء الشيخ حميدي الذي ايد الحملة التركية منذ بدايتها³.

بين سنة 1911 ونشوب الحرب العالمية الاولى سنة 1914 سارت العلاقات بين الاتراك وشمر الشرقية على النمط المعتاد من غارات عشائرية ومنهوبات صغيرة ومعالجة الحكومة المستمرة للرئاسة

¹ وزارة الخارجية 2367/195 الموصل، نائب القنصل الى قيزن، 1911/2/20.

² وزارة الخارجية 2367/195 الموصل، نائب القنصل الى لاوثر، رقم 11، 1911/3/15.

³ وزارة الخارجية 2368/195: خلاصة الحوادث في العراق التركي، آذار 1913.

العليا¹. والخلاصة اننا نرى انه خلال الاربعين سنة من وفاة عبد الكريم سنة 1871 إلى الالهانة سنة 1911، تغير وضع شمر الجرباء في الجزيرة تغييرا محسوسا. اصبحت العشيرة لا تستطيع تحدي الجيش التركي كما فعلت سنة 1870 - 1871، كما ان الاتراك لم يكونوا مرغمين على الاعتماد الشديد على شمر كمساعدين عسكريين لادارة المناطق كما فعلوا في وقت سالف². وعلى غرار ذلك حطمت وحدة العشيرة النسبية لسنة 1871 خلال الاربعين سنة التالية. واخيرا تحدث التكنولوجيا الحديثة بنجاح شيئا ما المزايا العسكرية التقليدية المتفوقة لبدو شمر كسرعة الحركة والمفاجأة والتنظيم.

¹ ل، ب اند س/10، الجزء الثاني، خلاصة الحوادث في العراق التركي، ايلول.

² عن الاستعانة بالشمرين كمساعدين عسكريين راجع ج. بارلو: معجم جغرافية بغداد (اعادة طبع، سمل 1915) ص126.

شمر والحرب العالمية الاولى

1914 - 1918

حين جندت اوربا جنودها للحرب في تموز 1914 واصل بدو الجزيرة طريقة حياتهم التاريخية. لم تسمع اكثر العشائر بامبراطورية هابسبورغ ولم تكن لتهم اقل اهتمام بالحوادث التي جاءت في 28 حزيران 1914. ولكن في 5 تشرين الثاني 1914 حين تحالفت الامبراطورية التركية مع الدول العظمى الوسطى، تورطت مقدرات شمر الجرباء مع سائر عشائر الولايات العربية داخل الامبراطورية في سلسلة من الاحداث التي سوف تنتج بمرور الزمن تغييرا عظيما في حياتها¹.

خلافا للعشائر البدوية في الحجاز التي انضمت الى العقيد ت ئي لورنس والشريف حسين امير مكة لتحرير الولايات العربية في الامبراطورية العثمانية، لعب القسمان الشرقي والغربي من شمر الجرباء دورا صغيرا وغير بطولي في الحرب العالمية الاولى². لم يقدم الا القليل للمجهود الحربي سواء لدول الحلفاء او الدول

¹ لونغريغ: العراق 1900-195، ص75.

² قون اوبنهايم: البدو، الجزء الأول ص141.

الوسطى. يضاف الى ذلك ان الاتراك خافوا من العشيرة ومحاربيها العديدين وخشوا ان يكونوا رتلا خامسا يحتمل ان يهددهم وارادوا ان يسترضوا شمر خلال سنوات الحرب¹.

احتفظ الاتراك بولاء العشيرة بدفع رواتب شهرية واسناد مهام عسكرية ضئيلة مفيدة لرؤساء مختارين. ومن الامثلة لذلك تجربة مشعل بن فارس الرئيس الاعلى لشمر الغربية الذي منح رتبة مقدم ومخصصات شهرية كبيرة لحراسة سكة حديد حلب - الموصل ضد المخربين². لكن الاتراك استخدموا شمر الجرباء كمساعدين عسكريين ضد القوات البريطانية في معركة واحدة مسجلة فقط. اشتركت مفرزة من رجال شمر في هجوم تركي على الحامية البريطانية في الشعبية قرب البصرة في 12 نيسان 1915. بعد ثلاثة ايام من القتال العنيف خسر الجيش التركي خسائر فادحة وانسحب بعد ان اخفق في الاستيلاء على الشعبية³.

تكبدت الاستراتيجية البريطانية اندحارا كبيرا حين استعادت القوات التركية الاستيلاء على الكوت في 29 نيسان 1916 بعد حصار طويل

¹ ئي رباث: التطور السياسي لسورية تحت الإنتداب (بازيس 1928) ص241

² (غير موجودة في الأصل)

³ فون اوبنهايم: البدو الجزء الأول ص141. للأطلاع على تفاصيل المعركة راجع ارنولد ولسن: ولاءات العراق 1914-1917 الجزء الأول (لندن 1930) ص34-35. العزاوي: تاريخ العراق الجزء الثامن ص287-279.

الامد. ولم يستطع الجيش البريطاني بقيادة الجنرال مود الا في كانون الاول من تلك السنة ان يستأنف مسيرته مرة اخرى نحو بغداد. وضعت القوات البريطانية خطة مفصلة ترمي الى تلافي مشاكلها التموينية السابقة وتمكنت اخيرا من الدخول الى بغداد مدينة الخيال في 11 آذار 1917¹.

مع ان الجيش البريطاني قد احتل عاصمة العراق السياسية فانه بقي في وضع ستراتيجي قلق. كان الوضع السليم يتطلب السيطرة على المنطقة شمالي بغداد وغربيها. خلال السنة والنصف التالية انسحبت القوات التركية نحو الشمال على طول نهر دجلة امام التقدم البريطاني المستمر. ولما وصلت انباء الهدنة الى بغداد في 2 تشرين الثاني 1918، كانت القوات البريطانية قد تقدمت شمالا حتى الكيارة (القيارة) على بعد نحو اربعين ميلا جنوبي الموصل. ورفض علي احسان باشا القائد التركي في الموصل في بداية الامر تسليم البلدة الى البريطانيين².

لكن بعد تبادل مذكرات وعقد مؤتمر في 7 تشرين الثاني مع القائد العام البريطاني الجنرال وليم مارشال، استسلم علي احسان باشا اخيرا

¹ ولسن: ولاءات الجزء الأول ص 232-234.

² لونغريغ: العراق 1900-1950 ص 91-92

ووافق على اخلاء ولاية الموصل خلال عشرة ايام¹. وهكذا في تشرين الثاني 1918 اصبحت القوات البريطانية تسيطر اسميا على ديرة شمر الشرقية. وفي الجانب الاخر من الجزيرة شهدت شمر الغربية تخلية ديرتها من القوات التركية التي مضت الى الشمال نحو ماردين ونصيبين. وقام ضابط عسكري بريطاني بملئ الفراغ السياسي في الجهة السورية من الجزيرة حين دخل الى دير الزور في كانون الاول 1918².

في خريف 1917 قابل البريطانيون لأول مرة الشيخ الشمري الشاب الناهض عجيل الياور واباه عبد العزيز بن فرحان حين جاء الى الجنوب من الجزيرة الشمالية التي كانت آنذاك لا تزال في الاقليم التركي، الى اراضي مخيماتها الشتائية بين الحلة والبغيلة³. ورافقت الشيخين نحو 1000 خيمة، اكثرها من فخذ العبد. في السنوات السابقة من الحرب تبعت العبد الشيخ حميدي بن فرحان الذي كان لا يزال مقيما في الاقليم التركي. لكن لاسباب غير معلومة تركه الفخذ

¹ ارنولد ولسن: ولاءات العراق 1917-1920، الجزء الثاني (لندن 1936) ص 20-21.

² لونغريغ: العراق 1900-1950 ص 106

³ ل/ب اند س/685، النشرة العربية رقم 70 ص 460، 1918/11/21. تعرف بلدة البغيلة الآن باسم النعمانية.

وانضم الى عجيل وعبد العزيز¹.

منذ 1917 وبعدها دارت شؤون شمر السياسية الداخلية حول قضية أي من شيوخ العشيرة المتعددين يحظى باعتراف البريطانيين الرسمي كرئيس اعلى. مثلما كان الامر قبل الحرب جعل العدد الكبير من ابناء فرحان باشا من الصعب جدا على شيخ واحد فرض سيطرته على كل شمر الشرقية. وقد أمل الشيخ فيصل بن فرحان الذي نال شرف زيارة شريف مكة الرئيس الضمني لحركة الاستقلال العربي، والذي كان اول شيخ شمري يقابل البريطانيين، ان يعترف به رئيسا اعلى².

تحدى اماله في الحصول على الدعم الحكومي مجئ عجيل الياور وعبد العزيز بن فرحان الى الاراضي البريطانية المحتلة في تشرين الثاني 1917³. ولم يحل شهر نيسان 1918 حتى هبط عدد اتباع الشيخ فيصل الى نحو 40 خيمة. خلافا لاتباع عجيل الياور العديدين انهى الدعم المحدود لفصيل اية او هام بريطانية حول دعواه

¹ وزارة الخارجية 3397/371 رقم 21421 التقرير نصف الشعري عن ولاية بغداد: اخبار العشائر، 1917/11/15.

² ل/ب اند س/685/10 النشرة العربية رقم 78 ص 34، 1918/2/11

³ وزارة الخارجية 3397/371 رقم 21421، التقرير نصف الشعري لولاية بغداد: اخبار العشائر، في 1917/11/15

لرئاسة شمر¹. هاجر عجيل وعبد العزيز، يرافقهما اتباعهما من العبدية، الى الشمال في آذار 1918 الى مراعيهما الصيفية. وفي ايلول من السنة نفسها، فاجأت عشيرة عنزة، وقد انذرت من قبل الاستخبارات البريطانية بقرب حصول غارة من شمر، جماعة غزو مؤلفة من 400 رجل يقودهم عجيل الياور جنوبي عانة (عنه)². وكانت هذه الغارة الفاشلة آخر عمل في المسرحية المحدودة بين بريطانية وشمر خلال الحرب العالمية الاولى.

¹ ل/ب اند س/10/732 التقرير نصف الشهري لولاية بغداد رقم 12، 1918/6/10.

² كالسابق

الفصل الخامس

مشیخة عجيل الياور

1940 – 1918

حين انتهت الحرب في تشرين الثاني 1918 اصبحت الولايات العربية التابعة للامبراطورية العثمانية في وضع غير معهود حقاً. لأول مرة خلال اربعة قرون تقريباً لم يسيطر الاتراك العثمانيون على مواطنها. أي شكل من السيطرة السياسية سوف يحل محل العثمانيين بقي غير واضح في اول الامر. انتشرت التخمينات حول البدائل المختلفة، من انشاء مملكة عربية الى سيطرة اوربية، في المدن الكبرى في العراق وسورية. حصلت المطامح العربية للاستقلال على دعمها البدائي من زعماء مدنيين سياسيين ومتقنين. اما سكان الريف البسطاء فبقوا نسبياً غير معنيين¹.

بالرغم من محاولات اصحاب النظريات الوطنيين العرب في دمشق وبيروت والقدس وبغداد، قررت مقدرات المنطقة السياسية من قبل الدول العظمى. وهذه النقطة الحيوية صورها الواقع، وهو انه حين انتهى القتال في تشرين الثاني 1918 احتلت القوات البريطانية معظم انحاء العراق مما منحها موقعاً ممتازاً تستطيع منه ان تؤثر في مستقبل هذه الولاية التركية السابقة. وخلافاً للوضع الثابت نسبياً في

¹ من تفاصيل الشؤون بعد الحرب راجع: هوارد سكار: بروز الشرق الأوسط 1914-1924 (نيويورك 1969) ص 252-290. بوش: بريطانيا، الهند 269-474. جوكا نيفاكيفي: بريطانيا وفرنسة والشرق الأوسط العربي 1914-1920 (اكسفورد 1969) ص 104-240. زين ن زين: الكفاح لأجل الاستقلال العربي: السياسة الغربية ونهوض الملك فيصل وسقوطه (بيروت 1960).

العراق، كانت الحالة في سورية غامضة في نهاية الحرب. اعترفت فرنسا، بنتيجة اهتمام يعود الى قرون مضت في المنطقة واحكام معاهدة سرية مقررّة، ان تتولى السيطرة على سورية بعد الحرب. لكن مطامح فرنسا خذلت حين تركت الهدنة الجيوش البريطانية والعربية بقيادة الامير فيصل تحتل معظم القطر السوري.

بينما استمرت مفاوضات الصلح في باريس خلال سنة 1919 وحتى سنة 1920، بقي العراق تابعا للحكم البريطاني¹. من ايار 1918 عمل العقيد ارنولد ت. ولسن وكيل مندوب ملكي ووجه انشاء ادارة مدنية واسعة. وكانت دائرة المندوب الملكي تدير كل شؤون العشائر و (السياسة) والامن والاحوال الاجتماعية. اما سائر الامور فيعالجها خمسة سكرتيرين للايراد (ايراد الاراضي، التسجيل، المنازعات، الزراعة والبلديات) والمالية (الميزانيات، التدقيق، الكمارك والعملية) والصحة (الصحة، والاشراف الصحي، السجون المدنية) والاشغال العامة (سكك الحديد، الموانئ، الري) والمواصلات. وبقيت الشرطة وشؤون المعارف ايضا تابعة لدائرة المندوب الملكي².

قام البريطانيون، عند تنظيم الحكم في العراق، باتباع التقسيمات الادارية التركية، وهي اللواء والقضاء والناحية، واعطاءها مسميات

¹ فيليب وآيرلند: العراق دراسة في التطور السياسي (نيويورك 1938) ص 136-276.

² لونغريغ: العراق 1900-1950، ص 107-114.

انكليزية مقابلة. وفي هذه الوحدات تولى الادارة موظفون عرب يحملون لقب متصرف وقائم مقام ومدير، يساعدهم ضباط سياسيون بريطانيون. وقد نفذ البريطانيون سياستهم العشائرية عن طريق تسلسل هؤلاء الموظفين مما اثر تأثيرا عميقا في البدو من امثال شمر خلال السنوات بين الحربين¹.

جاء التصرف النهائي في الولايات العثمانية العربية بتوقيع معاهدة سيفر في آب 1920 ومنح عصبة الامم الانتدابات في نيسان 1920 بين 1918 ونيسان 1920 عمل الاداريون البريطانيون في تيار متقاطع من الخلاف العراقي، لكن احكام الانتداب الممنوحة حديثا انتهت هذا الغموض لآمد قصير. حسب المادة 22 من ميثاق عصبة الامم جعل واجب تطوير الاقاليم التي لا تستطيع انذاك ان تقف وحدها على قدميها الى حد ان تصبح مستقلة (امانة مقدسة بيد الحضارة)². واشارت الفقرة الرابعة من نفس المادة الى الولايات العربية السابقة، بدون تسميتها فعلا، كمناطق تطور سكانها الى مستوى يمكن الاعتراف بهم بصورة مؤقتة كأمم مستقلة (بشرط تقديم مشورة ادارية ومساعدة)³.

¹ كالسابق ص 112-113.

² ارنست مين: العراق من الانتداب الى الاستقلال (لندن 1935) ص 67.

³ عب اللطيف الطيباوي: تاريخ سورية الحديث بضمنها لبنان وفلسطين (لندن 1969) ص 338-339.

تحملت بريطانيا العظمى هذه المسؤوليات فأتخذت الاجراءات التي تعد العراق للاستقلال في الوقت المناسب. واعيد تنظيم الحكومة المحلية في كانون الاول 1920 مع عدة استثناءات، فوضع في محل الضباط السياسيين البريطانيين متصرفين وقائمقامين عراقيين كحكام فعالين في الالوية. وهذا النظام للادارة المحلية وانشاء مجلس وزراء عراقي هيا لاهلين ان يروا ان العراقيين يشاركون في حكم بلادهم¹.

بعد موافقة مجلس الوزراء والموافقة الشعبية بطريقة الاستفتاء المعقود في تموز 1921، اصبح الامير فيصل الهاشمي، ملك سورية السابق، ملكا للعراق في 23 آب سنة 1921 ومع ان المملكة العراقية قد انشأت سنة 1921 فان بريطانيا العظمى استمرت تسيطر على البلاد المنتدب عليها الى سنة 1932. في سنة 1922 حلت معاهدة التحالف الانكليزية العراقية، التي تضمنت اكثر احكام الانتداب الاصلية، محل اتفاق عصبة الامم لسنة 1920. وقد اصاب العراق ظاهرا بهذه المعاهدة حكما اداريا داخليا واسعا ونفوذا محدودا على شؤونه الخارجية. لكن السلطة الحقيقية بقيت في يد المندوب السامي لان المعاهدة حافظت على السيطرة البريطانية على الشؤون الخارجية

¹ لونغريغ: العراق 1900-1950 ص129.

والمالية والقضائية والعسكرية¹.

في السنوات التالية حصل العراق على دستور (قانون اساسي) مكتوب ومجلس امة مؤلف من النواب والاعيان. زادت المطالبة باستقلال العراق في اواخر العشرينات، وبنتيجة مفاوضات جديدة عقدت المعاهدة الانكليزية العراقية لسنة 1930 التي هيأت لاستقلال العراق مع الاشراف البريطاني على الشؤون الخارجية والعسكرية. ثم بدأ الاستقلال سنة 1932 حين انضم العراق الى عصبة الامم. وكما نصت عليه المعاهدة، بقي النفوذ البريطاني الذي توجهه دار السفير محسوسا لمدة ربع قرن².

في سورية سارت الامور بعد الحرب مسارا مختلفا تماما عن العراق. في مواجهة مطالب فرنسا التعاهدية احتلت قوات بريطانية وعربية بقيادة الامير فيصل من مكة قسما كبيرا من سورية التاريخية حين وضعت الحرب اوزارها. وبينما قرر مؤتمر الصلح في باريس وعصبة الامم مصير سورية الرسمي، احتلت الجيوش الفرنسية المنطقة الساحلية وانشأ الامير فيصل حكومة عربية في دمشق. لكن الفرنسيين لم يهتموا هدفهم الاصلي، وانتظروا حتى حصلوا على الانتداب من

¹ دون بيرتر: الشرق الأوسط اليوم (نيويورك 1965) ص 374-377.

² هوارد م. ساكار: اورية تغادر الشرق الأوسط 1936-1954 (نيويورك 1972) ص 16-19.

عصبة الامم قبل مباشرة الحركات العسكرية لاحتلال بقية سورية¹.
انتهى الاستقلال السوري في 25 تموز 1920 حين خرج الملك
فيصل من دمشق امام الجيش الفرنسي المتقدم. وفي ادارة الانتداب
على سورية، اتخذت فرنسا سياسة فرق تسد أكدت على الخلافات
الدينية والعرقية والمحلية. وهذه السياسة المقسمة المقرونة بنظام حكم
محلي شغل فيه الموظفون الفرنسيون عددا كبيرا من المناصب الادارية
ادى الى ابطاء تقدم سورية نحو الاستقلال².

¹ ستيفن هـ. لونغريغ: سورية ولبنان تحت الأنتداب الفرنسي (لندن 1958) ص 61-123.

² الطيباوي: سورية ص 341-378.

الجزيرة

1920 – 1918

ان التحليل السالف للحوادث الوطنية والدولية بعد الحرب تهيئ الخلفية اللازمة لدراسة تاريخ شمر الجرباء بين الحربين. كما سيبدو واضحا ان الحرب العالمية الاولى وما عقبتها اثرت في مسيرة تاريخ شمر في الجزيرة اكثر من أي حادث آخر منذ سنة 1900. وبين التغييرات التي حدثت اهمها وابرزها تدمير الامبراطورية العثمانية. خلال اكثر من مائة سنة منذ هجرتها الى الجزيرة عاشت العشيرة تحت درجات مختلفة من السيادة العثمانية. واصبحت انماط سلوك شمر التي تطورت خلال القرن الاخير لا شان لها بعد الحرب. لقد حلت محلها علاقات جديدة لا بد من عقدها في نطاق انظمة الحكم التي انشأها الانتدابان البريطاني والفرنسي. والشعور بالامن الذي عرفه رعايا الاتراك المختلفون بنتيجة المشاركة الطويلة الامد مع حكامهم السابقين قد تبدد بسرعة. وقد اصبحوا الان يرون سادتهم الجدد وغير المعهودين بشك وتخوف.

في تشرين الثاني 1918 تحقق الشمريون ان القوات البريطانية احتلت جزءا كبيرا من ديرتهم التقليدية، لا سيما المنطقة التي تمتد من بغداد جنوبا الى الموصل شمالا وشرقا. ولما انسحب الاتراك نهائيا

صارت ولاية الموصل برمتها تحت السيطرة البريطانية¹. وإلى الغرب كانت شمر الغربية المقيمة في سنجق دير الزور أقل تأكيداً من وضعها السياسي فالقوات البريطانية نشرت حامياتها مؤقتاً في بلدة دير الزور على الفرات، ولكن في نفس الوقت طالبت حكومة الملك فيصل العربية أيضاً بالمنطقة¹.

ومهما يكن الوضع في أواخر 1918 وأوائل 1919 فإن عشيرة شمر واجهت أمكان وجود ثلاث حكومات منفصلة تسيطر على ديرتها. وكانت حالة الأمور هذه مصدر مشاكل متعددة في المستقبل. إن الحدود الجديدة سوف تعني أن هجرة شمر السنوية المقرونة بنشاطها في الغزو قد تسبب منازعات دولية. ووحدة العشيرة، وقد اخلت بها الخلافات الدائمة حول الرئاسة، تصاب بضعف آخر. يضاف إلى ذلك أن الشيوخ المنشقين الذين لم يكن في وسعهم فيما مضى الفرار من قبضة الحكومة بدون اجتياز السفارة الطويلة إلى جبل شمر في شمال جزيرة العرب، يستطيعون الآن بكل سهولة أن يجدوا ملجأً بمجرد العبور إلى قطر مجاور.

عدا هذه المشاكل الواضحة المتعلقة بالحدود، واجهت شمر مصاعباً محتملة أخرى تنشأ عن الانتدابين البريطاني والفرنسي. إن حقيقة أن العراق وسورية خرجا من التسوية السلمية دولتين منفصلتين

¹ الغزاوي: تاريخ العراق، الجزء الثامن ص 309-310

تحت الرعاية الغربية جعلت من المتوقع بروز أنظمة إدارية في المنطقة فعالة أكثر من تلك التي تعودت شمر عليها. لكن، من وجهة نظر شمر، هيا الحكم الإداري المحلي من قبل الفرنسيين والبريطانيين إمكانية كئيبة.

نفذت السياسة العشائرية البريطانية في العراق عن طريق نظام حكم غير مباشر. وهذه السياسة التي أنشأها لأول مرة السير روبرت ساندمان في بلوخستان في أواخر القرن التاسع عشر، استخدمت التنظيم العشائري القائم لإدارة مناطق واسعة وبعيدة نسبياً². يكلف شيخ معترف به رسمياً من الحكومة بتحمل المسؤولية :

لأجل السلم والنظام في عشيرته، لاعتقال المجرمين، لحماية خطوط المواصلات وممتلكات الحكومة. مقابل ذلك يمنح دعم الموظفين البريطانيين والنفوذ وإذا اقتضى الأسلحة...³

تضاف إلى هذه الواجبات سياسة الإعانات والإعفاء من الضريبة. بعد الحرب أصبح كل شيخ رسمي مسؤولاً أمام الضابط السياسي في منطقته. في سورية تطورت السياسة العشائرية الفرنسية حسب خطوط مختلفة. بدلاً من استعمال رؤساء العشائر كوسائل إدارية

¹ لونغريغ: العراق 1900-1950، ص 106.

² سي أي بروس: سياسة ساندمان تطبق على المشاكل العشائرية اليوم (في مجلة الجمعية الآسيوية الوسطى الملكية، 19 (1932) ص 50-51.

³ آيرلند: العراق 94.

اعتمد الفرنسيون على نفس موظفيهم كاداريين مباشرين للعشائر¹.

في صدد الحدود المعينة والادارة الفعالة والولاءات الثابتة ابرزت الجزيرة صورة ممتازة للفوضى. أخل انعدام الوحدة والنظام ايضا بشمر الجرباء، واصبح عهد النفوذ والقوة تحت رئاسة صفوق بن فارس مجرد حلم لا غير لشمر في سنة 1919. واذا عاد المرء الى الورا عشرين او ثلاثين سنة فقط فانه يجد العشيرة متحدة نسبيا يرأسها شيخان كبيران فقط فارس وفرحان بن صفوق. لكن منذ ذلك الحين اختل الاجماع على رئاسة العشيرة. ولم تحل سنة 1918، حين حاول البريطانيون اختيار رئيس اعلى مسؤول عن شؤون العشيرة، بدا انه من غير الممكن ايجاد رئيس يستطيع القيام بالمهمة².

ان عدم وجود رئيس شمري قوي والتكاثر التالي لزعماء ضعفاء متعددين يمكن شرحه بعدة طرق. قبل كل شئ تتطلب الزعامة العشائرية بعض الصفات التي تؤلف المادة الحيوية لحياة البدو التقليدية مع التاكيد على الشجاعة والكرم والحكمة فضلا عن شئ من قوة الشخصية. لا شك ان الشيخ البدوي الاعتيادي، خلافا لرجل مثل صفوق الشهير، لا يتوقع منه ان يمتلك كل هذه الصفات المثالية. وحقيقة مهمة تتصل بهذا العنصر هو التآكل التدريجي لثقافة شمر البدوية بدءا

¹ لونغريغ: سورية ص120، 127

² وزارة الخارجية 134082/4150/371، التقرير الشهري عن الأراضي المحتلة، كانون الثاني 1919.

من مشروع اسكان فرحان باشا في الشرقاط سنة 1870 الى سنة 1918 نفذت عدة مشاريع اخرى لاسكان شمر على جانب الجزيرة. فالشيخ حميدي بن فرحان وبدر بن فرحان شجعا الاستيطان على قناة الفرحتية قرب بدر على دجلة شمالي بغداد. كذلك الشيخان عجيل الياور ومحمد الانجرفي من الموصل كان لهما اهتمام بمشروع اسكان في الشورة الواقعة على نهر دجلة ايضا بين قلعة الشرقاط والموصل¹.

اخذ عامل ثان بوحدة شمر هو تتصل القداسة والاحترام المحيطين باسرة آل محمد التي كان شيوخ العشيرة يختارون منها². في بادئ الامر دخلت العشيرة الى الجزيرة بقيادة رجل واحد من آل محمد الشيخ فارس الجرباء. وفي الاجيال التالية انتقلت المشيخة الى عدد متزايد من السلالة مما جعل من الصعب لرجل فرد ان يوطد زعامته العليا على العشيرة.

ثالثا:، مع تكاثر اسرة آل محمد جاءت سياسة الحكومة التركية في الوقت نفسه تفرق بين ابناء العشيرة بدعم دعاوى رؤساء متعددين. رابعا:، ان التكنولوجيا الحديثة والادارة التركية المتحسنة في الولاية خلال اواخر القرن التاسع عشر ابعدت احتمال بروز زعيم عشائري قوي. هذه التغييرات منعت أي شيخ من الحصول على نفوذ له

¹ وزارة المستعمرات 3/696 التقرير السنوي 1920 "لواء الموصل" ص 9-11.

² كالسابق ص 8

صلة بدحر القوات الحكومية، وهو عمل ساعد رؤساء شمر في الماضي على توحيد القبيلة¹.

هكذا في سنة 1919، حين اراد البريطانيون ان يعترفوا بشيخ شمري واحد كرئيس اعلى، انتهت جهودهم بالاخفاق². ولاجل ان يكون نظامهم للادارة غير المباشرة فعالا كان على البريطانيين ان يقوموا في اول الامر بتعيين رئيس اعلى لشمر ثم دعمه. وهذا العمل يغير بصورة محسوسة شكل زعامة شمر، فمستلزمات الرئاسة لن تعتمد في الاساس على عوامل عشائرية، بل بدلا من ذلك، تصبح الحكومة المركزية الحكم النهائي في هيكل قوة العشيرة.

كان الشيخ العشائري فيما مضى الاول بين اقرانه، لا حول له الا ما يناله بشخصيته الرفيعة. ولم يكن له الا القليل من المزايا الخاصة والقليل من الثروة. تحت النظام البريطاني للحكم غير المباشر، يكون مركز الرئيس الاعلى ومصالحه شخصية اكثر مما هي عشائرية. وكما يدل عليه تاريخ شمر الجرباء خلال سنوات العشرين واوائل سنوات الثلاثين (من القرن العشرين) فان الرئيس الاعلى الذي خدم المصالح البريطانية كان مختلفا كل الاختلاف من أي زعيم اخر عرفته العشيرة في يوم ما.

¹ للأطلاع على تفاصيل هذه الاصلاحات الادارية والعسكرية راجع الفصل الرابع ص
² لونغريغ: العراق 1900-1950 ص106، وزارة الخارجية 134082/4150/371 التفرق الشهري عن الاراضي المحتلة، كانون الأول 1918.

شؤون العشيرة

1919 – 1922

بعد اخلاء الاتراك لولاية الموصل بقيت الجزيرة مختلة الى درجة بعيدة. فالسكان المحليون الذين مثلت عشيرة شمر بينهم عددا كبيرا، وسادتهم البريطانيون لم يعلموا كلاهما ماذا يحمل المستقبل في طياته. وبقيت القضية المهمة المتعلقة بالمقدرات السياسية لولاية الموصل معلقة. وبقي ابن العاصي في محله وتسلم الشيخ حميدي بن فرحان اعانة شهرية قدرها 250 روبية للسيطرة على فخذي العبد والصائح. منح دحام بن الهادي ايضا اعترافا حكوميا كرئيس اعلى مع اعانة شهرية بعد اعادة مبلغ 3500 ليرة تركية نهبها على طريق نصيبين الموصل في اوائل تلك السنة. واخيرا اهان العقيد ليجمن عجيل الياور ابن عبد العزيز بن فرحان فترك عجيل الموصل فورا. واصبح يكره البريطانيون كرها شديدا. واتضح من هذا الاجتماع ان عادة استيفاء الخاوة من المسافرين والقوافل التجارية والقرى المستوطنة لا بد ان يمنع في النهاية. لكن بالنظر الى ضعف وضع الحكومة سنة 1919، استمر فرض الخاوة في البادية، لكنها منعت

بين الزراع المتوطنين¹.

انتج اجتماع الموصل تغييرا ضئيلا في عادات شمر التقليدية. وفي نهاية 1919 اتبعت اوامر البريطانيين فحذا العبدية والصائح فقط برئاسة الشيخ حميدي، اما الافخاذ الاخرى المتفرقة تحت رئاسة شيوخها المتعددين فاستمرت على الغزو وفرض الخاوة. ولكن في شهر كانون الاول دفع دهام الهادي 1800 ليرة تركية من المبلغ المدين به للحكومة². وجد نفور شمر من البريطانيين نقطة ارتكاز جديدة في كانون الاول 1919 بعد ان حلت قوات سورية يقودها القائم مقام رمضان الشلاش محل الحامية البريطانية في دير الزور. وبعد الانسحاب اصبح نهر الخابور حدودا مؤقتة بين سورية والعراق³. يضاف الى ذلك ان الدعاية الشريفة التي تدعو العشائر العربية في العراق الشمالي الغربي الى الثورة اصبحت احدى التحديات المتعددة

¹ وزارة المستعمرات 30/692 التقرير السنوي 1920 (لواء الموصل) ص6. اليزابيث برغوين: جرتود بل: من اوراقها الخاصة 1914-1926 الجزء الثاني (لندن 1961) ص237.

² امر الموظفون البريطانيون دهام ان يعبر 3500 ليرة تركية نهبا في حادثة سلب على طريق نصيبين قبل ذلك في تلك السنة انتظر دهام ليرى ماذا يكون المستقبل فأعاد مبدئيا 1800 ليرة تركية فقط من المبلغ المدين به. لكن في تاريخ لاحق دفع مبلغ 500 ليرة تركية اخرى آملا ان يستعيد دعم الحكومة.

³ وزارة المستعمرات 3/696 التقرير السنوي 1920 (لواء الموصل) ص1

للبريطانيين سنة 1920. برزت الانقسامات الدائمة المذهبية والعرقية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية في العراق الحديث في صيف 1920.¹ وحصلت غارة من الخيالة الشريفة ضد عدة حاميات بريطانية في الجزيرة خلال اوائل حزيران، فبدأت سلسلة من اختلالات الامن غمرت المناطق الزراعية الوافرة السكان في جنوب العراق. ولأجل اعادة الامن جلب المندوب الملكي البريطاني أ ت ولسن قوات هندية بينما استمر احتلال العراق الجنوبي والوسط خلال السنة².

من كانون الثاني الى اخر ايار 1920 بقيت افخاذ شمر المتعددة، كل منهما تحت رئيسته الخاص، مختلفة في موقفها نحو البريطانيين. بعض الشيوخ كحميدي ودهام الهادي وفيصل، نفذوا في الظاهر تعهداتهم للخدمة بصفة رؤساء العشيرة الرسميين. واتباعهم، مع ادعائهم بالولاء للبريطانيين، استمروا مع ذلك على استيفاء الخاوة وشن الغارات ضد اعدائهم التقليديين. والى الغرب خيم الشيوخ مشعل الفارس وبنيان بن شلال وعجيل الياور مع اتباعهم قرب دير الزور وكانوا

¹ ايلمر ل. هالدين: الثورة في العراق 1920 (ادنبرة 1923). أمل فينو غرادوف: اعادة النظر في ثورة العراق لسنة 1920: دور العشائر في السياسات الوطنية (المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط، 3) (1972) ص 123-139.

² لونغريغ: العراق 1900-1950 ص 122-126.

عنصرا مناوئاً للبريطانيين من بين شمر¹.

كانت معارضة شمر في مبدأ الامر هادئة، غير انها بلغت اوجها في اوائل حزيران. تآثر الشيوخ حميدي وعجيل الياور ومشعل الفارس وبنيان ووطبان بن فيصل بالدعاية الشريفة الموجهة ضد البريطانيين فانضموا الى قوات جميل بك النيناوي (احد خلصاء الملك فيصل الذي اتخذ بعد ذلك اسم جميل بك المدفعي واصبح رئيس وزراء العراق) القائد الشريفي والشيخ مسلط من عشيرة الجبور. في 4 حزيران هجمت هذه القوة المؤلفة من عناصر مختلفة على تلعفر وقتلت اربعة جنود بريطانيين واستولت على البلدة. وفي اعقاب انتصارهم مضت جماعات غزو برئاسة بنيان ووطبان وعدة شيوخ صغار اخرين فهاجمت طريق الموصل - الشرجاط وعدة قرى شرقي دجلة. ومع ان هذه الغارات سببت الذعر في الموصل والارياق المحيطة بها فان الهجوم فقد قوته ولم يلبث ان دحر امام القوات البريطانية والعراقية. وفي نهاية حزيران زال الخطر واستعاد البريطانيون سيطرتهم مرة اخرى على تلعفر. لكن العراق بقي في حالة

¹ وزارة المستعمرات 3/696 التقرير السنوي 1920 (لواء الموصل) ص6. للاطلاع على اسماء شيوخ شمر الذين اشتركوا في ثورة تلعفر سنة 1920 راجع قحطان التلعفري: ثورة تلعفر 1920 (بغداد 1969) ص171.

من اختلال الامن بسبب انتشار الثورة في الجنوب¹.

لم يكن لدى البريطانيين القوة العسكرية اللازمة لاحتلال كل الجزيرة فحاولوا مرة اخرى السيطرة على شمر عن طريق سياستهم في الحكم غير المباشر. ارغمت طوارئ مختلفة الحكومة على الاعتراف بدهام الهادي رئيسا اعلى. وان حقيقة كون الجزيرة في حالة فوضى وضرورة ايجاد ركيزة يمكن ان يسند عليها بوجه ما شبه امن ونظام² استلزمت ذاك الخيار. يضاف الى ذلك ان دهام الهادي لم يشترك في الغارة الشريفة على تلعفر. بعد المباحثة في الامر مع الموظفين البريطانيين في الموصل، رضي دهام بمسؤولية حماية مصالح الحكومة وتأمين امن الطرق ومحاولة استرجاع المنهوبات. مقابل هذه الخدمات منح اعانة شهرية واجيز استيفاء الخاوة في طريق دير الزور - الموصل³.

حدثت مصاعب جديدة بين شمر والبريطانيين في آب حين اخذ فحذا الصائح والعبدة البريطانيين على حين غرة وحاولا الهجرة الى الجنوب سرا. وقد نجحت خطتهم بصورة عامة عدا مجهودا بريطانيا ضعيفا لوقف هجرتهم ادى الى مقتل ضابط خيال بريطاني وستة من

¹ كالسابق ص 2-4.

² كالسابق ص 6.

³ كالسابق.

جنوده¹. وقضى دهام الهادي بقية السنة بجوار مملحة الاشجار (؟) او الحضر. وحينما كان في الجنوب وجه اهتمامه الى فرض الخاوة بصورة مفرطة وشن الغارات عبر الفرات².

وفي عدد من المناسبات ادعى دهام ان وقف هذه النشاطات البدوية التقليدية تنفر رجال عشيرته. واشتكى ايضا انه لا يستطيع وقف الغارات دون دعم من الحكومة. وقد اقترح الموظفون البريطانيون جوابا على معروضاته ان تمويل الحكومة مفرزة من خمسين خيالا شمريا غير نظامي في النجمة لحماية طريق الشرقاط والمساعدة على السيطرة على العشيرة. قبل دهام هذا العرض بصورة تجريبية وارسل " الملا " التابع له ثلاثين من عبيد شمر الى الموصل للتجنيد وتسلم بنادق تجهزها الحكومة. لكن الاتفاق تدهور حين سجن دهام " الملا " ونزع اسلحة الرجال. ولما امر دهام باعادة الاسلحة التي جهزتها الحكومة هرب الى البادية³.

بقي دهام الهادي بعد فراره خارج السيطرة البريطانية الى نيسان 1921 حين اعاد الثلاثين بندقية الى الموصل. ويحتمل ان هذا العمل نشأ عن تاثير ضعف المراعي وحاجة شمر بنتيجة ذلك الى شراء

¹ كالسابق ص7. جريدة "التيمس" (لندن) 16 آب 1920 ص9. هالدين: الثورة ص232.

² وزارة المستعمرات 3/696 التقرير السنوي 1920 (لواء الموصل) ص7.

³ كالسابق ص 7-8

الحبوب من الموصل وتلعفر¹. وقد انقلبت الحوادث تماما فزار دهام الموصل في شهر حزيران، واعترف باخطائه العديدة، وطلب بدء بداية جديدة بصفته الرئيس الاعلى المعين من البريطانيين. وبموجب اتفاق جديد، وافق مرة اخرى على السيطرة على عشيرته ووقف الغزو المتواصل وتنظيم استيفاء الخاوة واعادة المنهوبات. مقابل ذلك منح :

1. قرية على طريق نصيبين للقيام بالزراعة لمدة خمس سنوات مع الخيار في شرائها في نهاية المدة . 2. الحق الوحيد لاصدار اجازات لرجال عشيرته لشراء الحبوب من الموصل وسائر انحاء العراق . و 3. نسبة مئوية من ايرادات رسوم الملح².

هذا التغيير في موقف رجل وصف في تقرير بريطاني رسمي بانه " في مطلع الشباب، جاهل جدا، متعجرف جدا³، لم يأت بطبيعة الحال من سماحة قلبه. لكن دهام الهادي علم بذكائه من استبعاد البريطانيين لرؤساء شمر المختلفين الذين تورطوا في الغارة على تلعفر لن يكون طويل الامد. اكدت حوادث تموز وآب بسرعة شكوكه حول الولاءات المتذبذبة لبعض شيوخ شمر. وظهور عجيل الياور على المسرح العراقي بعد غياب سنة في سورية وتركية سرعان ما غير

¹ وزارة الخارجية 6352/371 ئي 8635 تقرير استخبارات العراق رقم 14، 1921/6/21.

² وزارة الخارجية 6352/371 ئي 10162 تقرير استخبارات العراق رقم 18، 1921/8/1.

³ وزارة المستعمرات 3/696 التقرير السنوي 1920 (لواء الموصل) ص3

العلاقات بين دهام والبريطانيين¹.

اتفقت عودة عجيل الى تيار شؤون العشيرة مع وصول الامير فيصل ملك سورية السابق المرشح الاول للعرش العراقي. مع التأييد البريطاني القوي والتاكيد الساحق من "الاستفتاء" الوطني توج الملك فيصل في 23 آب 1921. امل الملك الجديد ان يخلق لنفسه مركز قوة، فحاول ان يكسب رعاية ودعم رؤساء العشائر الاقوياء وخلال مدة حكمه نمت الملك فيصل الصداقة التي عقدها مع الشيخ عجيل الياور في سورية، فان رئيسا قويا وقديرا مثل عجيل غير مدين بولاء خاص للبريطانيين يكون ذا قيمة كبيرة للملك الجديد².

ارسل الملك فيصل، بموافقة البريطانيين، تحسين علي رسوله الخاص لزيارة عجيل الياور في مخيمه قرب ماردين في تركيا³. ولما رأى الشيخ الثائر تشجيعا لمقابلة الملك غادر تركيا ووصل بغداد في منتصف آب 1921¹. وفي الاسبوعين التاليين حاول كل من دهام الهادي وعجيل الياور، وكل منهما يقدم ولاءه للملك فيصل، ان

¹ وزارة الخارجية 6353/371 ئي 10162، تقرير استخبارات العراق رقم 22، 1921/10/1.

² لونغريغ: العراق 1900-1950 ص 126-133.

³ وزارة الخارجية 6352/371، ئي 10162، تقرير استخبارات العراق رقم 18، 1921/8/1.

يحصل على العطف الملكي والسيطرة على قبيلة شمر العراقية. بالرغم من سجل تعاونه مع البريطانيين ودعم جده المتنفذ الشيخ العاصي حارب دهام حربا خاسرة ضد الخطوة الممتازة لعجيل الياور لدى الملك وجاذبيته الشخصية كشيخ بدوي كيس وحكيم².

توافد الوجهاء البغداديون وشيوخ العشائر المتنفدون على المجلس الذي يعقده عجيل، حيث بهرتهم شخصيته الجذابة وقصصه المسلية. على عكس ذلك كان دهام مجهدا في جهله وشبابه، وسرعان ما وجد وضعه كرئيس العشيرة الاعلى متهاويا امام حظ عجيل الصاعد. وقد ملئ الغيظ قلب دهام المستضعف على الملك فيصل وازدرى عجيل الذي كان يغتصب منصب اسرته، فغادر بغداد ومضى مسرعا نحو نهر الخابور¹.

تحركت الامور بسرعة خلال سنة 1922 حين رغب عجيل الياور ان يثبت منصبه الذي ناله حديثا كشيخ مشايخ شمر. وبنتيجة تسلمه المسؤولية ذات النفوذ والمال الزاخر لانشاء فرقة من الهجانة لحراسة البادية الغربية، فقد بذل جهوده عبثا ليترك انطباعا طيبا لدى المحسنين اليه. وجد مقاومة من رجال عشيرته الذين احتفظوا بتعاطفهم مع دهام الهادي. وقد اخفق عجيل في تجنيد رجال كافين لفرقة

¹ كالسابق

² وزارة الخارجية 6352/371 ، تقرير استخبارات العراق رقم 22، 1/10/1921.

الهجانة وفي الوقت نفسه، في موقعه بعيدا عن الحدود العراقية السورية، عاد دهم الشاب الغاضب لفرض الخاوة على طريق الموصل - دير الزور وحاول استعادة منصبه كرئيس اعلى لشمر العراقية².

جرى تبادل رسائل بين الملك فيصل ودهام انتهى بزيارته بغداد في اب 1922. وفي نهاية الاجتماع كان واضحا ان عجيل الياور يبقى رئيسا اعلى لشمر. لكن الملك امل ان يهدئ الرئيس الاعلى السابق وعرض عليه اعانة ومرتبة رئيس عشائري وحق توقيع اجازات الدخول الى المدن. رفض دهم الهادي المغتاط قبول هذا التخفيض في مرتبته فعاد مرة اخرى الى الحدود السورية وفتح المفاوضات مع الفرنسيين³ لقد فقد امتيازهم في العراق - حق استيفاء الخاوة على طريق الموصل - دير الزور من السيارات وقطعان المواشي غير المحروسة - فانهى الرئيس الاعلى السابق تلك السنة كخارج على القانون مطلوب⁴.

¹ وزارة الخارجية 6353/371 ئي 10532 تقرير استخبارات العراق رقم 15/8/1921.

² وزارة الخارجية 7771/371 ئي 5311 تقرير استخبارات العراق رقم 9، 1/5/1922.

وزارة الخارجية 7771/371 ئي 5937، تقرير استخبارات العراق رقم 10، 15/5/1922.

³ وزارة الخارجية 7771/371 ئي 8715، تقرير استخبارات العراق رقم 15، 1/8/1922.

⁴ الطيران 257/23 قسم 2/ ملف 13، كوكس الى تشرشل، 18/8/1922.

الصراع بين دهام الهادي وعجيل الياور

1932-1922

مضى دهام متمثلاً بالعديد من رؤساء شمر السابقين الخاسرين مسرعاً نحو نهر الخابور ليخطط ثأره لكن خلافاً لفارس بن صفوق الذي وجد مأمناً في الانحاء البعيدة بجوار الخابور قبل نصف قرن، كافح الشيخ المعزول دون نجاح نحواً من عشر سنين ليستعيد منصبه. ان تحليل هذا الكفاح الطويل لايعطي صورة مفيدة لسياسة شمر الداخلية فحسب، بل يهيئ أكثر من ذلك فرصة حسنة لتقدير تحول الحياة البدوية الذي فرضته التغييرات العديدة السياسية والاجتماعية والاقتصادية خلال سنوات ما بين الحربين العالميتين.

التجأ دهام الهادي الى فخذ الخرصة الذي كانت ديرته تقع على جانبي الحدود السورية العراقية¹. ظل خلال عشر سنوات تقريباً يؤكد ان التقاليد العشائرية تقتضي ان يكون هو، وليس عجيل الياور، رئيس شمر الاعلى. ومع انه لم ينجح في اقناع الحكومة العراقية او مستشارين بريطانيين فقد استمر دهام على التمتع بشعبية كبيرة بين رجال شمر

¹ وزارة الخارجية 9009/371 ئي 4743، تقرير الاستخبارات العراقية رقم 8، 1923/4/15.

بسبب الدعم المتواصل من جده الشيخ العاصي¹.

بعد ان انحاز دهم الى الخرصة سنة 1923 بقي الوضع الجغرافي لشمر ثابتاً شيئاً ما خلال السنوات القليلة التالية. كان لكل من الجماعات الكبرى الاربع في العشيرة رئيسها الخاص. فرجال العشيرة المقيمون في تركية برئاسة الشيخ العاصي الجزيل الاحترام الفوا اصغر جماعة. كان هذا الشيخ البالغ ثمانين سنة من العمر يحتقر البريطانيين والفرنسيين فاختر ان يمضي ايامه الاخيرة في ظل الاتراك سادته السابقين بقي معه حتى وفاته سنة 1925 العديد من ابنائه الكثيرين واتباع الشيخ الصغير عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم. وكان تأثيره على شؤون شمر ادبياً اكثر منه سياسياً².

تألفت الجماعة الثانية من شمر السورية او الغربية تحت رئاسة الشيخ مشعل بن فارس. وهذا الفخذ من العشيرة الذي كان يدعي الانحدار من سلالة عمشة احدى زوجات الشيخ صفوق كان يعيش جنوبي دير الزور على نهر الخابور منذ اواخر سنوات السبعين من القرن التاسع عشر. وفي النزاع بين عجيل ودھام بقي مشعل الفارس عموماً على الحياد صارفاً جهوده في خدمة الرئيس الاعلى الذي عينه

¹ وزارة الخارجية 9009/371 9009/371، تقرير الاستخبارات العراقية رقم 7، 1923/4/1.

² الطيران 259/23/ القسم 4، ضابط الخدمة لخاص في الموصل الى استخبارات الطيران رقم 1251 في 1923/9/4.

الفرنسيون لشمر الغربية¹.

الفت شمر العراقية او شمر الشرقية اساسا من فخذ العبدية وكانت اكبر الجماعات الاربع. وكان عجيل الياور بصفته الرئيس الاعلى الحكومي يرأس حسب المفروض كل شمر في العراق². والجماعة الرابعة والاخيرة من عشيرة شمر الخرصة برئاسة دهام الهادي كانت تقيم على جانبي الحدود السورية العراقية. ودهام الذي كان يعيش مرة في سورية واخرى في العراق، لم يستطع ان يحرز لنفسه مركز قوة كما فعل عجيل الياور ومشعل الفارس³.

حينما حاول دهام ان يستعيد منصبه كرئيس عراقي اعلى في اوائل 1923، كانت الجزيرة عموما والقطاع الفرنسي خصوصا في حالة من الفوضى. غلب الشك وعدم الثقة بين البريطانيين والفرنسيين والاتراك حول مطامحهم الاقليمية الواحد تجاه الاخر. انشئت ادارة بريطانية على شكل قوة عسكرية محدودة وخطوط عامة لسياسة عشائرية فعالة في العراق. وفي الجانب السوري من الجزيرة لم تنجز التهذئة العسكرية الفرنسية، والفت السياسة العشائرية عموما من

¹ زكريا: عشائر الشام ص 281-282.

² وزارة الهند ب اندس/المكتبة، التقرير العسكري عن العراق 1-1 الجزيرة الشمالية (1922) ص 106-111.

³ فون اوبنهايم: البدو، الجزء الاول ص 151.

التدخل العسكري المباشر ضد العشائر المتمردة على الخصوص.¹ وإلى الشمال استخدمت تركية عشائر عربية وكردية مختلفة كألحوبة في خططها لاسترجاع الاراضي التي خسرتها في العراق وسورية.²

وجد دهم هذه الاحوال مثالية في مضايقة عجيل الياور في امل تشويه سمعة خصمه. اصبحت المواصلات على طريق دير الزور الموصل عرضة لاستغلال شمر المتواصلة لفرض الخاوة في النصف الاول من السنة. ونتجت اختلالات اخرى من عادة الغزو القديمة بين العشائر. وشهد فصل الربيع هجوم عشيرة الدليم على العقيدات فضلا عن الصراع المعتاد بين عنزة وشمر. وفي سبيل وضع حد نهائي لهذه الفوضى اجتمع الممثلون البريطانيون والفرنسيون في دير الزور للمباحثة في مشاكل العشائر الراهنة.³

افضى هذا المؤتمر الى وقف المناوشات بين الدليم والعقيدات،

¹ الطيران 258/23/ القسم 3، السكرتير الشخصية للمندوب السامي الى الطيران بغداد، 17/11/1923. وزارة الخارجية 9009/371/ ئي 4188، تقرير الاستخبارات العراقية رقم 7، 1/4/1923، ئي 2123 تقرير الاستخبارات رقم 8 في 15/4/1923.

² الطيران 258/23/ القسم 3، ضابط الخدمة الخاص بغداد الى استخبارات الطيران رقم م29 في 14/5/1923.

³ وزارة الخارجية 9009/371/ ئي 2341، تقرير الاستخبارات العراقية رقم 3، 1/2/1923، ئي 1948 تقرير الاستخبارات رقم 2، 15/1/1923-وزارة المستعمرات 38/736 بغداد، دويس الى دي كية رقم 50/372/1، 3/3/1923.

لكنه اخفق في التقليل من تناوب الغارات التي يشنها دهام واتباعه الذين مازالوا يخلون بالامن على طريق دير الزور - الموصل في اواخر الخريف¹. وفي كانون الاول عين الفرنسيون مشعل الفارس رئيسا اعلى لشمر عمشة (الغربية) وجعلوه مسؤولا عن المنطقة بين دير الزور والحسكة في الشمال. وعلى مثال ذلك قبل دهام الهادي ايضا اعتراف الفرنسيين واعانة شهرية كرئيس لاتباعه من فخذ الخرصة. وقد وافق مقابل ذلك على حماية طريق الموصل ووقف استيلاء الخاوة من السيارات والتجار المارين. اما بين شمر العراقية فزاد اللاحاح المتواصل من جانب البريطانيين على عجيل الياور لوقف غارات شمر.²

في سنة 1924 اخذت السياسة الادارية البريطانية والفرنسية تمس اكثر فاكثر بامتيازات العشيرة التقليدية. وجدت العشيرة نفسها على جانبي الحدود تواجه سياسة مرصودة لتأمين الامن والنظام في الجزيرة. خشى الشيوخ عجيل ودهام ومشعل الفارس كلهم هذه السياسة لانها

¹ وزارة الخارجية 9009/371/ ئي 9847، تقرير الاستخبارات العراقي رقم 17، 1923/9/6 - الطيران 259/23/ القسم 4 ضابط الخدمة الخاص، بغداد الى استخبارات الطيران رقم 168، 1923/9/27 - الطيران 259/23/ القسم 4 ضابط الخدمة الخاص الموصل الى استخبارات الطيران، رقم 1282، 1923/11/19.

² الطيران 259/23 القسم 4، رسالة من مشعل الفارس الى عجيل الياور في 1923/11/1.

هددت تهديدا شديدا نظام حياة شمر التقليدية¹.

بدأ دهم الهادي السنة كرئيس اعلى للخرصة في سورية يواصل جهوده للتقليل من شأن عجيل الياور عن طريق الاسلوب التقليدي من شن الغارات و دس الدسائس. وقد شن الغارات على عنزة وطى وعشائر الدليم فضلا عن فخذ العبدية فعادى الفرنسيين بتجاهل واجبه في وقف الغزو العشائري.² وفي نفس الوقت واجه عجيل مشكلة مقابلة تماما في العراق. لقد علم ان منصبه كشيخ اعلى يعتمد على صلاته الودية مع الملك فيصل وعلى الدعم البريطاني فحاول السيطرة على غزو شمر³.

ان جهوده لضبط رجال عشيرته واسترجاع المواشي المنهوبة اغضب الكثيرين من شمر العراق. وقد امل ان يؤكد للعشيرة خطورة عصيان اوامر الحكومة ضد الغزو بين العشائر فقبض على احد كبار شيوخ العبدية بنيان بن شلال بن فرحان ورتب لسجنه في الموصل.

¹ كالسابق.

² الطيران 259/23 القسم 4، ضابط الخدمة الخاص، بغداد الى استخبارات الطيران رقم 1331، 1/1/1924 - وزارة الخارجية 10097/371 / ئي 1616، تقرير الاستخبارات العراقية رقم 3، 7/2/1924. الطيران 85/23 القسم، ضابط الخدمة الخاص الموصل الى استخبارات الطيران رقم جي/125 في 25/11/1924.

³ الطيران 13/1/260/23 ضابط الخدمة الخاص الى استخبارات الطيران رقم 1430 في 2/5/1924.

هرب بنيان، وهو يواجه غرامة فادحة وسجنا محتملا، وطلب ملجأ لدى دهام في سورية¹. ولم يمض امد طويل حتى انشق اولاد شلال بن فرحان عن عجيل وانضموا الى بنيان في سورية. وقد رأى عجيل مشكلة مركبة من غارات دهام واولاد شلال فحاول خلال سنة 1924 أن يسترضي بنيان الغاضب².

ان الغارات التي شنّها دهام الهادي وانضمت اليها شمر العراقية زادت في شدتها وسعتها. وهذا الاستخفاف بالصفيق بالسلطة الفرنسية ادى في النتيجة الى عزل دهام كرئيس اعلى وطرده بعد ذلك الى خارج الاراضي السورية بتهديد الهجوم من القوة الجوية الفرنسية³. طرد دهام من ملجأه السوري فكتب فورا الى الملك فيصل عارضا ولاءه الشخصي ومدعيا ان ابن عمه عجيل هو الذي منعه من العيش بسلام في العراق. وقد ظل على الحدود العراقية يستمر في المفاوضات من تشرين الاول الى كانون الاول مع الملك فيصل الذي مضى حتى الى

¹ الطيران 260/23 قسم 5، ضابط الخدمة الخاص الموصل الى استخبارات الطيران رقم 1381، في 12/3/1924.

² الطيران 13/1/260/23 ضابط الخدمة الخاص الموصل الى استخبارات الطيران رقم 1417 في 5/5/1924. الطيران 261/23 القسم 6، ضابط الخدمة الخاص الموصل الى استخبارات الطيران 1924/10/14.

³ الطيران 8/23 القسم 1، ضابط الخدمة الخاص الموصل، التقرير الاسبوعي رقم جي/125، 25/11/1944.

تحديد موعد للاجتماع في الموصل. لكن دهام تهرب من الموعد ولم يترك سبيلا للمصالحة¹.

وفي الوقت نفسه فاتح عجيل مرارا عن موضوع السلام دهام وبنيان كليهما من تشرين الاول 1924 الى نيسان 1925، لكن دهام، امام عروض متكررة، رفض ان يجتمع بعجيل². ولأجل ان يؤكد غيظه أكثر من ذلك شن شيخ الخرصة عدة غارات صارخة ضد رجال الشيخ عجيل. وفيما عدا الفشل في الفوز بالصلح مع دهام وبنيان وشلال والعاصي الذي انضم الى حفيده المفضل في سورية، تمتع عجيل بصلات طيبة مع كل شمر العراقية³.

وجاءت شعبيته المؤقتة من كرمه في تعويض خسائر العشيرة التي تكبدتها خلال شتاء شديد البرد جدا⁴. ولكن هذه المحبة الشعبية المفاجئة لم تلبث ان ذهبت في حزيران حين اخذ البريطانيون مرة

¹ الطيران 8/23/ القسم 1، ضابط الخدمة الخاص الرمادي، التقرير الاسبوعي رقم آل/16/10، 5/12/1924. الطيران 143/23 القسم 6، ضابط الخدمة الخاص الموصل الى استخبارات الطيران رقم آل/22/10، 25/12/1924.

² الطيران 143/23 القسم 6، فرع بي او 29/11/1924. الطيران 143/23 القسم 6، ضابط الخدمة الخاص الرمادي الى استخبارات الطيران رقم 1693، 6/4/1925.

³ وزارة الخارجية 371/10833/ئي 710 تقرير الاستخبارات رقم 1، 8/1/1925.

⁴ الطيران 1/10/143/23 ضابط الخدمة الخاص الموصل الى استخبارات الطيران رقم 1693، 6/4/1925.

اولا، رفع الحكومة العراقية منعها للغزو بين عنزة وشمرو. بعد سنة واحدة تقريبا اخفق توقيف الغزوات بين العشائر، فاتفق الشيخان الكبيران عجيل الياور وابن هذال على استئناف الغارات العشائرية في مؤتمر نظمته الحكومة. وحين وافقت وزارة الداخلية، وهي مكرهة، على السماح بالغارات بين العشائر، اصبح اتباع عجيل الياور يستطيعون استئناف الغزو بدون ازعاج من الحكومة¹.

ثانيا، زادت جاذبية رئاسة عجيل ايضا في تشرين الثاني 1925 حين توفي الشيخ العاصي الموقر².

قبل سنة 1926 أخفق تدخل الحكومة في تقليل تناوب وشدة الغزو العشائري. لكن الحكومة العراقية عالجت الموضوع بهمة جديدة سنة 1926. اكدت بشدة ان عجيل بصفته رئيس شمر الاعلى يتحمل المسؤولية عن اعمال العشيرة. فاذا لم يتمكن من وقف الغزو فان اعانتته تخفض بصورة محسوسة وتكلف مفرزة سيارات مسلحة بتأمين امن الحدود. لكن اذا تعاون عجيل في محاولة وقف الغزو فانه يحصل على دعم بريطاني كامل عسكري وسياسي³.

¹ وزارة الخارجية 10833/371/ئي 6298 تقرير الاستخبارات رقم 20، 1925/10/1.

² الطيران 146/23 القسم 4، ضابط الخدمة الخاص الموصل الى استخبارات الطيران رقم 2053، 1925/11/15.

³ الطيران 149/23 القسم 8، بريسكوت الى وزير الداخلية رقم سي 174، 1926/5/25.

اولا، رفع الحكومة العراقية منعها للغزو بين عنزة وشمرو. بعد سنة واحدة تقريبا اخفق توقيف الغزوات بين العشائر، فاتفق الشيخان الكبيران عجيل الياور وابن هذال على استئناف الغارات العشائرية في مؤتمر نظمته الحكومة. وحين وافقت وزارة الداخلية، وهي مكرهة، على السماح بالغارات بين العشائر، اصبح اتباع عجيل الياور يستطيعون استئناف الغزو بدون ازعاج من الحكومة¹.

ثانيا، زادت جاذبية رئاسة عجيل ايضا في تشرين الثاني 1925 حين توفي الشيخ العاصي الموقر².

قبل سنة 1926 أخفق تدخل الحكومة في تقليل تناوب وشدة الغزو العشائري. لكن الحكومة العراقية عالجت الموضوع بهمة جديدة سنة 1926. اكدت بشدة ان عجيل بصفته رئيس شمر الاعلى يتحمل المسؤولية عن اعمال العشيرة. فاذا لم يتمكن من وقف الغزو فان اعانتة تخفض بصورة محسوسة وتكلف مفرزة سيارات مسلحة بتأمين امن الحدود. لكن اذا تعاون عجيل في محاولة وقف الغزو فانه يحصل على دعم بريطاني كامل عسكري وسياسي³.

¹ وزارة الخارجية 10833/371/ئي 6298 تقرير الاستخبارات رقم 20، 1925/10/1.

² الطيران 146/23 القسم 4، ضابط الخدمة الخاص الموصل الى استخبارات الطيران رقم 2053، 1925/11/15.

³ الطيران 149/23 القسم 8، بريسكوت الى وزير الداخلية رقم سي 174، 1926/5/25.

اصبح القتال بين الخصمين خطيرا بصورة متزايدة منذ تشريين
الاول 1925 حين اخذ دهام يتعهد الدعم بين رجال العشائر اليزيدية في
منطقة سنجار. لقد استفاد من استياء اليزيديين من شمر العراقية
بسبب الغارات المتعددة الشديدة من جانب رجال العشيرة التابعين لعجيل
فعمل دهام على انشاء تحالف قوي ضد ابن عمه¹. في نهاية ثلاثة اشهر
من الغزو المتقابل على مقياس صغير، قرر دهام ان يواجه عجيل في
معركة كبرى في البدي على الحدود السورية العراقية. شد ازره
2000 تابع من عشيرة الجبور السورية فحاول ان يتغلب على قوة
اصغر يقودها عجيل الياور. لكن هذه الامل الكبيرة سرعان ما خابت
في صباح 2 نيسان 1926 حين وجد دهام لحزنه الشديد بعد شن
الهجوم، ان سيارات مسلحة بريطانية انضمت الى عجيل في الليل.
وانتهى امل دهام في النصر حين انقض سرب طائرات من القوة الجوية
الملكية فجأة على شمر السورية².

خلال دقائق قصيرة انطبقت حقائق التكنولوجيا العسكرية الحديثة
بصورة لا تمحى على اذهان محاربي شمر البدو. وقد وجدت عادات
الحرب البدوية القديمة اخيرا صنوها. غير ان الظروف الانية لم
تسمح بوقت للتفكير، فلاذ دهام واتباعه بالفرار طلبا للنجاة. وطاردتهم

¹ الطيران 149/23 القسم 7، تقرير عن المعركة بين دهام.

² كالسابق ص 50 هـ.

شمر العراقية مطاردة عنيفة ودفعت دهام ورجاله بعيدها في عمق الاراضي السورية. وقتل عدد كبير من رجال الجبور والخرصة في البدي¹.

في اعقاب فاجعة نيسان طلب دهام الغضبان ثارا سريعا. ساعدته اعادة رئاسته العليا على الخرصة من جانب الفرنسيين في جهوده لتجنيد اتباع كثيرين². وفي الوقت نفسه لقي الشيخ عجيل في العراق عزماء بريطانيا متصاعدا لوقف كل الغزو العشائري. في تموز صدر امر رسمي ينهي كل الغارات العشائرية وشخص نظاما شديدا لتنفيذ القرار الجديد. كان رد الفعل من جانب رجال شمر ان هربوا الى سورية حيث بقي الغزو قانونيا. ازاء تهديد الحكومة انقسمت جماعات الغزو الكبرى السابقة الى جماعات صغيرة لئلا يعثر عليها³

شعر الموظفون البريطانيون ان وقف الغزو عبر الحدود يستلزم تعاوننا دوليا فطلبوا موافقة فرنسة على دعوة مؤتمر عشائري لتسوية كل

¹ كالسابق ص 50 جي.

² الطيران 149/23 القسم 7، ضابط الخدمة الخاص، الموصل الى استخبارات الطيران رقم 10/م/306، 1926/6/16.

³ الطيران 1/10/1/149//23 المستشار لوزارة الداخلية الى المفتش الاداري في الموصل، برقية رقم سي/1840 في 1926/7/13. الطيران 21/1/275/23 وزير الداخلية الى سكرتير المندوب السامي رقم سي/1973 في 1926/7/27. الطيران 150/23 القسم 8، مقر الطيران الى المندوب السامي 1926/9/22.

المطالبات البدوية الموقوفة وانهاء كل الغارات¹. اما بشأن السيطرة على شمر في داخل العراق فقد اثّرت فكرة وقف هجرتها الخريفية الى الجنوب بفرض الحصار على الطرق المعتادة باستعمال سيارات مسلحة وطائرات . ومع هذه العملية كانت ممكنة من الناحية التكنولوجية فانها لم تحدث سنة 1926 لان المراعي الخصبة سمحت للعشيرة ان تقضي الشتاء في الجزيرة الشمالية².

هذه الجهود البريطانية المقررة انتجت تخفيضاً محسوساً في غارات العشائر العراقية في اواخر 1926. لكن بالرغم من ذلك بقي الغزو مشكلة عويصة بسبب الاعتداءات التي شنتها العشائر السورية على العراق. خلال تشرين الثاني وكانون الاول 1926 وكانون الثاني 1927 انتهك اتباع دهام الهادي وبنيان الشلال مرارا الحدود العراقية. هذه الغارات اغضبت الموظفين البريطانيين الذين اتهموا الموظفين الفرنسيين بانهم لا يتخذون اجراءات صارمة للسيطرة على البدو

¹ وزارة الخارجية 11508/371، دويس الى المعتمد السامي في سورية رقم 12649، 1926/10/29.

² الطيران 150/23 القسم 8، ضابط الخدمة الخاص الموصل الى استخبارات الطيران، برقية 409/21، 1926/9/29. الطيران 151/23 القسم 9، المفتش الاداري في الموصل الى وزارة الداخلية رقم هـ كيو/1149، في 1926/10/2. وزارة الخارجية 12304 /371 ساتو الى بونسو، 1927/1/3.

السوريين¹.

بعد تبادل الاتهامات المتواصلة اجتمع الموظفون البريطانيون والفرنسيون في البدي في شباط 1927 للبحث في خطط ترمي الى عقد مؤتمر عشائري مقترح². بين الاجتماع الاول في البدي والمؤتمر الفعلي الذي عقد في عانه في 2 نيسان تبدلت السياسة الفرنسية تجاه دهام بصورة عظيمة. خلال اذار دعي الى دير الزور وأوعز اليه بكل شدة ان يوقف غاراته عبر الحدود. وزار مخيمه بعد ذلك ضابط فرنسي وكرر المنع³.

أفتتح المؤتمر العشائري السوري الذي طال أنتظاره في نيسان في بلدة عنه على الفرات وحضر ممثلون عن كل القبائل الكبرى وموظفون حكوميون سوريون وعراقيون ومستشاروهم الاوربيون. قدمت المطالبات العشائرية الموقوفة ونوقشت مناقشة طويلة. وبالنتيجة

¹ الطيران 152/23 القسم 10، ضابط الخدمة الخاص الموصل الى مستشار وزارة الداخلية رقم ي م/692، 1926/11/30. وزارة الداخلية 11468/371/ئي 7090، تقرير الاستخبارات رقم 24، 1926/12/28. وزارة الخارجية 12264/371/ئي 121 تقرير الاستخبارات رقم 26، 1926/12/22.

² وزارة الخارجية 13760/371/ئي 1329 تقرير الاستخبارات رقم 5، 1927/2/22.

³ الطيران 154/23 القسم 12، ضابط الخدمة الخاص الموصل الى استخبارات الطيران رقم ي م/30، 1927/3/7. ضابط الخدمة الخاص الموصل الى استخبارات الطيران رقم ي م/30، 1927/3/15.

وافقت العشائر المختلفة أن تلغي كل المطالبات الموقوفة ولأنهاء
عداوتها. عقد أتفاقات الصلح بين العشائر التالية :-

1. العشائر السورية العقيدات والباقرة وشمر العراقية وعنزة
والدليم.

2. العراقية عنزة والسنجار وأفخاذ العامود من شمر السورية.

3. شمر العراقية وأفخاذ السباع من عنزة السورية.

4. العراقية العمارات من عنزة وشمر.

5. السورية الفدعان والدليم العراقية.

6. شمر العراقية وكل عنزة السورية

فيما يتعلق بشؤون شمر الداخلية تعانق الشيخان المتحاربان عجيل
الياور ودهام الهادي ووافقا على العيش بسلام وقرار آخر للمؤتمر ودعا
جميع العشائر الى التعاون كل مع حكومتها الخاصة في استيفاء (الودي)
ضريبة المواشي.¹

خلال سنة 1927 والسنوات القليلة التالية لعب الاهتمام بتطوير
طريقة عادلة وفعالة لجباية ضريبة (الودي) دوراً كبيراً في شؤون
شمر. حدثت مشاكل متعددة خلال المحاولة العراقية البدائية لاستيفاء

¹ وزارة الخارجية 12264/371/تي 2325، تقرير الاستخبارات رقم 10، 1926/5/11.
بريطانية العظمى وزارة المستعمرات 1927 "تقرير حكومة صاحب الجلالة البريطانية إلى
مجلس عصبة الامم عن الانتداب على العراق.

الضريبة. هرب العديد من رؤساء شمر الى سوريا لتلافي تدخل الحكومة في شؤون العشيرة، لكن أعمالهم أصبحت بعد ذلك فاشلة لانهم اضطروا في نهاية الامر على العودة الى العراق.¹ كان فخذ الخرصة الذي يقيم على جانبي الحدود يقدم مشكلة أكثر تعقيدا، فيفرض عليه الضريبة مرتين او يتحاشاها. أثّرت الصعوبة الاولى لعدم وجود وثائق صحيحة، فكانت العشيرة التي دفعت (الودي) على جانب من الحدود ترغم على دفعها مرة أخرى حين تعبر الى البلد الاخر. وحدثت المشكلة الثانية في خريف سنة 1927 حين تحاشا الشيوخ الماكرون بنجاح دفع (الودي) بعبور الحدود حين جبي الضريبة في بلدهم. جرت حوادث كثيرة تتعلق بعبور شيوخ صغار من الخرصة الى العراق عند استيفاء الضريبة في سوريا. وثار النزاع بين دهام وعجيل الذي سوي مؤقتاً في مؤتمر عنه، مرة أخرى بشأن موضوع جباية (الودي). نشأت القلاقل حين تبع دهام عددا من رجال قبيلة الخرصة الى العراق وأدعى أنهم مطلوبون (الودي) للحكومة السورية.²

¹ وزارة الخارجية 12305/371 بغداد، بورديلون إلى يونسو رقم اس او 2380، 1927/12/10. الطيران 155/23 القسم 13، المفتش الاداري الموصل إلى مستشار وزارة الداخلية، برقية رقم 2506، 1927/10/18.

² وزارة الخارجية 12305/371 جاردين إلى مساعد المندوب في دير الزور س ف سي 368، 1927/10/25. وزارة الخارجية 12265/371/ئي 4765، تقرير الاستخبارات رقم 22، 1927/10/27.

كان رد فعل الموظفين الفرنسيين بطيئاً للشكاوي البريطانية حول غارات دهام في العراق لاستيفاء (الودي) من رجال عشيرتهم. وتمنعه من وقف الغزو عبر الحدود قد يكون ناشئاً عن حقيقة كون دهام قد طار الى بيروت بعد مؤتمر عنه وعين رئيساً أعلى على كل من شمر السورية، وتعهد بتقديم قوة هجانة (جمالة) عدتهم 300 رجل وأعانة شهرية.¹ ويقوم علاوة على ذلك بجباية (الودي) فيقدم ايرادا كبيرا للحكومة السورية.

فيما عدا مشكلة (الودي) كان أثر التسوية لمؤتمر عانه العشائري أن أدى تخفيضاً للغزو عبر الحدود سنة 1928. تعاون الموظفون البريطانيون والفرنسيون خلال السنة لتحسين أساليب جباية (الودي) رغبة في تقليل حوادث الحدود أكثر من ذلك. وفي نهاية السنة وافق الطرفان كتجربة على جباية (الودي) في نفس الوقت والتنازل عن المطالبة بـ (الودي) من أي عشيرة سبق لها دفعه في البلد الآخر.² وقد خفض احتمال الغزو العشائري أيضاً حين أمر البريطانيون عجيل الياور أن يبتعد عن الحدود السورية في شهر شباط، وحين أوعز الموظفون الفرنسيون الى دهام الهادي في تموز بلزوم كبج جماح

¹ الطيران 154/23 القسم 12، ضابط الخدمة الخاص الموصل إلى استخبارات الطيران رقم ي م / 3 آ، 1927/5/17.

² وزارة الخارجية 12305/371 جاردين إلى مساعد المندوب في دير الزور س ف سي 367، 1927/10/24.

أتباعه.¹ بالإضافة الى الخلاف بين أدهام وعجيل من المهم ذكر ناحيتين آخرين من سياسات شمر العشائرية سنة 1928. الناحية الاولى تتعلق بشيخ العبدلة المتمرد. بنيان بن شلال الذي غادر العراق سنة 1924 وبقي عدة سنوات في سورية مع دهام وهو يغزو أتباع عجيل. كان بنيان مشاغبا، وقد وجد قيود اتفاق عنه لسنة 1927 كابحة. أستمرت غاراته حتى سنة 1928 حتى دعاه الموظفون الاتراك الى ديار بكر. وفي أجتتماع عقد في أيلول صدر الامر الى بنيان بوقف الغزو على العراق وسوريا ومنح عدة قرى تعويضا عن ذلك.²

حادثة ثانية دلت على الوضع المتغير للعشيرة أزاء الحكومة العراقية حدثت في خريف 1928. في السنوات السابقة كثيرا ما أنتجت هجرة شمر السنوية جنوبا غارات شديدة. لكن في سنة 1928

¹ وزارة الخارجية 13702/371 بيروت، بونسو الى دوبس رقم 64/ك د، 1928/1/18. الطيران 155/23 القسم 12، وزير الداخلية إلى المندوب السامي رقم سي 547، 1928/2/.

² الطيران 156/23 القسم 14، ضابط الخدمة الخاص الموصل إلى استخبارات الطيران رقم ي م 9، 1928/6/7. وزارة الخارجية 13073/371، تقرير الاستخبارات رقم 11، 1928/6/20. الطيران 156/23 القسم 14، ضابط الخدمة الخاص الموصل إلى استخبارات الطيران رقم ي م 1، 1928/8/9، الطيران 156/23 القسم 14 ضابط الخدمة الخاص الموصل الى استخبارات الطيران، 1928/9/13.

وزارة الخارجية 13073/371 بيروت، هونيو الى اليسن، 1928/7/21.

وزارة الخارجية 13073/371 بغداد، دوبس الى بونسو رقم 4042، 1928/3/31.

نفذت الحكومة قيوداً شديدة سيطرت على هجرة شمر لأول مرة. كان يجب أنجاز الحركة تعييناً خلال مواعيد معينة وجريانها على طريق مقرر سلفاً. وعلى مثال ذلك لايجوز للعشيرة أن تعبر الفرات أو تغزو جزيرة العرب الشمالية. قبل ثماني سنوات فقط لم يكن في الامكان مراقبة هجرة شمر، لكن التجديدات التكنولوجية من طائرات وسيارات مسلحة وأجهزة أذاعة وهاتف، مقرونة بسياسة عشائرية شديدة، هيأت للحكومة العراقية مع مستشاريها البريطانيين أن تسيطر على العشيرة.¹

اجتمع الموظفون البريطانيون والفرنسيون مرة أخرى في الحسكة في شباط 1929 فحسنوا طريقة جباية (الودي). تخفف المصاعب الناشئة عن تهرب فخذ الخرصة من دفع الضريبة بعبور الحدود بنقل كل العشائر على منطقة طولها 15 كيلو متر على الحدود قبل أسبوعين قبل بدء جباية (الودي). وتقوم سيارات الجيش المسلحة بتنفيذ العملية لتأكيد نجاحها.² وهذه الطريقة المحسنة لجباية (الودي) كان لها أفضل تأثير محسوس في سوريا. وكان رد فعل شمر السورية لهذه الطريقة لايؤبه له حتى بدل الموظفون الفرنسيون ضريبة (الودي) المعتدلة وفرضوا رسم (الكودة) الثقيل. ولم يحدث

¹ الطيران 156/23 القسم 14، وزير الداخلية إلى متصرف الدليم، الحلة الخ رقم 13563، 1928/9/3.

² الطيران 156/23 10/1/ي تقرير عن مؤتمر الحسكة، 1929/2/17.

هذا التبدل حتى ثارت الاحتجاجات القوية.¹

امام المعارضة القوية للضريبة العالية على العشيرة اعتمد الموظفون الفرنسيون كل الاعتماد على الشيخ دهم الهادي لجمع الضريبة الجديدة. وقد اغضبت الضريبة الجديدة فخذ الفراغة بشدة حتى أنها اعتدت على جباة الضريبة الحكوميين. وبنتيجة مقاومة شمر الغربية عزل مشعل الفارس مؤقتاً وعين الشيخ عبد المحسن بن عبد الكريم رئيساً أعلى في محله بعد أن وعد بجباية رسم الكودة الثقيل.² وأشتد استياء العشيرة من الضريبة الجديدة حتى أن أعداداً كبيرة من شمر السورية هددت بالانتقال الى العراق.³ وفي أمل استباق اشاعة فرار دهم الهادي قدم الفرنسيون له داراً في شيل أغا حيث أستقر في آب 1929. وعلى غرار ذلك قرر إطلاق مشعل الفارس خوفاً من ضياع فخذ الفراغة وأعيد رئيساً أعلى لشمر الغربية، ودفعت له رواتبه للمدة السابقة.⁴

خلال السنتين 1930 و1931 أصبحت المنافسة الطويلة الامر بين

¹ الطيران 10/1/157/23 ي ضابط الخدمة الخاص الموصل إلى استخبارات الطيران رقم ي م/37، 1929/7/4.

² كالسابق.

³ كالسابق.

⁴ الطيران 157/23 القسم 15 ضابط الخدمة الخاص الموصل إلى استخبارات الطيران، 1929/8/20.

دهام الهادي وعجيل الياور أقل مرارة أذ وقفت غارات العشيرة عبر الحدود فعلا وعقدت مؤتمرات عشائرية إضافية سورية عراقية سنة 1928 و1929 حلت الكثير من المشاكل الموقوفة بين رئيسي شمر حول الغزو وأستيفاء (الودي).¹ وهكذا لم تكد الحكومة السورية والعراقية تنشآن طرائق متماثلة لجباية الايراد حتى التفت رؤساء شمر الى مسؤوليتهم الثقيلة في أستيفاء (الودي) من عشائريهم.

أن الضريبة الثقيلة المستمرة في سورية خلال 1929 حملت مشعل الفارس ودهام الهادي على النظر في نقل عشائريهما الى العراق. وفي وجه دورة أخرى من الضرائب الباهظة عبر مشعل الفارس و1500 عائلة شمريّة الحدود سرا الى العراق في أيار 1930.² خيمت العشيرة جنوبي جبل سنجار، ومضى مشعل لزيارة الملك فيصل. بعد محادثة ودية طلب الملك من شيخ الفراغة التوجه الى وزارة الداخلية حيث علم بسرعة بالشروط الثقيلة التي تفرض عليه اذا بقي في العراق. أولا، يكون شيخا ثانويا تحت عجيل الياور. ثانيا، يكون عليه مواصلة دفع الضرائب الى الفرنسيين في سوريا. ولما لم يقبل الشرطين

¹ الطيران 158/23 القسم 16، ضابط الخدمة الخاص الموصل إلى استخبارات الطيران رقم ي م/10، 1930/7.

² الطيران 158/23 القسم 16، ضابط الخدمة الخاص الموصل إلى استخبارات الطيران رقم 1/11/1، 1930/2. الطيران 158/23 القسم 16، التقرير الاداري للسواء الموصل 1931.

عاد مشعل الفارس الى سوريا في كانون الثاني 1931¹ لقي الموظفون السوريون قلاقل اخرى حين بدا أن دهام الهادي أيضا مستعد للعودة الى العراق مع فخذ الخرصة مع أنه بدأ يرسل الملك فيصل عن عودته، فأن خطته سرعان ما ارتطمت بمعارضة عجيل الياور الذي خشي من وجود دهام في العراق.² وقبل أن تسير الامور الى أبعد من ذلك خفت المصاعب بين الفرنسيين وشمر بوجه محسوس بتخفيض نسبة ضريبة (الودي) الى ربع مستوى سنة 1929.³

أن فشل دهام الهادي ومشعل الفارس في إيجاد ملجأ لهما في العراق سنة 1931 يوضح بصراحة تبدل الحياة البدوية لشمر خلال السنوات العشر الماضية. وسجل عام 1932 لم يكن نهاية الانتداب البريطاني فحسب وبداية استقلال العراق، ولكن يمكن اعتباره حدا فاصلا في تاريخ شمر. لم يكن وقت في المائة والثلاثين سنة التي قضتها العشيرة في الجزيرة، شهدت فيه مثل هذا التغيير العميق كما شهدت خلال السنوات 1922 الى 1932.

¹ الطيران 1/10/1/158/23 مقر الطيران (استخبارات اركان القوة الجوية 33/د3، 1930/5/8. الطيران 158/23 القسم 16، التقرير الاداري للواء الموصل 1930/1.

² الطيران 1/10/1/158/23 ضابط الخدمة الخاص الموصل إلى استخبارات الطيران رقم ي م/1، 1930/1/9.

³ الطيران 158/23 القسم 16، ضابط الخدمة الخاص الموصل إلى استخبارات الطيران ي م/10، 1930/8/23.

خلال الخمسين سنة الاخيرة من الحكم التركي جاءت اثار توطيد الحكم المحلي وتحسين الوسائل العسكرية، كما أوضحناه في الفصل الرابع، لتتففي تفوق شمر العسكري وتخفيض مستوى غاراتها لكن شمر وسائر العشائر البدوية في الجزيرة لم تشعر حتى حلول سنوات العشرين (من القرن العشرين) شعورا تاما بآثار العالم الحديث . بدأ هذا التغيير بتقسيم ديرة شمر بين ثلاث دول جديدة خلقت بعد الحرب العالمية الاولى. وضعت حدود سياسية جديدة لم تغير حرية شمر التقليدية في الحركة فحسب بل فرضت تمركزا اداريا آخر ايضا.

أصطدمت نشاطات البدو التقليدية، كالغزو العشائري وأستيفاء الخاوة والعداوات داخل العشيرة، مع رغبة الدولتين المنتدبتين لتوطيد الامن والسلام. وجاءت التكنولوجيا العسكرية المتفوقة، من طائرات وسيارات مسلحة ورشاشات، مقرونة مع وسائل المواصلات الحديثة كالهاتف والاذاعة، فساعدت الفرنسيين والبريطانيين لمنع الغزو وتنظيم استيفاء الخاوة. وهذا التفوق العسكري المطلق ضمن ايضا للحكومة المركزية السيطرة على السياسة العشائرية بتعيين رئيس اعلى تقوم سلطته على اساس دعم الحكومة. وقد فقدت شمر كل مقدرتها لتحدي الحكومة فأصبحت لا تستطيع الركون إلى عاداتها التقليدية في استعمال القوة أو اتخاذ حماية البادية للتأثير على الاحداث

كما كانت تفعل في القرن التاسع عشر¹. خلال السنوات ما بين الحربين تحول تأثير شمر في الشؤون السياسية بصورة متزايدة إلى يد شيوخ اقوياء تطلب الحكومتان السورية والعراقية ولاءهم ودعمهم. وعلى مثال ذلك زالت المطالب البدوية التقليدية من رئاسة العشيرة، كالشجاعة والفصاحة والحكمة والكرم التي كانت تميز الرئيس كزعيم محارب، وحل محلها طلب فطنة سياسية متزايدة في السياسة الوطنية والدبلوماسية والمهارة العملية. ان الطبيعة المتغيرة للزعامة العشائرية وجدت شكلها في سيرة عجيل الياور.

¹ ستين : شمر جربا، ص 102-105.

اشكال متغيرة في زعامة شمر

سيرة عجيل الياور 1922-1940

حين قبل عجيل الياور دعوة الملك فيصل للعمل شيخا لمشايخ شمر سنة 1922، فشل المنصب في احراز الاحترام الذي كان له في عهد شخصية مثل صفوق بن فارس قبل 75 سنة.¹ منذ وفاة فرحان باشا سنة 1890 قام الاتراك باضعاف شمر الشرقية بصورة متواصلة بالتلاعب بمنصب الرئيس الاعلى الحكومي لزرع التنافر بين ابناء فرحان باشا الستة عشر. وهكذا، حين تسلم عجيل المنصب، لم تكن الوظيفة تحوز القوة والاحترام. لكن خلال الـ 18 سنة التي شغل عجيل المنصب كشيخ معين من الحكومة اصبح من اغنى واوسع رجال العراق نفوذا. كيف تسنى له ان يبلغ هذا الوضع، ذلك ما يعطي فكرة واضحة عن تغير شمر خلال السنوات ما بين الحربين.²

في السلالة الواسعة لفرحان باشا، آخر رئيس اعلى قوي نسبيا لشمر الشرقية، لم يكن عجيل الياور يتمتع بحق ارث خاص يؤهله كزعيم العشيرة. وكان شيوخ آخرون، مثل فيصل بن فرحان ودهام

¹ وزارة الخارجية 371/7771/ئي 5311، تقرير الاستخبارات رقم 9، 1922/5/1.

² وزارة الخارجية 371/2329، شخصيات عراقية : عجيل الياور، 1940.

الهادي والعاصي بن فرحان وعبد العزيز بن فرحان، يستطيعون ان يطالبوا بقوة اكثر منه بزعامة العشيرة على اساس النسب. لكن عجیل الياور نال السلطة بسبب عاملين مهمين : (1) صفاته الشخصية كزعيم بدوي، و (2) صداقته مع الملك فيصل.¹

كان في مظهره البدني وحده، طوله ستة اقدام و 6 انشات ووزنه اكثر من 200 ليبرة دون ذرة واحدة من الشحم، شخصية جلية.² وقد ملك عجیل علاوة على مظهره المهيّب صفات الزعامة البدوية التقليدية. جذبت شخصيته الجذابة ومقدرته في رواية القصص جموع وجهاء البلد ورؤساء البادية إلى حضور مجلسه في بغداد.³

بالرغم من مؤهلاته الجذابة كزعيم شمري رأى الموظفون البريطانيون في سنة 1921 عجیل كخارج على القانون لتورطه في غارة تلغفر سنة 1920.⁴ لكن حين توج الملك فيصل في آب 1921 سرعان ما حل هذه المشكلة وعين عجیل الياور رئيسا حكوميا اعلى لشمير العراقية. وخلال اشغاله المنصب اعترف عجیل بذكائه ان منصبه يعتمد على دعم الحكومة لا على تأييد العشيرة. واسناد شمير الشرقية

¹ وزارة الخارجية 6349/371/ئي 11802 : شخصيات الموصل واربيل وبغداد 1921.

الجميل : البدو ص 3-4، برغويهم : جرتود بل، الجزء الثاني، ص 321-322.

² كالسابق ص 237.

³ وزارة الخارجية 6353/371/ئي 10532، تقرير الاستخبارات رقم 19، 1921/8/15.

⁴ كالسابق.

لدهام الهادي في صراعه لحيازة الرئاسة يدل على ان عجيل فشل في احراز ولاء شمر الجماعي. وخلال سنوات العشرين حافظ عجيل على تأييد الحكومة بتنفيذ الامر غير المحبب الصادر بوقف كل الغزو العشائري.¹

اتسع نفوذ عجيل على شؤون العشيرة كثيرا بين سنة 1923 و 1927. كان يقبض بصفته شيخا حكوميا اعانة شهرية قدرها 12000 روبية. قبل 1922 كانت الاعانات توزع على شيوخ شمريين فرديين. لكن لما اصبح عجيل رئيسا اعلى صار يتسلم اعانة كبيرة يقسمها شخصا بين سائر الشيوخ. بالسيطرة على توزيع مال الحكومة صار عجيل يباشر رقابة عظيمة على الكثيرين من منافسيه المحتملين.² وعلى غرار ذلك فان قيادة قوة هجانة ممولة ومسلحة من جانب الحكومة، انشئت ظاهرا لحراسة الحدود، منحت عجيل سلاحا آخر للتأثير على الشؤون العشائرية. فيما عدا طرائق السيطرة هذه جمع عجيل ثروة وقوة شخصية كبيرتين من الحق الذي منح له لجباية ضرائب الحكومة واصدار اجازات دخول إلى اسواق مدنية متعددة.³

¹ الهامش غير موجود.

² الطيران 144/23 القسم 2، وزير الداخلية إلى متصرف الموصل، برقية رقم 7876، 1925/6/27.

³ الطيران 13/1/260/23 ضابط الخدمة الخاص، الموصل إلى استخبارات الطيران رقم 1446، 1924/6/6. الطيران 1/10/1/155/23 القسم 13، ضابط الخدمة الخاص الموصل

طلب البريطانيون كجزء من سياستهم العشائرية من البدوي الذي يدخل إلى بلدة عراقية ان يحمل اجازة نافذة من شيخه الاعلى. وهذا الطلب اصبح مهما جدا لدى البدو امثال الشمريين الذين يحتاجون إلى حبوب وتمور لطعامهم اليومي. فاذا لم يمكن شراء هذه المواد فان العشيرة تموت جوعا. بفرض رسم على اجازة الدخول، لم يكتف عجيل بجمع المال بل وطد سيطرته اكثر على العشيرة. وكان استيفاء "الودي" من رجال عشيرته مصدرا آخر لايراد. في سنة 1928 سمح له بالاحتفاظ بـ 25 في المائة من الضريبة التي يجبيها من شمر.¹

في اواخر العشرينات غيرت قوى اجتماعية واقتصادية مختلفة ثقافة البدو التقليدية. بوجه خاص قيدت الادارة الحكومية الفعالة والتكنولوجية العسكرية الحديثة سرعة حركة البدوي ومقدرته على الحصول على المال من اعماله التقليدية كالغزو وفرض الخاوة.² وكذلك ادخال السيارات وسيارات النقل خفض الطلب على الابعار كوسيلة نقل. وانشاء شركة نيرن للنقل التي حملت الاحمال والركاب بين بغداد ودمشق على اساس منهاج منتظم سنة 1923 هيات مثالا

إلى استخبارات الطيران.

¹ كالسابق.

² ستين : شمر جريا ص 102-105. غلوب : البدو، مجلة جمعية آسية الوسطى الملكية، 22 (1935) ص 29.

واضحاً للنظام المتحول.

وقد وجد الشمريون اكثر وسائل معاشهم التقليدية قد اغلقت
فأرغموا على كسب معيشتهم بطرق اخرى.¹

باشـر عـجـيـل الـيـاور سـنة 1926 مشـروعـا مـقـترحـا لـتـطـوـير الـاراضـي
اتـفـق عـلـيـه مـع المـلـك فـيـصـل فـاشـتـرى مـسـاحـات وـاسـعـة مـن الـارـض فـي
الـجـزـيـرة الشـمـالـيـة.²

وفـي اواخـر سـنـوات الثـلاثـيـن اصـبـح يـمـلـك اراضـي فـي قـلـعة الشـرقـاط
وتـكـريـت وتـلـعـفـر وقـرب جـبـل سـنـجـار.³ فـي سـنة 1936 و 1937 سـبـبـت
مـحـاولـته شـراء اراضـي اـخـرى فـي الـاقـلـيـم الـيـزـيـدي قـلـقا كـبـيـرا فـي وـزارـة
الـداخـلـيـة.⁴ وتـولـى زـراعة الـاراضـي الـتي يـمـتـلـكـها عـجـيـل رـجـال مـن عـشـائـر
مـخـتـلـفة تـابـعة لـشـمـر كـالـجـبـور. ولـاجـل تـحـسـيـن الـانـتـاج حـضـر رـئـيـس
شـمـر الـاعـلى ذـو الفـكـرة التـقـدمـيـة عـددا مـن الـابـار واسـتـخـدم مـضـخـات

¹ كـالـسـابـق.

² الطـيـران 146/23 القـسـم 4، كـورنـوالـيس إـلى سـكـرتـير المـندوب السـامـي رـقـم سـي 263/216،
1926/1/28.

³ فـون اوبـنـهـايم : البـدو الجـزء الـاول ص150.

⁴ وـزارـة الخـارجـيـة 2171/371/ئي 147، خـلاصـة الـاسـتـخـبـارات الخـارجـيـة لـلقـوة الجـويـة
الـمـلـكيـة عـن العـراق ص 98، 1931/2. وـزارـة الخـارجـيـة 2171/371/ئي رنـدل إـلى كـير،
1936/4/30. وـزارـة الخـارجـيـة 2002/371 وـزير الـداخـلـيـة الـى السـفـير رـقـم 342 ب أ 4،
1936/5/19 سـي ج 1 دـمـونـدس الحـج الـى الـالـيـث (لـنـدن 1967) ص64-65.

ذات محرك لتجهيز الماء الضروري.¹ وهذه الجهود الاستثمارية لم تنحصر في الزراعة فقط. فقد عمل بصفة وسيط وجهاز عمالا عشائريا لمد خط السكة الحديدية من بيجي إلى الموصل وتولى تأمين الامن لشركة استثمار النفط البريطانية. هذه المشاريع قدمت واردات شخصية كبيرة لرئيس شمر الاعلى.²

احتفظ عجيل خلال حياته باهتمام كبير وشارك عمليا في الشؤون السياسية. ابتداء من سنة 1924 كان ممثلا لشمر في المجلس التأسيسي.³ وكصديق مقرب للملك فيصل اثر تأثيرا محسوسا في الشؤون الوطنية. ومكانته كشخصية سياسية وطنية مثلت خير تمثيل بالشرف الذي منحه اياه الحكومة البريطانية سنة 1937 بدعوته في تلك السنة كمواطن اعتيادي لحضور تتويج الملك.⁴

زار عجيل بريطانية العظمى مرة اخرى سنة 1939. في الرسائل الرسمية التي نظمت زيارته، أشير إلى عجيل بأنه رئيس عشيرة عراقية متنفذ ومهم. وقد أمل البريطانيون ان يضمنوا ولاء شمر في حالة نشوب الحرب مع المانية، فاهتموا اهتماما كبيرا بالحصول على

¹ مارغريت بوفري : المنارة وخط الانابيب : امس واليوم في الشرق الأدنى، ترجمته عن الالمانية لويزام. سيفكنج (لندن 1939).

² برنارد قرنيبة : العراق اليوم (باريس 1963) ص85.

³ وزارة الداخلية : مذكرات المجلس التأسيسي العراقي (1) (بغداد 1925) ص1338.

⁴ وزارة الخارجية 372/2339/ت 7411 ما ترزهد إلى غانس، 4/5/1937.

حظوة عجيل. ولما كان في لندن حضر المناورات العسكرية والبحرية، واجتمع بالخبراء الزراعيين رغبة في تحسين اغنامه وانتاج حبوبه. وراجع خبيراً في مرض القلب.¹

وحين زاد نفوذه وثروته الشخصية خلال سنوات الثلاثين استمر عجيل على الاحتفاظ بصلات وثيقة مع رجال عشيرته شمر. ومع انه كان يمتلك املاكاً في بغداد والموصل فضلاً عن دور في قلعة الشرقاط وتلعفر فان الشيخ الاعلى قضى وقتاً طويلاً مع عشيرته في البادية.² وحالما تمت تسوية النزاع مع دهم الهادي سنة 1933 لم تحدث اية منازعات كبيرة داخل العشيرة لتخل بشؤون شمر. وكانت اهم الحوادث في تاريخ شمر السياسي من 1932 إلى 1940 تدور اساساً حول المنافسات التقليدية بين العشائر. ومن النزاعات الرئيسية التي حدثت بين العشيرة ومجاوريها ما حدث في آب 1933.³ حين اشتركت شمر في هجوم الجيش على الآثوريين العراقيين في شمال العراق. ونشب قتال عشائري آخر سنة 1938 بين شمر وعشيرة العقيدات السورية، وفي شباط 1939 بين شمر وعشيرة العبيد العراقية. وقامت الحكومة بتنظيم اجتماعات بين القبائل المتقاتلة اسفرت عن نهاية

¹ وزارة الخارجية 23217/371، نيوتن إلى باستر، 1939/7/7.

² فون اوبنهايم : البدو الجزء الاول ص15.

³ وزارة الخارجية 16807/371/ثي 4873، أوغلفي فوربس إلى وزارة الخارجية رقم 294 1933/8/21 لونغريغ : العراق 1900-1950 ص234.

سريعة للقتالين.¹

اصيب عجيل الياور بسكتة قلبية وتوفي وهو يسوق سيارته فورد طراز آ قرب الشرقاط في اوائل تشرين الثاني 1940،² فخلفه ابنه صفيق خريج الجامعة الاميركية في بيروت رئيسا اعلى لشمر.³ خلال مشيخة عجيل الياور من 1922 إلى 1940 شهدت شمر الجرباء سلسلة من التغييرات العميقة التي بدلت فعلا كل المظاهر من حياة شمر البدوية التقليدية. ومرت زعامة العشيرة، كما تدل عليه مسيرة عجيل الياور، بأعظم تغيير محسوس.

¹ وزارة الخارجية 2329/371 شخصيات عراقية (عجيل الياور) ص72 (1940). لونغريغ: العراق 1900-1950 ص284.

² سي جي ارموندس : مقابلة شخصية، كانون الاول 1971.

³ لونغريغ : العراق 1900-1950 ص282. وزارة الخارجية 2329/371 : شخصيات عراقية (عجيل الياور) ص22 (1940).

الفصل السادس

شمر الجرباء

1940-1958

ب وفاة عجيل الياور في اواخر سنة 1940 انتقل منصب رئاسة
شمر العليا إلى ابنه صفوق، وهو بدوره تنازل عن الرئاسة لأخيه احمد
في واسط الاربعينيات. خلال المدة من الحرب العالمية الثانية إلى
الثورة العراقية سنة 1958 كانت الاتجاهات التي بدأت خلال سنوات ما
بين الحربين تمثل خلاصة تاريخ شمر العشائري. زاد احمد بن عجيل
الياور القوة الاقتصادية والسياسية التي ورثها عن والده. وترك عدد
اكبر من رجال القبيلة حياتهم الرحالة ومالوا إلى الاستقرار والزراعة
وعلى مثال ذلك استمرت غارات الغزو وفرض الخاوة على الهبوط.
لكن بالرغم من هذه التغييرات، احتفظت شمر بموقعها كالعشيرة العربية
المتفوقة في الجزيرة. واشترك العشيرة عسكرياً في ثورة الموصل في
آذار 1959 يوضح هذه النقطة بجلاء.

خلال الحرب العالمية الثانية تعاونت شمر العراقية تعاوناً وثيقاً
مع البريطانيين وحصلت على منافع مادية كالخدمة بصفة مساعدين
عسكريين والاستفادة من بيع الحبوب الضرورية.¹ خلافاً لوضع آل
الياور المفضل، ارتاب البريطانيون بطبيعة الشيخ دهام الهادي المتمردة
ونفوه إلى جزيرة قمران القريبة من ساحل اليمن في البحر الاحمر.² في

¹ ن ن كساب : الرحالة في الجزيرة العراقية (بادن ورتمبرغ 1966) ص55.

² زكريا : عشائر الشام ص282.

سنة 1944 حين زاد الطلب كثيراً على الحبوب بسبب التموين أيام الحرب أخذ شيوخ شمر الأغنياء أمثال أحمد الياور بتوسيع الزراعة في أراضيهم الشاسعة. وكانت هذه الأراضي قبل النقص الكبير في الحبوب غير مستثمرة استثماراً كاملاً.¹

استثمر أحمد الياور الأرباح التي جناها أيام الازدهار الاقتصادي في مشاريع زراعية واسعة خلال السنوات العشر التالية. خلافاً لعدد كبير من الشيوخ غير المتنورين في العراق الشمالي، أدخل تجديلات تكنولوجية عديدة كالمحاثات وأنظمة الري الحديثة والحاصدات والدراسات ومضخات ماء ذات محركات لزيادة الإنتاج.² وعمل رجال شمر والعشائر التابعة في الزراعة على أراضي أحمد الياور الواسعة كفلحين لا يملكون الأرض. وحسب النظام الإقطاعي أصبح رجال العشيرة الذين لا يملكون أرضاً يعتمدون بصورة متزايدة على رؤساء عشيرتهم وفي سنة 1962 أصبح الثباين بين الأملاك الأرضية لشيوخ شمر الأغنياء وبين رجال العشيرة غير الملاكين شاسعاً جداً. اثنان وخمسون فرداً من آل الجرباء امتلكوا أكثر من 500000 مشارة بين هؤلاء الملاكين كان أبناء عجيل الياور وحدهم يملكون نحو 150000

¹ ستين : شمر جربا ص 105.

² دورين وارنجر : اصلاح الأراضي والتطوير في الشرق الأوسط (دراسة لمصر وسورية والعراق) (لندن 1957) ص 138-139. يوجين ورث : Jung Wandlungen في المجلة الجغرافية الألمانية، هيدلبرغ 1963، ص 267.

مشاركة.

حملت زيادة الطلب على العمال نحو عشرين في المائة من شمر الجرباء على ترك حياتهم البدوية والاستقرار في القرى الصغيرة المتعددة في انحاء الجزيرة الشمالية. وفي كل قرية (مختار) ينظم النشاطات الاقتصادية والسياسية. لكن الاكثرية الساحقة من العشيرة واصلت اتباع حياتها الرحالة التقليدية.¹ مع ذلك دخلت الحياة الحديثة الى بدو شمر كما دلت عليه زيادة ارتداء الملابس الغربية واستعمال السيارات لدى زعماء العشيرة.² يضاف الى ذلك أن شباب شمر اصبحوا يعرفون الثقافة الحديثة بالخدمة كحرس حدود أو مساعدين عسكريين.³

بينما بدلت قوى "التحديث" بعض نواحي ثقافة شمر البدوية فإن العشيرة حافظت على تأثيرها كقوة لها قيمتها في الشؤون السياسية الوطنية. أستفادت شمر من البراعة العسكرية التي هيئت لها في البيئة الصحراوية المعادية فأثرت تأثيرها التقليدي القوي على القبائل المجاورة. وقد برزت حادثتان خاصتان من المعارك بين العشائر خلال الـ 18 سنة من وفاة عجيل الياور الى ثورة العراق سنة 1958.⁴

¹ كالسابق ص 105، 115-118.

² كالسابق ص 118-123. حونفاني : حضارة البادية ص 215-216.

³ ستين : شمر جربا ص 123-124.

⁴ جريدة نيويورك تلمس، 18 آذار 1959 ص 4.

حدث قتال شديد بين شمر العراقية وعشيرة البومتيوت والجحيش في آب 1946 . أثّرت المصاعب حين رفض البومتيوت والجحيش أن يدفعوا إيجار الزرع الذي سبق الاتفاق عليه عن أرض تعود إلى أبناء عجيل الياور. أملت القبيلة أن تحل المشكلة أذ عرضت مطالبها على الحكومة العراقية، لكن بلا جدوى. وحين حاولت شمر مرة أخرى أن تستوفي الدين المستحق لها نشب قتال عنيف أدى إلى موت مائتي رجل من العشائر. وسرعان ما تجمع الحلفاء من العشائر في أنحاء الجزيرة لمساعدة العشائر المتحاربة، لكن تدخل الحكومة السريع وضع حداً للقتال.¹

حدث قتال كبير آخر بين العشائر سنة 1952 واشتركت فيه شمر الجرباء. وفي هذه الحادثة الخاصة لقيت العشيرة مصاعب مع قبيلة عنزة. بدأ هذا الصدام المتجدد من قبيل العداء القديم في كانون الاول 1952 حين شن فخذ الدهامشة من عمارات عنزة عدة غارات غزو ضد فخذ الجعفر من عبدة الذي خيم في ديرة فخذ الصقور من عنزة عينتها الحكومة. قتل ثلاثون رجل من شمر في المعركة الاولى مع اربعة من محاربي عنزة. حسب العادة أسرع الجعفر الى أخذ الثأر في الشهر التالي بالهجوم على الدهامشة في شمال المملكة العربية السعودية وقتل رئيس عشيرتهم، على مثال ما جرى في قتال شمر سنة

¹ زكريا : عشائر الشام ص291.

1946 أوقف التدخل الحكومي المعارك بالتحكيم في المشاكل الموقوفة.¹ ثالث الامثلة واشدها أهمية لقوة شمر السياسة العسكرية خلال المدة التي بعد الحرب حدث في اعقاب الثورة العراقية سنة 1958. أدت مصادر استياء كثيرة إلى تعكير الجو الذي نشأ عن اسقاط الحكم الملكي والحكومة المنتخبة في تموز 1958. منذ نهاية الحرب العالمية الاولى انتشر الهياج ضد بريطانيا وضد الصهيونية في انحاء القطر العراقي كما في اقطار اخرى. نشأت خيبة الامل هذه من الغرب عن تصريح بلفور والمراسلات بين الشريف حسين وماكماهون واتفاق سايكس بيكو ومعاهدة سيفر - وكلها قد حطمت مطامح عربية معينة. خلال السنين هزئ بالحكام الهاشميين في العراق والاردن الذين حصلوا على عروشهم بدعم بريطاني قوي واعتبروا ذيولاً للامبريالية الغربية.²

نشأ توتر اخر بنتيجة الخلافات والانشقاقات العديدة داخل المجتمع العراقي. وجدت مخالافات اساسية بين المسلمين وغير المسلمين، السنة والشيعية، الاكراد والعرب، الوطنيين والشيوعيين، الرحالة والمتوطنين، الاغنياء والفقراء. وقد فقد المجتمع العراقي من جراء هذا الانشقاق الاستقرار اللازم لتطويع نظام حكم ديمقراطي. وبرز جمال عبد

¹ الجميل : البدو ص290-291.

² اوريل دان : العراق تحت قاسم : تاريخ سياسي 1958-1963 (نيويورك 1969) ص1-12. بيرتز : الشرق الاوسط اليوم ص390-396.

الناصر كزعيم عربي شعبي وأتحاد مصر وسورية لتأليف الجمهورية العربية المتحدة سببا لتوترات اضافية خطيرة في العراق. وحين عارض الملك فيصل الثاني ورئيس الوزراء نوري السعيد الاتحاد السوري المصري بتأليف الاتحاد العربي مع الاردن الهاشمي في كانون الثاني 1958 بلغت هذه التوترات حد الانفصام.¹

في 14 تموز 1958 ثار جماعة من الضباط الشبان يرأسهم الزعيم عبد الكريم قاسم، وهم يعتقدون أن الجيل السابق من الزعماء والسياسيين العراقيين قد أخفق في تطوير العراق بصورة صحيحة وقلبوا حكومة الملك فيصل والرئيس نوري السعيد. بعد قتال متفرق سيطرت قوات الثورة على البلاد. مع أنه لم يحدث سوى القليل من الضحايا نسبياً خلال الانقلاب فإن القتلى بين الزعماء الوطنيين الكبار كانوا كثيرين. لقي الملك فيصل وخاله ولي العهد الامير عبد الاله مصرعهما بيد القوات الثائرة في قصر الرحاب. وفي اليوم الثاني مزقت غوغاء بغدادية هائجة اشلء نوري السعيد حين حاول الهروب متكرراً بملابس نسائية.²

¹ مجيد خدوري : العراق الجمهوري : دراسة في السياسة العراقية من ثورة 1958 (لندن 1969) ص5، 12-14. عن الفرق في المجتمع العراقي راجع مجيد خدوري : العراق المستقل 1932-1958 : دراسة في السياسة العراقية، الطبعة الثانية المعاد النظر فيها (لندن 1960) ص367.

² دان : العراق ص30-31، عن تفاصيل ثورة تموز راجع جريدة التايمس (لندن) 15

ولي الزعيم قاسم الحكم فأراد تغيير بنيان المجتمع العراقي عن طريق سلسلة اصلاحات ترمي الى تخفيض قوة الطبقة الحاكمة الثرية وتحسين شقاء الفلاحين والجماعات الحضرية، وكان الهدف الواضح لاصلاحاته الاملاك الواسعة للشيوخ المختلفين والملاكين الحضريين الغائبين. صدرت في خريف 1958 قوانين صارمة جديدة للاراضي نصت على اعادة توزيع الاراضي الزراعية العراقية. حسب القانون لا يستطيع فرد ان يمتلك اكثر من 600 مشارة تقريباً من الاراضي السيح أو اكثر من 1200 مشارة من الارض التي لا تروى سيجاً.¹ هذه القيود الصارمة ضربت مباشرة شيوخ العشائر الاغنياء مثل احمد الياور اكبر الملاكين في الجزيرة. وكانت ميول قاسم الشيوعية وشعوره ضد عبد الناصر ايضاً مخيبة للامال، وبذلك جاءت احداث 1958 واولائل 1959 تهدد بالخطر الجسيم وضع احمد الياور بصفته رأسمالي غني وزعيم عشائري. قام الشيخ الشمري المهدد بحركة جريئة يريد قلب جريان الحوادث،² خلال الاشهر الثلاثة الاولى من 1959 تأمر احمد الياور وسائر زعماء الموصل الاغنياء مع العقيد عبد

تموز 1958 ص8، 16 تموز 1958 ص10 جريدة نيويورك تايمس 14 تموز 1958 ص1، 15 تموز 1958 ص1، 16 تموز 1958 ص1، 17 تموز 1958 ص1.

¹ دان : العراق ص57-59. الناييس (لندن) تشرين الاول 1958 ص10، 2ت 1 1958 ص7. نيويورك تايمس 24 ايلول 1958 ص4.

² نيويورك تايمس، 18 آذار 1959 ص4.

الوهاب الشواف قائد اللواء الخامس في لواء الموصل لاسقاط نظام قاسم.¹

لعبت شمر بقيادة احمد الياور دوراً وثيقاً في ثورة الشواف التي نشبت في الموصل في 7 آذار 1959. خلال الاسبوع الاول من آذار هربت العشيرة اسلحة صغيرة عبر الحدود السورية، ولما اعلنت الثورة اقبل عدة آلاف من الشمرين على البلدة،² لكن حضورهم لم ينتج سوى نتائج ضئيلة، وخلال 48 ساعة جاءت قوات الجيش العراقي الموالية ورجال العشائر الكردية من الشمال الشرقي فسيطروا على الموصل. قتل العقيد الشواف قائد الثورة الفاشلة بيد موظف صحي كردي بعد ان جرح خلال هجوم جوي. بالرغم من ابداء شمر شجاعة فائقة في تلك الظروف الحرجة فقد تكبدوا خسائر فادحة حين انهارت الثورة. وقد وقف رجال العشيرة في آخر لحظة يدافعون عن منزل احمد الياور الموصل الفاخري في قتال من الباب الى الباب ضد الحكومة، وقتل اكثر من 400 شمري بايدي الاكراد غير النظاميين.³

أسرع احمد الياور، وقد رافقه مؤيدوه المطوقون بعد ان نفذ

¹ ميشيل مونسيرو : قضية الموصل، مجلة الشرق القسم 3، 1959 ص24-25.

² جريدة "لي موند"، باريس، 19 آذار 1959 ص3.

³ حسن ارفع: الاكراد: دراسة تاريخية وسياسية (لندن 1966) ص132. عن تفاصيل ثورة الموصل راجع ((التايمس)) لندن، 9 آذار 1959 ص10، 10 آذار 1959 ص10، 11 آذار 1959 ص10، 12 آذار 1959 ص12، 14 آذار 1959 ص6. جريدة ((نيويورك تايمس)) 9 آذار 1959 ص10، منه ص11، منه ص1.

عتادهم، يطلب ملجأ في الحدود السورية.
وفي طول الطريق قام القرويون المخلصون للزعيم قاسم بقتل
عدد من الشمريين الهاربين. وخرجت طائرات القوة الجوية مرارا
تقصف بقايا القوة العشائرية النائرة.¹

وحاول احمد الياور من ملجأه في دمشق ان يواصل الكفاح ضد
الزعيم قاسم، لكن جهوده منيت بالفشل وقد جرح الشيخ وطبان بن
فيصل جرحا خطيرا في قتال الموصل فمات في القامشلي بسورية في
2 نيسان.²

في اعقاب الثورة الفاشلة احتجزت حكومة قاسم الاملاك
الشخصية لاحمد الياور وحاكمته غيابا امام محكمة شعبية في بغداد
وحكمت عليه بالموت.³

في 12 نيسان، بعد اقل من شهر بعد الثورة، منح الزعيم قاسم عفوا
عاما عن رجال شمر الذين اشتركوا في ثورة الموصل. وكان هذا العفو الذي
صدر عن نية طيبة مشجعا لمئات من الشمريين للعودة الى العراق.⁴

¹ مونسرا: القضية (مجلة الشرق، 3 القسم 3، 1959، ص28).

² مرآة الشرق الاوسط 11 رقم 4 (5 نيسان 1959) ص12. ((نيويورك تايمس)) في 18
آذار 1959 ص4.

³ سنين: شمر جربا ص21.

⁴ كالسابق. الشرق الحديث 39 (1959) ص319.

ان الهزيمة الفادحة التي كبدها الجيش العراقي والقوة الجوية في ربيع 1959 اكدت عدم تمكن شمر من تحدي القوة العسكرية المتزايدة مقدراتها والمستخدمه للأسلحة المعقدة للحكومة المركزية. علاوة على ذلك ان مجرد حقيقة كون احمد الياور قد حاول تحدي حكومة قاسم يصور الحيوية المستمرة لعشيرة شمر الجرباء خلافا لسائر العشائر التي ارغمت على ترك اسلوب حياتها البدوية.ترجع هذه القوة المتواصلة الى ثلاثة عوامل:

اولا، ان شمر هاجرت الى الجزيرة في وقت متاخر عن سائر العشائر العربية الاخرى و ثانيا، انها حافظت على صلات وثيقة بموطنها العشائري في نجد مما ساعد على صيانة قوة ثقافتها البدوية¹ ثالثا، ان العشيرة حافظت على وضعها القوي عن طريق الزعامة القوية لعجيل الياور وابنائهم الذين،بينما هم كيفوا انفسهم بنجاح للمجتمع العصري، حافظوا مع ذلك على الاتصال الوثيق باتباعهم من رجال العشيرة. خلافا لشيوخ كثيرين في جنوب العراق تنازلوا عن وضعهم في الزعامة العشائرية حين اصبحوا ملاكين غائبين، قضى الشيخان عجيل واحمد الياور مدة في كل سنة في الخيام مع ابناء عشيرتهما في

¹ روبرت مونتاني: ((ملاحظات عن الحياة الاجتماعية والسياسية في جزيرة العرب الشمالية)) (مجلة الدراسات الاسلامية 6(1932) ص63. قصص شعرية بدوية)) (نشرة الدراسات الشرقية 2(1932) ص40-41، 51.

البادية.¹

ان المقدرة العظمى لاسرة الياور في استثمار نواحي الثقافة الحديثة لفائدتها مع الاحتفاظ بدعم رجال عشيرتها شمر هيات تناقضا محسوسا لشيوخ عشائر العبيد والعمارات. مثلاً، ان اسرة الشاوي استقرت في بغداد خلال القرن التاسع عشر ثم فقدت دعم رجال عشيرتها العبيد.² في شكل اخر نجد فهد بن هزال الرئيس الاعلى لقبيلة العمارات العراقية قد فشل في التكيف للتغيرات السريعة التي حدثت في السنوات بين الحربين، ولذلك فقد القوة السياسية التي فاز بها عجيل الياور في الشؤون الوطنية والمحلية.³

واذا عدنا الى الوراء يمكننا ان ننسب القوة المستمرة لعشيرة شمر الجرباء في منتصف القرن العشرين الى براعة زعامة عجيل الياور الذي ثبت نفسه رئيسا عشائرياً ذا مزايا نادرة من الذكاء والخيال.

¹ عن الملاكين. الغائبين راجع روبرت فرنس: الشيخ والافندي: اشكال السلطة المتغيرة بين الشبانة في العراق الجنوبي (كمبريدج، 1970) ص 52.

² الجميل: البدو ص 285-286.

³ قون واينهايم: البدو الجزء الاول ص 195.

الخلاصة

ان دراسة شمر الجرباء قد اتاحت فرصة فريدة لحسن فهم التاريخ المهمل لهذه العشيرة البدوية المهمة، بل انها، اكثر من ذلك، اضافت معلومات ثمينة عن ناحيتين اخريتين من تاريخ الشرق الادنى المعاصر. خلافا لبحوث كثيرة حديثة تتعلق بدراسة التحول الذي طرا في العواصم كالقاهرة واستانبول، ركز هذا المؤلف البحث في ناحية حيوية من التاريخ المحلي. يضاف الى ذلك ان هذه الدراسة هيات فرصة لفحص المشكلة القديمة المتعلقة بتاثير هجوم الاقوام الرحالة على الثقافة الحضرية المستقرة في العراق.

كانت شمر قسما فقط من الهجرة البدوية التي غادرت جزيرة العرب في نهاية القرن الثامن عشر بسبب التهديد العسكري والسياسي الناشى عن انتشار حركة الوهابيين الدينية المتعصبة. ارغمت على ترك ديرتها العشائرية الواقعة حول جبل شمر في نجد، فنقلت فئة من شمر بقيادة الشيخ مطلق الجرباء نحو ملجأ مفترض في المنطقة النهرية من العراق الجنوبي. وهذا القسم من عشيرة شمر الذي صار يعرف باسم شمر الجرباء بقي في العراق بعد زوال الخطر الوهابي. وحين قتل مطلق الجرباء في معركة ضد الوهابيين تقلد الشيخ فارس الجرباء منصبه كرئيس اعلى واسس اسرة آل محمد الاسرة الحاكمة في شمر. سرعان ما قاد الرئيس الاعلى الجديد رجال عشيرته عبر نهر الفرات الى الجزيرة. وانتجت هذه الهجرة خطا فاصلا في موازنة الجزيرة العشائرية والجغرافية السياسية.

حصل تصادم مصالح فوري حين تحدث شمر العبيد العشيرة الكبرى في الجزيرة للسيطرة على المنطقة. تعاون الشيخ فارس الجرباء ببراعة مع ولاية المماليك في بغداد فهزم العبيد عسكريا، ولم تمض سنوات قليلة حتى ارغمهم على ترك الجزيرة واتخاذ ديرة جديدة شرقي نهر دجلة. وفي محاولتهم السيطرة على الاراضي بين دجلة والفرات ارغم الشمريون ايضا عشيرتي طيء والجبور على مغادرة ديرتهما التي اشغلتها قرونا. وفيما عدا اجراء اعادة تخطيط اساسي جغرافي سياسي قلب نمط الحياة النجدي البدوي لشمر ايضا التوازن الثقافي القائم في الجزيرة.

اصبحت شمر القبيلة العربية المتفوقة في النصف الشمالي من ولاية بغداد، ولم يمض وقت طويل حتى طورت مقدراتها العسكرية لتحدي اوامر الحكومة المركزية في بغداد والموصل. زاد الشيخان فارس الجرباء وصفوق بن فارس قوتها العسكرية العشائرية الى حد كبير حتى ان والي بغداد من المماليك استعان بشمر الجرباء كمساعدين للجيش النظامي. في مناسبات متعددة بين 1805 و1830 غلبت العشيرة فعلا معارك كبيرة لولاية المماليك. وهذه الانتصارات ضمننت للشيخين فارس وصفوق وظائف سياسية مربحة وصوتا قويا في شؤون الولاية. خلال هذه المدة من التوطيد توسعت ديرة شمر في انحاء الجزيرة والى العراق الشمالي.

بدا عهد جديد في تاريخ شمر سنة 1830 حين باشر السلطان

محمود الثاني اصلاحات دامت قرنا من الزمن لاعادة السيطرة العثمانية المباشرة على ولاية بغداد. حصر الباب العالي جهوده في اول الامر في احلال موظفين عثمانيين محل باشاوات بغداد والموصل شبه المستقلين. ولما مر الزمن، تم ايضا اخضاع رؤساء العشائر الاكراد والعرب الاقوياء المستقلين اداريا في الجزيرة وشمال العراق بحركات عسكرية منظمة ترمي الي انهاء استقلالهم وكانت حملة رئيسية سنة 1835 بقيادة رشيد باشا ادت الى القبض على الشيخ صفوق الزعيم الاسطوري وسجلت مبدا قرن واحد من المحاولات لثلاث حكومات مختلفة لوقف الغزو العشائري.

عاد الشيخ صفوق الى الجزيرة بعد غياب اجباري دام ثلاث سنوات في استانبول وحاول استرجاع وضعه السابق ك ((سلطان البر)) أي حاكم الاراضي.

وقد اغتيل الزعيم الكبير بعد عشر سنوات بيد اعوان نجيب باشا. خسرت شمر بوفاة صفوق اعظم قوادهم المقتدرين في القرن التاسع عشر.

ثقل الاتجاه نحو السيطرة العثمانية على شؤون العشائر بقوة اكثر على امتيازات البدو خلال سنوات الخمسين والستين (من القرن التاسع عشر). فالتنظيم العسكري المتحسن والتجديدات التكنولوجية كخطوط البرق ساعدت الحكومة على التخطيط لمهاجمات على مقياس واسع ضد شمر.

حاول مدحت باشا والي بغداد المصلح بين سنة 1868 و 1871 ان يسيطر على غزو العشائر عن طريق سياسة ذات حدين في دحرها عسكرياً ومنحها اراضي تكون بديلاً اقتصادياً حيويّاً لحياة السلب والنهب. دمر مدحت باشا مقدرة شمر على تحدي الجيش العثماني في صيف سنة 1871 حين حطمت قواته ثورة عشائرية مدبرة قادها الشيخ عبد الكريم بن صفوق. ومع ان مشروع التسوية اعطى فرحان باشا منحة ارض واسعة في قلعة الشرقاط لقاء مساعدته في اسكان شمر فانه اخفق في تحقيق النتائج المطلوبة. لكن محاولة الاسكان الابتدائية هذه سجلت مرحلة كبرى في تبديل ثقافة شمر الجرباء البدوية.

خلال السنوات الاربعين التالية حدثت تجديدات تكنولوجية كنظام خطوط برقية متسعة وادخال البنادق المتعددة الطلقات، فزادت مقدرة الحكومة لتحديد غزوات شمر وفرض "الخاوة". وجاءت نهضة الاتحاد القوي لعشائر الملية الكردية في نهاية القرن تتحدى اكثر من ذلك تفوق شمر العشائري في الجزيرة. ولم تنتشب الحرب العالمية الاولى حتى ادركت شمر بوضوح انها لا تستطيع تحدي اوامر الاتراك بالطريقة التي اعتادت عليها فيما مضى. مع ذلك استمرت العشيرة على نمط حياتها البدوية التقليدية.

زادت سرعة التغيير بشدة بين 1918 و 1939 حتى تمكنت الحكومة العراقية المركزية ومستشاروها البريطانيون اخيراً من السيطرة على شمر وسائر القبائل العراقية. يعزى تغيير توازن القوى

إلى عدة عوامل مهمة :- فالتسوية السياسية التي اعقبت الحرب والتي قسمت ديرة العشيرة بين حكومات منفصلة ثلاث اضعفت وحدة شمر. وعلى غرار ذلك هيأت التكنولوجيا العسكرية المتطورة خلال الحرب العالمية الاولى القوة المتزايدة وسرعة الحركة اللازمة لتقييد غزو العشائر وهجرتها. نذكر على التعيين الاذاعة والهاتف التي يسرت المواصلات السريعة اللازمة لشدة هجوم الطائرات والسيارات المسلحة ضد جماعات شمر الغازية. وهذه التطورات التكنولوجية قضت على الامتيازات العسكرية التي تمتع البدو بها تقليدياً وتغلبوا على الحكومة المركزية.

ملاحظة ختامية مهمة اخرى يمكن استخلاصها من هذه الدراسة هي ان ثقافة شمر البدوية وتنظيمها العشائري قد تغير كل التغيير خلال المائة والخمسين سنة الماضية. خلال هذه المدة ابدت شمر عدم امكان الاحتفاظ بوحدها. ان البذرة العشائرية المتحدة التي هاجرت إلى الجزيرة بقيادة شيخ قوي فرد هو مطلق الجرباء تنامت بسرعة حتى ان العشيرة، في سنة 1878، تجزأت إلى جماعتين مختلفتين : شمر الغربية في سورية وشمر الشرقية في العراق. ومثل ذلك ورثة الشيخين صفوق وفرحان الكثيرون من الاولاد، مع وجود نظام وراثية غير معين، انتجت منازعات خطيرة متعددة على الرئاسة كان لها شأنها في اضعاف وحدة العشيرة.

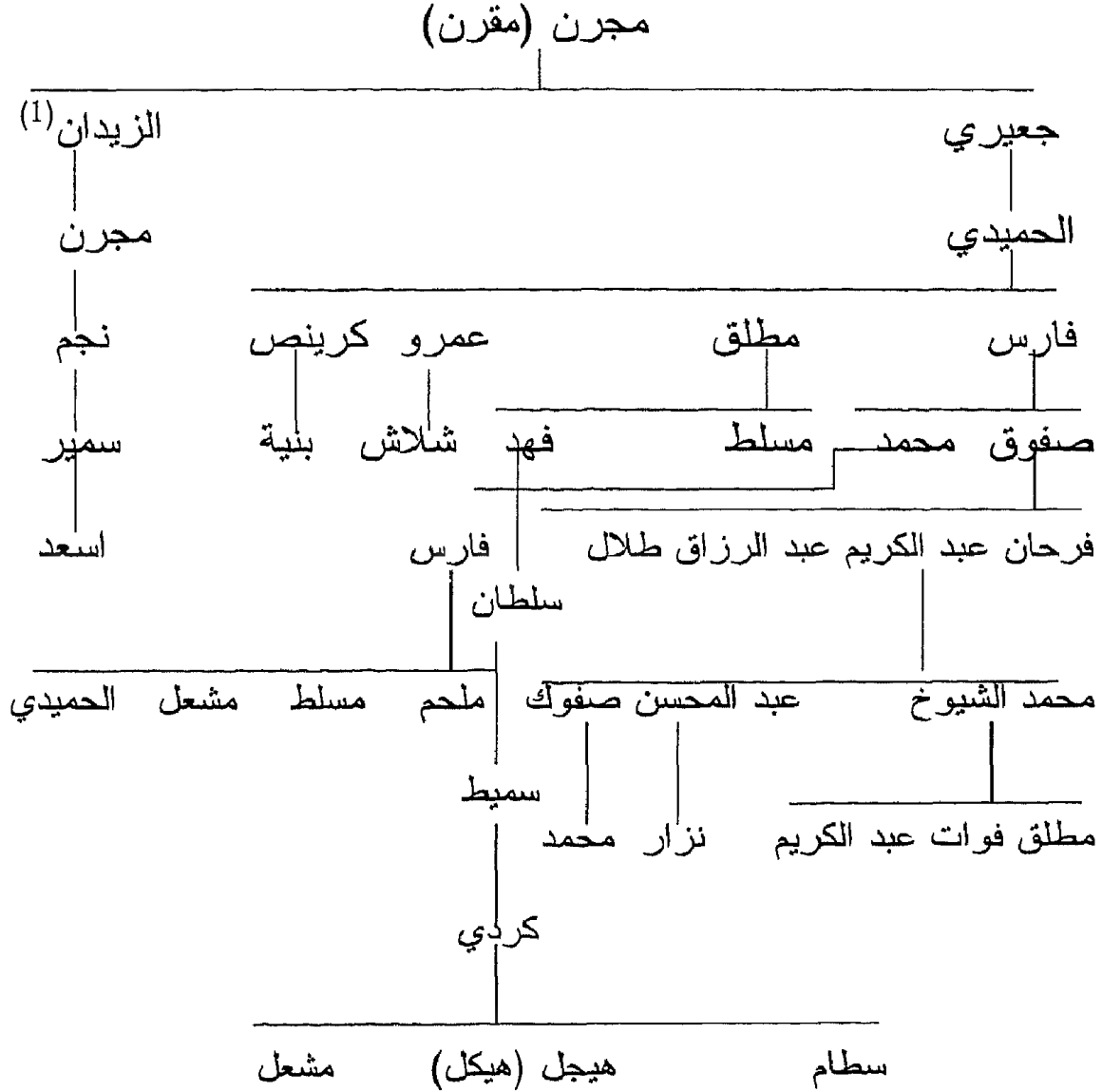
مرت ثقافة شمر النجدية البدوية بتغييرات محسوسة بزيادة

اتصالات العشيرة بالمجتمع المستقر خلال القرن التاسع عشر. مثلاً خلال سنوات الأربعين حين زاد الطلب الاوربي على الصوف العربي، اخذوا افراد العشيرة يعملون رعاة لتجار الموصل الاغنياء. وكان الشمريون ايضاً يزورون كل سنة مدن الولاية المختلفة لشراء الحبوب الضرورية لمعيشتهم. وكان مشروع الاستيطان العشائري الذي بدأ به فرحان باشا في قلعة الشرقاط سنة 1870 مثلاً آخرأ لتسرب الثقافة المستقرة إلى حياة شمر. لكن اعظم التغييرات العميقة في ثقافة شمر حدثت بعد الحرب العالمية الاولى. بين سنة 1920 و 1940 لم تبدأ وسائل النقل ذات المحرك بالحل محل الجمال فحسب كالطريقة الاقتصادية للنقل في البادية بل جاءت تجديلات اخرى ارغمت الكثير من اقسام شمر على ترك حياتها الرحالة والاستقرار كزراع.

من كل مظاهر الثقافة الشمرية مر منصب رئاسة العشيرة كما كان مشخفاً في الرئيس الاعلى باعظم التطورات واشدها عمقاً. فالرئيس البدوي التقليدي مثل الشيخ صفوق بن فارس احرز منصبه ببسالته العسكرية وحكمته وفصاحة كلامه ومقدرته على تحدي الحكومة المركزية. خلافاً لذلك ان الرئيس الاعلى الناجح في العصر الحاضر مثل عجيل الياور نال منصبه، لا لمهارته الحربية، بل خصوصاً لشهرته كسياسي وطني وعلاقاته الوثيقة بالحكومة المركزية ومقدرته في الاعمال الاقتصادية ولم تأت جاذبيته كزعيم بدوي تقليدي الا في المحل الثاني.

كما تدل عليه نتائج هذه الدراسة بوضوح، ان عشيرة شمر لعبت دوراً حيويّاً في تاريخ العراق وسورية الحديث لم يحز التقدير اللائق به من قبل. امام التحديات المختلفة الكثيرة خلال المائة والخمسين سنة الاخيرة، حافظت شمر على كرامتها وشخصيتها كالعقبيلة المتفوقة في الجزيرة.

شجرة نسب آل محمد



(1) لم نتمكن من ذكر سلسلة الزيدان كاملة بتفريعاتها وانما اقتصرنا على رئيسها واتصاله بزيدان المذكور.

المصادر

دائرة السجلات العامة في لندن :

محافظ وزارة الطيران سلسلة 23 (الاستخبارات العراقية)

محافظ وزارة المستعمرات سلسلة 693، 696

محافظ وزارة الخارجية سلسلة 195 (تركية)

371 (بعد 1905)، 372.

وزارة علاقات الكومنولث : سجلات وزارة الهند، لندن

الدائرة السياسية والسرية، رسائل من الخليج 1830-1850

الوثائق المنشورة

بريطانية العظمى

وزارة البحرية : قسم الاستخبارات البحرية

سلسلة الكراريس الجغرافية : العراق والخليج (اكسفورد 1944).

المراجع العربية

عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين (8 اجزاء بغداد،

1935-1956)

- عشائر العراق (4 اجزاء) بغداد 1957.

حسين بن غنام : تاريخ نجد (مصر 1961).

عبد الله بن مسلم بن قتيبة : عيون الاخبار (4 اجزاء القاهرة

1925-1930).

عمرو بن بحر الجاحظ : البيان والتبيين (4 اجزاء، القاهرة 1968).

- كتاب الحيوان (8 اجزاء، مصر 1965).

- مكي الجميل : البداوة والبدو في البلاد العربية (1962).
- البدو والقبائل الرحالة في العراق (بغداد 1956).
- رسول الكركوكلي : دوحة الوزراء (مترجم عن التركية موسى كاظم نورس، بيروت 1963).
- امين بن حسن الهلوي المدني : مطالع السعود (بومبي 1885).
- صلاح الدين المختار : تاريخ المملكة العربية السعودية (جزآن بيروت 1957).
- عبد العزيز سليمان نوار : داود باشا والي بغداد (القاهرة 1967).
- تاريخ العراق الحديث (القاهرة 1968).
- ابو علي اسماعيل بن القاسم القالي : كتاب الامالي (جزآن بيروت 1965).
- سليمان الصائغ : تاريخ الموصل (القاهرة 1923).
- وزارة الداخلية : مذكرات المجلس التأسيسي العراقي (جزآن بغداد 1925).
- وصفي احمد زكريا : عشائر الشام (دمشق 1948).
- محمد امين زكي : خلاصة تاريخ الكرد وكرديستان (بغداد 1961).
- تاريخ السليمانية (بغداد 1951).

المصادر الأجنبية

Great Britain

Public Record Office, London

Air Ministry files, Series 23

(Iraqi Intelligence)

Colonial Office files, Series 693, 696.

Foreign Office files, Series 195 (Turkey), 371 (post-1905), 372.

Commonwealth Relations Office: India Office Records, London.

Political and Secret Department, Letters from Persian Gulf 1830-1850.

Published Documents

Great Britain

Admiralty: Naval Intelligence Division.

Geographical Handbook Series, **Iraq and the Persian Gulf**, Oxford, 1944.

Arabic Works

al-'Azzaw, 'Abbas, **Ta'rkh al-'Iraq bayna Ihtalayn**, 8 Volumes. Baghdad, 1935-1956.

'Asha'ir al-'iraq. 4 Volumes, Baghdad, 1957.

Ghannam, Husayn ibn. **Ta'rkh Najd**. Egypt, 1961.

- Ibn Qutaybah, 'Abd Allah ibn Muslm, **Kitab'Uyun al-Akbar**. 4 Volumes, Cairo, 1925-1930.
- al-Jahiz, 'Amr ibn Bahr. **al-Bayan wa al-Tabayn**. 4 Volumes, Cairo, 1968.
- Kitab al-Hayawan**. 8 Volumes. Egypt, 1965.
- al-Jaml, Makk. **al-Badwah wa al-Badw f al-Bilad al-'Arabiya**. n.p.p., 1962.
- al-Badw wa al-Qaba'il ar-Rihhalah f al-'Iraq**. Baghdad, 1956.
- al-Kirkukl, Rasul. **Dawha al-Wuzara'**. translated from Turkish by Musa Kazim Nurus. Beirut, 1963.
- al-Madin, Amn ibn Hasan al Halaw. **Mutali'u as-Sa'ud**. Bombay, 1885.
- al-Mukhtar, Salah ad-Dn. **Ta'rkh al-Mamlakah al-'Arabya as-Sa'udiyah**. 2 Volumes. Beirut, 1957.
- Nawwar, 'Abd al-'Azz Sulayman. **Dawud Basha Wal Baghdad**. Cairo, 1967.
- Tarkh al-'Iraq al-Hadth**. Cairo, 1968.
- al-Qal, Abu'Al Isma'l ibn al-Qasim. **Kitab al-Amal**. 2 Volumes. Beirut, 1965.
- Sa'igh, Sulayman. **Tarkh al-Mausil**. Cairo, 1923.
- Wizara ad-Dakiliya. **Mudhakara, al-Majlis al-Ta'sisi al-'Iraq**. 2 Volumes. Baghdad, 1925.
- Zakariya, Wasf Ahmad. **'Asha'r ash-Sham**. Damascus, 1948.
- Zak, Muhammad Amn. **Khulasat Ta'rkh al-kurd wa kudistan**. Baghdad, 1961.
- Ta'rkh as-Sulaymaniyah**. Baghdad, 1951.

Monographs and General Works

- Arfa, Hassan, **The Kurds and Historical and Political Study**. London, 1966.
- Badger, George Percy. **The Nestorians and Their Rituals**. London, 1852.

- Baer, Gabriel. **Population and Society in the Arab East**. Translated from the Hebrew by Hanna Szoke. London, 1964.
- Belyaev, E.A. **Arabs, Islam, and the Arab Caliphate in the Early Middle Ages**. Translated from the Russian by Adolphe Gourevitch. New York, 1969.
- Berkes, Niyazi. **The Development of Secularism in Modern Turkey**. Montreal, 1964.
- Blunt, Anne. **Bedouin Tribes of the Euphrates**. New York, 1879.
- Bodman, Herbert, Jr. **Political Factions in Aleppo 1760-1826**. Chapel Hill, 1963.
- Boveri, Margaret. **Minaret and Pipe-Line: Yesterday and Today in the Near East**. Translated from the German by Louisa M. Sieveking. London, 1939.
- Brice, William C. **South-West Asia: A Systemic Geography**. London, 1967.
- Burce, C.E., "The Sandeman Policy as Applied to Tribal Problems of To-Day", **Journal of the Royal Central Asian Society**, XIX (1932).
- Budge, Ernest. **By Nile and Tigris: A Narrative of Journeys in Egypt and Mesopotamia on Behalf of the British Museum Between the Years 1886 and 1913**. 2 Volumes. London, 1920.
- Burckhardt, John Lewis. **Notes on the Bedouins and the Wahabys**. London, 1831.
- Burgoyne, Elizabeth. **Gertrude Bell, From Her Personal Papers. 1914-1925**. 2 Volumes. London, 1958-1961.
- Buringh, P. **Soils and Soil Conditions in Iraq**. Baghdad, 1960.
- Busch, Briton C. **Britain, India, and The Arabs, 1914-1921**. Berkeley, 1971.
- Cressy, George Babcock. **Crossroads: Land and Life in Southwest Asia**. Chicago, 1960.
- Dann, Uriel **Iraq Under Qassem: A Political History, 1958-1963**. New York, 1969.
- Davidson, Roderick, **Reform in the Ottoman Empire, 1956-**

1876. Princeton, 1963.
- Devereux, Robert, **The First Ottoman Constitutional Period, A Study of the Midhat Constitution and Parliament.** Baltimore, 1963.
- Dickson, Harold, **the Arab of the Desert: A Glimpse into Badawin Life in Kuwait and Saudi Arabia.** London, 1949.
- Field, Henry, **Anthropology in Iraq.** 2 Volumes. Chicago, 1940-1952.
- Fisher, William Bayne. **The Middle East: A Physical, Social and Regional Geography.** 6th Edition. London, 1951.
- Fraser, James Baillie. **Travels in Kurdistan and Mesopotamis.** 2 Volumes. London, 1840.
- Gabrieli, Francesco. **Muhammad and the Conquest of Islam.** Translated from the Italian by Virginia Luling and Rosamund Linell. New York, 1968.
- Grant, C.P. **The Syrian Desert: Caravans-Travel and Explorations.** New York, 1938.
- Haldane, James Aylmer Lowthrop. **The Insurrection in Mesopotamis, 1920.** Edinburgh, 1922.
- Hitti, Philip Khubri. **History of the Arabs: From the Earliest Times to the Present.** 9th Edition. New York, 1967.
- Hourani, Albert. **A Vision of History: Near Eastern and Other Essays.** Beirut, 1961.
- Huart, Clement Ibault. **Histoire de Baghdad dans les Temps Modernes.** Paris, 1901.
- Ireland, Philip Ward. **Iraq: A Study in Political Development.** New York, 1938.
- al-Kasab, Nafir Nasir. **Die Nomadenansiedlung in der Irakischen Jezirah.** Tubingen, 1966.
- Khadduri, Majid, **Independent'Iraq: A Study in'Iraqi Politics from 1932-1958.** 2nd Edition. London, 1960.
- Republican'Iraq: A Study in'Iraqi Politics Since the Revolution of 1958.** London, 1969.
- Layard, Austen Henry. **Discoveries Among the Ruins of Nineveh and Babylon.** New York, 1853.

- Nineveh and Its Remains.** Edited by H.W.F. Saggs. London, 1970.
- LeSttange, Guy. **The Lands of the Eastern Calphate.** New York, 1965.
- Lewis, Bernard. **The Emergence of Modern Turkey.** London, 1961.
- Loftus, William Kennett. **Travels and Research in Chaldaea and Susiana.** London, 1857.
- Longrigg, Stenba Hemsley. **Four Centuries of Modern Iraq.** Oxford, 1925.
- Iraq 1900-1950: A Political, Social and Economic History.** Oxford, 1953.
- Syria and Lebanon Under French Mandate.** London, 1958.
- Main, Ernest. **Iraq: From Mandate to Independence.** London, 1935.
- Ma'oz, Moshe. **Ottoman Reform in Syria and Palestine, 1840-1861; the Impact of the Tanzimat on Politics and Society.** Oxford, 1968.
- Mardin, Sherif. **The Genesis of Young Ottoman Thought: A Study in the Modernization of Turkish Political Ideas.** Princeton, 1962.
- Margoliouth, D.S. "Wahhabiya", E.I., Vol. IV, 1086-1087.
- Midhat,'Ali Haydar. **Midhat-Pacha Sa Vie-Son Oeuvre.** Paris, 1908.
- Mitford, Edward Ledwich. **A Land March from England to Ceylon Forty Years Ago.** London, 1884.
- Montagne, Robert. **La Civilization du Desért: Nomades d'Orient et d'Afrique.** Paris, 1947.
- Musil, Alois. **The Manners and Customs of the Rwala Bedouin.** New York, 1928.
- The Middle Euphrates: A Topographical Itinerary.** New York, 1927.
- Nevakivi, Jukka. **Britain, France and the Arab Middle East, 1913-1920.** Oxford, 1969.
- Niebuhr, Carsten. **Beschreibung von Arabien.** Kopenhagen, 1772.

- Oates, David. **Studies in the Ancient History of Northern Iraq.** London, 1968.
- Patai, Raphael. **Golden River to Golden Road, Society, Culture and Change in the Middle East.** Philadelphia, 1962.
- Peretz, Don. **The Middle East Today.** New York, 1965.
- Peters, J.P. **Nippur; or, Explorations and Adventurers on the Euphrates.** 2 Volumes. New York, 1898.
- Philby, Harry St. John Bridger, **Arabia.** London, 1930.
- Rabbath, E. **l'Évolution Politique de la Syrie sous Mandat.** Paris, 1923.
- Ramsaux, Ernest Edmondson, Jr. **The Young Turks; Prelude to the Revolution of 1908.** Princeton, 1957.
- Rassam, Hormuzd. **Asshur and the Land of Nimrod.** New York, 1897.
- Rich, Claudius James. **Narrative of a Residence in Koordistan.** 2 Volumes. London, 1836.
- Riousseau, Jean. **Description du Pashalic de Baghdad** Paris, 1809.
- Sachar, Howard Morley. **The Emergence of the Middle East.** New York, 1969.
- Europe Leaves the Middle East: 1936-1954.** New York, 1972.
- Sachaw. E. **Reise in Syrien und Mesopotamien.** Leipzig, 1883.
- Shaw, Stanford. **Between the Old and the New: The Ottoman Empire under Salim III.** Cambridge, 1971.
- Shiha, Habib K. **Le Province de Baghdad, Son Passé, Son Présent, Son Avenir.** Cairo, 1908.
- Stein, Lothar. **Die Sammar-Gerba: Beduinen im Urbergang von Nomadismus zur Sesshaftigkeit.** Berlin, 1967.
- Sykes, Mark. **The Caliph's Last Heritage; A Short History of the Turkish Empire.** London, 1915.
- Dar al-Islam. A Record of a Journey Through Ten of the Asiatic Provinces of Turkey.** London, 1904.
- Tibawi, Abdul Latif. **A Modern History of Syria Including Lebanon and Palestine.** London, 1969.

- Vaucelles, Pierre de **La Vie en Iraq Il Y A Un Siècle, Par Nos Consuls**. Paris, 1963.
- Vernier, Bernard. **L'Iraq d'Aujourd'hui**. Paris, 1963.
- Von Oppenheim, Max Freiherr, **Die Beduinen: Die Beduinenstämme in Mesopotamien und Syrien**. Volume I of 4 Volumes. Leipzig, 1939-1952.
- Vom Mittelmeer zum Persischen Golf durch den Hauran, die Syrische Wüste, und Mesopotamien**. 2 Volumes. Berlin, 1899-1900.
- Warriner, Doreen. **Land Reform and Development in the Middle East: A Study of Egypt, Syria, and Iraq**. London, 1957.
- Wilson, Arnold Talbot. **Loyalties Mesopotamia: 1914-1917**. London, 1931.
- Mesopotamia, 1917-1920: A Clash of Loyalties; A Personal and Historical Record**. London, 1990.
- Winder, R. Bayley. **Saudi Arabia in the Nineteenth Century**. New York, 1965.
- Zeine, N. Zeine. **The Struggle for Arab Independence: Western Diplomacy and the Rise and Fall of King Faisal**. Beirut, 1960.

Articles

- Baer, Gabriel, "Iltizam", **E.I.2**, Vol. III, 1154-1155.
- Canard, Marius. "Djazira", **E.I.2**, Vol. II, 523-524.
- Caskel, W. "'Amir B. Tufayl", **E.I.2**, Vol. I, 442.
- Elphinstone, W.G. "The Kurdish Question", **International Affairs**, XXII (1949), 91-103.
- Glubb, John. "The Bedouins of Northern Iraq", **Journal of the Royal Central Asian Society**, XXII, Pt. 1 (1935), 15-29.
- Graf, E. "'Anaza", **E.I.2**, Vol. I, 482-483.
- Huart, Clement. "Notice sur les Tribus Arabes de la Mesopotamie", **Journal Asiatique**, Series VII, XIII (1878), 215-240.
- Jwaideh, Albertine. "Midhat Pasha and the Land System of

- Lower Iraq", in **Middle Eastern Affairs**, No. III, Albert Hourani, Editor. **St. Antony's Papers**, No. XVI. Carbon-dale, nd., 106-136.
- Lewis, Norman, "The Frontier of Settlement in Syria 1800-1950", **International Affairs**, XXXI (1955), 48-60.
- Longrigg, Stephen Hemsley, "Baban", **E.I.2**, Vol. I, 845.
- "Bahdnan", **E.I.2**, Vol. II, 920.
- Menzel, T. "Yazd", **E.I.**, Vol. IV, 1163-1170.
- Mideast Mirror**, XI, No. 4 (April 5, 1959), 12.
- Montagne, Robert. "Contes Poétiques Bédouins (Recueillis Chez Les Sammar de Gezire)", **Bulletin des Etudes Orientales**, V. (1935), 33-119.
- "Quelque Aspects du Peuplement de la Haute Djeziré", **Bulletin des Etudes Orientales**, II (1932), 53-66.
- Montserrat, Michel. "L'Affaire de Mossoul", **Orient**, IX (1959), 23-30. **Oriente Moderno**, XXXIX (1959), 319.
- Pellat, Charles. "al-Ahnaf B. al-Kays", **E.I.2**, Vol. I, 303-304.
- Ross, John, "Notes on Two Journeys from Baghdad to the Ruins of al-Hadr in Mesopotamia in 1836-1837", **Royal Geographical Society Journal** IX (1839), 443-467.
- Rondot, Pierre. "Les Tribus Motagnardes de L'asie Anterieure", **Bulletin des Etudes Orientales**, VI (1936).
- Sweet, Louise. "Camel Raiding of North Arabian Bedouin: A Mechanism of Ecological Adaptation", **American Anthropologist**, LXVII, (1965), 1132-1150.
- Vinogradov, Amal. "The 1920 Revolt in Iraq Reconsidered the Role of The Tribes in National Politics", **International Journal of Middle Eastern Studies**, III (1972), 123-139.

فهرست المحتويات

7 نوطئة . شرم المشكلة
12 جغرافية الجزيرة - ملاحظات تاريخية -
14 الجغرافية الطبيعية
20 السكان
23 العشيرة البدوية
26 نظام العشائر
28 الأنقسامات الاجتماعية
30 شيخ العشيرة
33 العادات والقيم البدوية
35 السياسة الجغرافية في الجزيرة
36 ولاية (باشوية) بغداد سنة 1800

الفصل الأول

وصول شمر الجرباء الى الجزيرة

43 شكل الاحتلال البدوي
46 هجرة شمر: المرحلة الأولى 1690-1760
48 غارة شمر: المرحلة الثانية 1790-1840
53 شمر الجرباء في الجزيرة 1800-1818
62 تأثير نزول شمر على الجزيرة

الفصل الثاني

بروز شمر في الجزيرة: عهد صفوك بن فارس

1847-1818

68 بروز داود باشا 1817
71 تفوق البدو العسكري
73 طرائق المماليك للسيطرة على البدو
75 بروز صفوك بن فارس 1825-1818
80 العلاقات بين الحكومة وشمر سنة 1830-1825
82 سقوط داود باشا
85 علي رضا باشا والعشائر العربية
92 سياسة الحكومة في الحكم المباشر - حملة رشيد باشا سنة 1935
98 عهد تردد 1845-1840
103 المعركة التي لابد منها 1846

الفصل الثالث

عهد تعديل: تحفظ العلاقات بين العثمانيين

وشمر 1868-1848

115 المواقف بين الأتراك وشمر
117 التحزب داخل العشيرة
122 شؤون شمر والعثمانيين 1851-1847

131	نتائج رئاسة شمر العاجزة
135	شؤون شمر والعثمانيين 1857-1861
138	تغيير العلاقات بين العثمانيين وشمر 1857-1858
142	عهد غموض 1860-1862
145	الحملة العثمانية لسنة 1862
150	عشيرة شمر هادئة 1862-1868
152	سبعون سنة في الجزيرة عشيرة شمر سنة 1868

الفصل الرابع

الأنقسام الداخلي والتحدي الخارجي 1869-1914

160	اصلاحات مدحت باشا - الأسكان العشائري -
166	سياسة مدحت باشا العشائرية وشمر الجرباء 1870-1871
168	تمرد شمر سنة 1871
173	قبيلة شمر الشرقية والغربية 1872-1880
178	نظام متغير 1800-1914
188	شمر الغربية 1890-1914
194	العلاقات بين شمر الشرقية والعثمانيين 1890-1914
202	شمر والحرب العالمية الأولى 1914-1918

الفصل الخامس

مشيخة عجيل الياور 1918-1940

217 الجزيرة 1918-1920
223 شؤون العشيرة 1919-1922
233 الصراع بين دهام الهادي وعجيل الياور 1922-1932
	اشكال متغيرة في زعامة شمر - سيرة عجيل الياور -
257 1922-1940

الفصل السادس

شمر الجرباء 1940-1958

279 الخلاصة
289 المصادر
293 خلاصة ترجمة المؤلف
295 فهرست المحتويات

كتاب نادر وضعه الباحث الأمريكي المحقق
جون فريديريك وليمسن أستاذ الآداب في جامعة
انديانا عن قبيلة شمر العربية منذ نزوحها إلى
العراق حتى يوم 14 تموز 1958، وهي أطروحة
قدمها المؤلف إلى شعبة التاريخ في جامعة انديانا
للحصول على الدكتوراه في الفلسفة.
اهتم الشيخ محسن العجيل الياور بهذا الكتاب
لعلاقته بتاريخ القبيلة فضلاً عن أنه يشكل
صفحة رائعة من تاريخ العراق في القرن التاسع
عشر والنصف الأول من القرن العشرين، وقد
نشرنا ترجمته العربية.
إنه كتاب جدير بالقراءة لأنه يمثل أهم فترة من
تاريخ العراق السياسي.

الناشر

To: www.al-mostafa.com